

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة بحوث ودراسات رقم 12

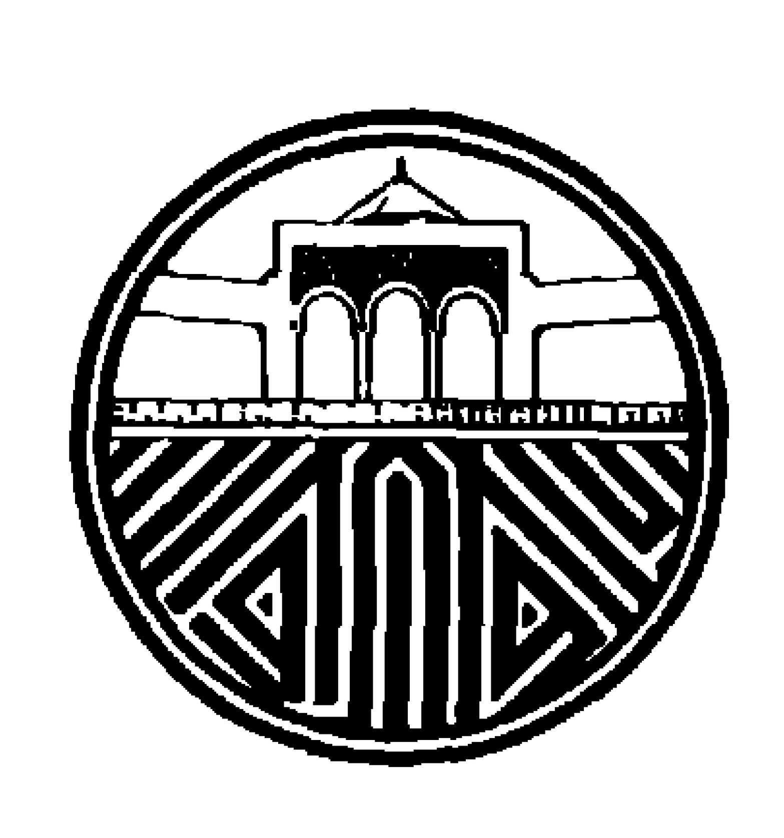
سعيد بنسعيد العلوي

أوروبا في مرآة الرحلة

صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة

أوروبا في مرآة الرحلة





المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة بحوث ودراسات رقم 12

صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة

أوروبا في مرآة الرحلة

سعيد بنسعيد العلوي

1995 - 1416

الكتاب : **أوربا في مرآة الرحلة (صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة).**
المؤلف : سعيد بنسعيد العلوي.
منشورات : كلية الآداب بالرباط.
الغلاف : إعداد عمر أفا.
الخطوط : بلعيد حميدي.

التصفيف : أنسيف الزنايدي، الرباط، الهاتف : 72.70.66.
الطبع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء.
ردمك : 0-36-825-9981.
رقم التصنيف الدولي : 0369-1113.
رقم الإيداع القانوني : 1995/472.
الطبعة الأولى : 1995/1415.

طبع هذا الكتاب بدعم
من مؤسسة كونراد أديناور

الإهـــــداء

إلى شقيقي إدريس
وإلى الأخوين محمد الهلالي ومحمد بلعربي أعفيف

سعيد بنسعيد العلوي

مـقـدمـة

تشكل الرحلة جنسا أدبيا يتسم بالطرافة، متى قورن بالأجناس الأدبية الأخرى، ويمتاز بجمعه بين الإفادة والإمتاع. فقارئ الرحلة لا يطلع على العالم الذي ينقله إليه المسافر صاحب الرحلة فحسب، بل يتعرف على أفكار وتصورات ورؤى ذلك الذي يحدثه عن موضوع رحلته وينقل إليه مشاهدات من البلد، أو البلاد، التي ينتقل إليها. وهكذا فنحن نجد أن ما كتبه الرَّحَّالون العرب إلى أوربا، منذ القرن المنصرم، يشكل بالنسبة لمؤرخ الفكر العربي الإسلامي المعاصر مادة ثمينة تفيده في التعرف على الكيفيات التي ينظر بها العرب إلى واقع تأخرهم و«انحطاطهم» في مقابل «تقدم أوروبا» وتفوقها. وإذا كنا نعلن، في عنوان كتابنا هذا، أن حديثنا سيكون حديثا في «أدب الرحلة المغربية المعاصرة»، فإن ذلك لا يعني أننا نجنح إلى الاِعتقاد بأن في وسع تفكيرنا هذا أن يخرج عن دائرة القول العام في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة : فلا سبيل إلى فهم الثقافة المغربية المعاصرة عموما (وأدب الرحلة بعض منها) إلا متى أدرجناها في الإشكال العام للفكر العربي الإسلامي المعاصر من جهتين على الأقل : أولهما قيمة «الماضي» وثقل التراث العربي الإسلامي وفعله في وجدان المفكر العربي الإسلامي المعاصر وعمله فيه. وثانيهما : ثقل «الحاضر» وما يفيض به من هموم «نهضوية» أو من هموم ترجع إلى الإشكال العام المتعلق بالحديث عن الواقع العربي الإسلامي المعاصر : سواء في ذلك الواقع من جهات الاجتماع والسياسة والحضارة، وتخلُّفهُ عن ركب الإنسانية «المتقدمة» مع قوة الماضي الحضاري وعظمته.

لكن هذا التقرير لا يمنع من القول إن دارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر في المغرب يجد نفسه أمام جملة معطيات ترجع إلى الجغرافيا من جهة أولى (قربه الشديد من أوروبا، فهو قيد كيلومترات قليلة منها)، وإلى النظام السياسي من جهة

ثانية (فهو نظام ملكية تضرب في التاريخ بأزيد من آثني عشر قرنا، آتصل فيها وجودها وتأكدت قوتها ؛ فالمغرب إحْدى المناطق العربية القليلة التي لم تعرف الحكم العثماني ولم تخضع لسلطته، ولهذا أثره ومعناه القويّان)، وترجع من جهة ثالثة إلى وحدة المذهب الديني (فهو أشعري في عقيدته، مالكي في مذهبه).

نحسب أن في كتابنا اليوم استمرارا لما شرعنا فيه من عمل بالأمس في كتابنا «**الاجتهاد والتحديث : دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب**» (الصادر عن مركز دراسات العالم الإسلامي). فكما أننا قد زاوجنا في الكتاب المذكور بين البحث، من جهة أولى، وبين الإسهام، من جهة ثانية، في إظهار ما لا يزال الغبار يعلق به من نصوص المكتبة العربية الإسلامية المعاصرة من نصوص في المغرب، فنحن نسلك اليوم السبيل نفسه. لذلك ألحقنا بدراستنا هذه نصا هو مخطوطة «**الرحلة الأوروبية**» لمؤلفها محمد بن الحسن الحجوي، بعدما اجتهدنا في تنقيحها وجعل قراءتها سهلة التناول، ونتفا من نص آخر هو مخطوطة «**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**». كذلك فإن اعتقادنا لا يزال راسخا بأن في آلانكباب بالدرس والبحث على الفكر العربي الإسلامي المعاصر في المغرب تطويرا لمعرفتنا بالفكر العربي الإسلامي المعاصر عامة، ومن ثم فلا نزال نحث الباحثين على الخوض بنصيب في مشروع جماعي يستلزم، بطبيعته، الصبر وطول النفس.

حق علينا، في نهاية القول، أن نتوجه بتحية الشكر والتقدير إلى كل من الأستاذ الجليل عبد الواحد بنداود، قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس بالرباط، والأستاذ مانويل فيشر ممثل مؤسسة كونراد أديناور في المغرب لما لقيناه منهما من حسن دعم وتشجيع، مكننا من الاستفادة من برنامج التعاون الثنائي بين الكلية والمؤسسة المذكورتين، والذي أنجزت في إطاره هذه الدراسة. والله ولي التوفيق.

الرباط في **1994/12/8**

سعيد بنسعيد العلوي.

الفصل الأول

الآخر في مرآة الرحلة

«يعلم الله أني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب، وأدركت ما فيها من الرغائب، كنت أبدا منغص العيش (...) لما أنني كنت دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن والبراعة والتفنن».

الشدياق، **كشف المخبا عن فنون أوروبا**.

1. الآخر ومغزى النظر إليه

تحمل كل الثقافات والحضارات الإنسانية المختلفة صورة ما للـ«آخر». و«الآخر» هو كل ما ترى «الذات» أنه مخالف لها أو مختلف عنها. والحق أن متكلمة الإسلام قد اهتدوا إلى لفظ ملائم يفيد جوانب شتى من هذا المعنى إذ تحدثوا عن «الغير»، ولولا ما كنا نجده في هذا اللفظ من حمولة كلامية قوية لكنا اعتمدناه في عبارتنا. وحيث كان المجال المعرفي متغايرا بين «الآخر» وبين «الغير»، وحيث كان كل منهما يحيل، بالضرورة، إلى أفق ثقافي مختلف، فإننا نفضل استعمال لفظ «الآخر» في حديثنا.

الآخر إذن هو ذاك الذي تقضي الذات بمخالفته لها وتحكم باختلافه عنها في نظم الحياة كلها : في العادات، والتقاليد، والأذواق، واللسان، والدين... والفاحص، متى نظر في الصورة التي ترسمها الذات للآخر، فإنه يتبين أن تلك الصورة مزيج غريب وغير متجانس من العواطف والأحكام : فقد تكون، في الوقت ذاته، تحمل مشاعر الاستشباع والاستهجان والإِستغراب من جهة وتطفح بمشاعر الإِستحسان

والتقدير والتعظيم من جهة أخرى. وقد يكفي أن نقرأ رحلة ابن بطوطة لنجد على ذلك أمثلة وشواهد دالة، أو نقرأ مشاهدات السندباد وانطباعاته في رحلاته السبع التي يصورها ذلك السفر العجيب في ثقافتنا العربية الإسلامية : كتاب «**ألف ليلة وليلة**». بل ونحن نجد اليوم، في زماننا هذا وفي أجواء ثقافة تفخر بقيامها على أساس «قبول الإختلاف» والقول بالحق في المغايرة، ما يؤكد ما نقوله ويدل عليه[1]. وقد يكون الآخر همجيا متوحشا يلزم الحذر منه، بل تجب محاربته والقضاء عليه متى أمكن ذلك، ولكنه يغدو، في طور آخر، متأنسا متحضرا تستطاب مجالسته وتطلب مشاهدته. ولكن الآخر يظل، في الأحوال كلها، موضع غرابة وموطن دهشة وتعجب.

بيد أن الصورة التي ترسمها الذات للآخر لا تقوم عفوا، ولا ترتسم في خلو عن كل تصميم أو سبق تقدير. إنها، عكس ما يبدو أو يتوهم، لا تكون نتيجة المشاهدة والاتصال بل هي ثمرة وعي ومعرفة سابقين. إنها، بالتالي، تستدعي توافر «مرجعية» محددة القواعد واضحة الأركان. تلك المرجعية منظومة متكاملة من القيم الجمالية والدينية والمعرفية : عن اجتماعها يكون ما يمكن أن نطلق عليه نعت «الوعي الثقافي» كما يمكن أن نقول عنه إنه «العماد الثقافي». هذه «المنظومة المرجعية الثقافية» هي ما به يتشكل قوام الشخصية عند الإنسان وتتحدد به فعاليتها ووجودها ويكون به، بالتالي، ما يجعل منها وجودا إنسانيا يعلو على محض الوجود البيولوجي أو الحيواني. وسعيا نحو توضيح أفضل لهذا المعنى الأخير نقول عن الثقافة، على نحو ما نتحدث به عنها في هذه الدراسة، بأن معناها عندنا لا ينحصر في ما كان مسطرا في كتب ومجلدات وما كان نظرا عقليا ساميا مجردا. الثقافة كل شامل «يشمل المعارف والمعتقدات الدينية، كما يشمل الفن والأخلاق والعادات والتقاليد، وكما يشمل الكفاءات والمهارات التي يكتسبها المرء بحسبانه عضوا في المجتمع». وفي عبارة واضحة نقول إن الثقافة عندنا تقوم في الفهم الأنثربولوجي لها، ذاك الذي لا يشكل فيه المدون أو المكتوب سوى جزء يسير من الثقافة. وبالتالي، فإن «الوعي الثقافي» الذي نتحدث عنه ليس شيئا آخر سوى حصيلة التأثر الطويل والمتصل بما تقره «الثقافة»

---

(1) أنظر، على سبيل الاستئناس، رحلات الكاتب الفرنسي هنري ميشو، التي قادته في الثلاثينات إلى كل من الهند والصين واليابان وبعض جزر الشرق الأقصى:

Henri Michaux, Un barbare en Asie, Gallimard, 1967, Paris (nouvelle édition).

من قيم ومعتقدات وبما تقننه من أذواق وأنماط سلوك، وبما تحدده للسلوك الإنساني داخل المجتمع من نظم وأعراف. هو إذن يقترن بالتربية ضرورة ويتلازم، وجوبا، مع أشكال التعلم والمعاشرة الاجتماعية ومن حيث هو كذلك فإن أول تشكله يكون مع مفارقة حال المعطى البيولوجي الخام ويتدرج مع أطوار النمو المختلفة ليصير إلى حال القوة والتماسك مع طور الرشد ومع حصول «النضج الاجتماعي»، كما يقال في بعض الأحوال.

يؤول الأمر في رسم صورة «الآخر»، وفي تعيين دلالته ومعناه، إلى الثقافة التي يكون إليها انتماء «الأنا» أو «الذات» التي تتحدث عن الغير المخالف. فنحن نجد أن الحرب والعداوة قد اتصلت سنين عديدة بين إسبرطة وأثينا؛ ولكننا نلاحظ، مع ذلك، أن كلا من المدينتين لا تريان صفة الاخر تصدق على الخصم الغريم ولكنهما معا، كل من موقعه، يريان تلك الصورة للفرس وللمصريين وبالتالي لكل الشعوب «الأخرى»، تلك التي تختلف من جهات اللسان والدين والعادات والتقاليد. وما قلناه عن إسبرطة وأثينا يصح قوله عن الأمبراطورية الرومانية : ذلك أن نعوت «الهمجي» و«المتوحش» و«الغريب» ـ تلك التي كانت متداولة عند الرومان ـ لم يكن المعني بها عندهم إلا من كان بعيدا وغريبا عن ما يقرره الوعي الثقافي الروماني، أما الشأن بين الشعوب الرومانية المتقاتلة فآخر. وفي الإسلام نرى علماء الكلام ـ يختلفون في الدفاع عن العقيدة الإسلامية اختلافا يبلغ من الشدة درجات قوية في بعض الأحوال ويكون الحديث من ثم عن خصومة وعن إختلاف، ولكنه لا يكون أبدا حديثا عن «الآخر»، إلا متى تعلق الأمر بالمخالف في الملة والعقيدة أو عند من يقطع بكفره وخروجه عن الدين. فقد نعلم أن القاعدة في الجدل الكلامي، عند متكلمة الإسلام، أن الحق لا يكون إلا واحدا وهو ما يعتقد المتكلم أنه يعتقده ويدافع عنه، بما يرى في المخالف خصما تقضي قواعد علم الكلام بإبطاله وإظهار فساده وتهافته. ولكن «الخصم» يظل، مع مخالفته لمتكلم المذهب، في دائرة أهل الكلام وتظل الخصومة داخل العقيدة الواحدة ـ وبالتالي فهو لا يكون «آخر»، على النحو الذي نفهمه اليوم. ومتكلمة الإسلام كانوا في حرص شديد على التمييز، في الحكم على المخالف للمذهب، بين التخطئة وبين التفكير: فالأول «حكم عقلي»، والثاني «حكم شرعي» وبهذا الأخير وحده، وضمن شروطه الثقيلة، يكون إخراج المخالف من حال «الإسلام» إلى حال المناقض لها وهو «الكفر». وبهذا الإخراج، متى صح، يكون

النقل من الاشتراك في الملة إلى الخروج عنها فيصبح الخارج، آنذاك، آخرا. وأخيرا، فنحن لو تأملنا اليوم ما كان الباحثون الأنثربولوجيون الغربيون يخرجون به في مشاهداتهم وملاحظاتهم من أحكام «التوحش» و«البدائية»، حين يكتبون عن أقوام سهول الأمازون أو أدغال إفريقيا أو غابات أمريكا الجنوبية فإنه من اليسير علينا أن نتبين المنظومة المرجعية التي يصدر عنها أولئك الباحثون. إنها مرجعية «المركزية الثقافية الأوروبية» وهي، في الوعي الثقافي لأولئك الباحثين، ما يعني المعقول واللامعقول، ويحدد الحضارة وما عداها، ويرسم الحدود الفاصلة بين المنطقي وبين ما كان خارج العقل والمنطق.

صورة الآخر هي، بمعنى من المعاني، الصورة السلبية أو السالبة لما تعتقد الذات أنها تكون عليه. هي، في لغة هيجل، تعيين بالسلب منطلقه الذات. بين سكون الصورة التي ترسمها ثقافة من الثقافات لثقافة أخرى وبين حركية تلك الصورة، وبين ثباتها حينا وقلقها وتبدلها حينا آخر تنكشف للقارئ كيفيات شتى من وعي الذات ومن الحديث عنها.

2. الرحلة ودلالتها

سواء قلنا عن الرحلة إنها جنس أدبي له من الصفات والخصائص ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأدبية الأخرى، أو قلنا عنها إنها خطاب مخصوص له منطقه الذاتي وبناؤه ومكوناته وعناصره، فنحن لا نملك إلا أن نقرن الحديث عن الرحلة بنعت الطرافة. هي كذلك لأنها تتوخى الجمع بين الإفادة، فهي تخبر عما تراه، والإمتاع، لأنها تسعى أن ترصد ما تراه «عجيبا» و«غريبا». وهي كذلك لأن الرحالة، أيا كان تكوينه المعرفي وأيا كانت أذواقه وعقيدته وانتماءاته، وأيا تباينت الحوافز في الرحلة فإنه يتقمص شخصية القاص أو السارد. هي كذلك إذن لأن الرحالة يندرج في عالم السرد والحكي ويخضع لمنطقهما، ولا اعتبار بوعيه الكامل لما يقوم به عن وعي ودراية أو ما كان منه عفوا فهو لا يكاد ينتبه إلى ما يقوم به فعلا. وهي كذلك، أخيرا، لأن الرحلة ترسم عالما خاصا بها مختلفا، بالضرورة، عن العالم الذي تقول إنها تتحدث عنه بالوصف والإخبار.

في الأزمنة القديمة كانت الذاكرة هي الوسيلة الأساس في تسجيل المشاهدات ونقل الأخبار. نعم، يخبرنا الرحالة، في بعض الأحيان، أنه كان يدون ما يراه ويكتب

ما يسمعه أو يبلغه ولكنه يشعرنا، مع ذلك، أن الكتابة والتدوين يظلان أمرين ثانويين وأن المعول على الحفظ والذاكرة. لذلك كانت الكتابة عند الرحالة تذكرا واستعادة لوقائع ومشاهدات قد يكون مضى عليها في بعض الأحيان زمن طويل لا تخلو فيه الذاكرة من التعرض لآفة النسيان أو جعل الوقائع تضطرب في تسلسلها والتواريخ تَخْتَلِط مع بعضها البعض، ولا تخلو بطبيعة الأمر من جعل إنطباعات الأمس تمتزج بمشاعر اليوم وتختلط بها. أما في الأزمنة المعاصرة فنحن نجد أن وسائل تدوين الرحالة أصبحت أكثر تعددا وتنوعا ولكننا لا نستطيع أن نقرر بأنها غدت أكثر دقة ولا أنها، وهذا هو الأهم، قد صارت أكثر أمانة في الحديث عما تراه وتشاهده. ذلك أن الناظم بين الرحلتين، مع اختلاف زمانيهما، هو وجود الرحالة ذاته أو هو، بالأحرى، ذاتيته التي لا يملك أن ينفك عنها ـ وتلك الذاتية تتدخل، ضرورة، في عمل الِانتقاء والِاختيار. وبعبارة أخرى فإن «الثقافة» التي لا يملك الرحالة أن يطرحها جانبا، حين سفره، تظل ملازمة له، فاعلة فيه، حية وحاضرة وكل ما يشاهده يعبر من خلالها وكل ما يتم الإخبار عنه يتم عبر الموازين والمعايير التي تشرعها تلك الثقافة.

يمكن القول، إذن، إن الرحلة إنباء عن ذهنية الرحالة وتصوير لمكونات «الوعي الثقافي» عنده أكثر مما هي حديث عن البلد، موضع المشاهدة، أو إخبار عن القوم، أهل البلد أو الإقليم موضوع الزيارة. ينطبق على الرحلة، إلى حد بعيد، ذلك التعبير الفرنسي القديم إذ يقول عن الحانات الإسبانية إن المرء لا يجد فيها إلا ما يكون هو نفسه قد حمله إليها.

نعم، قد تكون الرحلة مادة لمعرفة جغرافية أو مصدرا في المعرفة التاريخية، ولكن ذلك يظل جانبيا ومحدودا من وجه أول ويظل أسير آنطباعات الرحالة وتقديره ونزواته من وجه ثان.

3. الرحلة في التراث العربي الإسلامي

للرحلة في تراثنا العربي الإسلامي وظائف شتى تقوم بها، وليست الرحلة، من حيث هي «مصدر» في معرفة الآخر أو الحديث عنه سوى إحدى تلك الوظائف، ومن ثم فنحن نجد أن للرحلة في الإسلام مظاهر متميزة قد لا نجد لها نظائر في غيرها من رحلات الأمم والشعوب خارج دار الإسلام. حيث كانت للرحلة في الإسلام

وظائف شتى. فقد كانت أنواعا متعددة ؛ وأحد الباحثين المعاصرين يرى أنها تقبل القسمة في خمسة عشر نوعا[2] نشير إلى البعض منها.

تكون الرحلة في الإسلام لغرض يتصل باستكمال المعرفة أو تنقيحها، كما يمكن أن تكون لسبب يتصل بالحياة الروحية للرحالة أو تتعلق بشأن من شؤونها. هي في الحالة الأولى بحث عن «عالِم» أو عن «سند في الرواية» أو هي طلب «الإجازة» من «العالم» ـ وبالتالي الحصول من سلطة معرفية عليا على الاعتراف ببلوغ درجة من العلم تجيز لحامل الإجازة الاجتهاد في الدين أو تشهد له بإجادة المعرفة الإسلامية في جانب من جوانبها. وتكون الرحلة، في الحالة الثانية، بهدف الحج مع ملاقاة العلماء والزهاد والإطلاع ـ معاينة لاخبراً ـ على مصر من أمصار الإسلام وعلى مناطق من داره. وتكون الرحلة، في وجه آخر من وجوه هذه الحالة الثانية، من أجل الوقوف على قطب صوفي أو سعي إلى «لبس الخرقة» من قبله أو الظفر منه بالإذن في السياحة الصوفية. وتكون الرحلة، أحيانا، من أجل طلب السفر ومعرفة أحوال الدنيا وأخلاق البشر (فهي إذن تروم معرفة «الآخر»). ومن أنواع الرحلة نذكر، أخيرا، ما يطلق عليه الباحث المشار إليه نعت «الرحلة العامة»، أي تلك التي تجمع بين وظيفتين أثنتين فما فوق ذلك. وإذا كانت المكتبة العربية الإسلامية تزخر بنصوص تتفاوت في الطول والقصر وتتباين من حيث الإفادة والإمتاع في هذا النوع الأخير من الرحلات، فإن «**رحلة ابن بطوطة**» تظل النموذج الأعلى للرحلة التي تلتقي عندها الأغراض المذكورة كلها.

أيا كان نوع الرحلة، وأيا كانت الوظيفة التي تسعى إلى تحقيقها، فإن الرحلة في تراثنا العربي الإسلامي تظل تعبيرا عن المكابدة والمعاناة لأنها سفر و«السفر قطعة من العذاب». ثم إن الرحلة، على نحو ما تحضر به في «الوعي الثقافي» للرحالة المسلم، مشاهدة و«عيان» من جهة أولى ورواية و«إخبار» من جهة ثانية، وهي في الحالتين معا مسؤولية دينية. مسؤولية دينية لأن الرحالة يطلع على عوالم ويعرف أمما وأحوالا، فهو مطالب بإجادة الرؤية والإطلاع حتى لا يقع في الكذب ؛ وهو إذ يفعل، ينظر ويتدبر في الخلق والمخلوقات. ومسؤولية دينية أيضا لأن الرحالة، إذ

---

(2) أنظر الدراسة التي قدم بها محمد الفاسي لنشره لمخطوطة محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ جامعة محمد الخامس، 1965، الرباط.

يتحدث عما رآه وسمعه، يكون «مخبرا». و«الخبر» في الإسلام أمانة وحمل ثقيل. حمل ثقيل، لأن الصدق في الخبر ليس مثلا أخلاقيا فحسب، ولكنه مبدأ إسلامي أول ؛ وهو كذلك، لأن «الخبر» أساس الدين : فهو مصدر المعرفة الإسلامية، والنبي مخبر عن الله، والدين كله ينبني على صدق النبي على نحو ما يوضح ذلك أصحاب «علم الكلام». يمكن القول إذن إن صاحب الرحلة يعيش رحلته مرتين على الأقل : يعيشها مشاهدا لها **ومخبرا لأهوالها** ومشاقها ثم يعيشها بعد ذلك، ذاكرا لها و«**مخبرا**» **عنها**. أضف إلى هذه المسؤولية المزدوجة (حسن المشاهدة والصدق في الخبر عن المشاهدة) قيام عهد آخر صعب يقطعه صاحب الرحلة على نفسه أمام القارىء أو المستمع : هو عهده على نفسه أن يحدثه حديث الإمتاع أو «الإتحاف»، وأن يذكر له من الأمور ما كان «غريبا وعجيبا»؛ أما ما يكون من الأمور معتادا، فلا شأن له به ولا داعي إلى ذكره. إلى كل هذه الصعوبات تنضاف صعوبات كثيرة جديدة : نجد أن «**رحلة ابن بطوطة**»، بالإشارة إلى أهم جوانبها، تَكْمُلُ لنا صورة الرحلة في الثقافة العربية الإسلامية وترتسم لنا جملة من الأبعاد في النظر إلى «الآخر» ورسم صورته.

نعلم أن ابن بطوطة، وإن كان فقيها قاضيا، لم يكن هو «مؤلف» الرحلة التي تحمل اسمه : فهو قد اكتفى بإملائها وبسرد الحكايات والأخبار التي تتضمنها. أما كاتب الرحلة ومحررها، فهو شخص آخر يدعى ابن جزي ؛ ولم يكن من تأليف الفقيه الطنجي سوى مدونات وتقاييد يسيرة أمد بها ابن جزي هذا. ويعلم قارئ الرحلة أن أسفار ابن بطوطة قد اتصلت ثلاثين سنة أو تكاد، في حين أن كتابة الرحلة لم تحصل إلا بعد الفراغ من التنقل والانتهاء من زمان السفر والتنقل. وقد يعلم القارئ أخيرا أن أغلب ما دونه صاحب «**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» قد ضاع منه في أسفاره أو أنه قد سلب منه في جملة ما سلب من متاعه حين هاجمه «لصوص البحر»، وبالتالي فإن المعول عليه عند ابن بطوطة هو ما حفظته ذاكرته واعتمل في صدره، والعمدة في الرواية والإخبار ما سلم من أثر النسيان. وإذن فإن ما نقرأُهُ في «**رحلة ابن بطوطة**» هو ذلك العالم على نحو ما عاشه صاحبه أولا، ثم على نحو ما يتحدث عنه ويتذكره ثانيا، وأخيرا فهو عالم الرحلة على نحو ما صاغه وكتبه كاتبه ابن جزي[3].

(3) حاولنا استخلاص معالم عالم ابن بطوطة واستكناه معاني رحلته في بحث شاركنا به في الندوة التي نظمتها مدرسة الملك فهد للترجمة في طنجة (أكتوبر 1993) : «الغريب والمألوف في عالم ابن بطوطة».

يبدو أن «صورة الآخر»، على نحو ما تفيده قراءة «**رحلة ابن بطوطة**»، أشهر الرحلات في تاريخ الثقافة العربية وأكثرها تداولا وأغزرها جمعا لوظائف الرحلة وأنواعها، هي الصورة التي يرسمها له «عالم ابن بطوطة» ـ وهذا الأخير هو ذاته حصيلة تفاعل ثقافي في تعيين معنى «الألفة»، وفي تحديد معنى «الغرابة». وبغض النظر عن المراحل والأطوار التي مرت بها صياغة الرحلة وحياكة نسيجها، فإن الثابت في القول هو أن الرحلة تظل إنباء عن «الوعي الثقافي»، في الإسلام، في جهودها من أجل رسم صورة «الآخر» وتعيين مواطن المغايرة له والاختلاف عنه.

4. الرحلة العربية المعاصرة ووظيفتها

عرفت الرحلة بداية تحول في موضوعها وفي وظيفتها معا منذ منتصف القرن التاسع عشر، تحول جعلها ـ عند بعض الرَّحَّالين العرب المسلمين ـ تبتعد عن الصورة المعهودة فيها. ذلك أن بونا شاسعا يجده القارئ بين كل من رحلة الشيخ رفاعة الطهطاوي «**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**»، ورحلتي أحمد فارس الشدياق «**الواسطة في أخبار مالطة**» و«**كشف المخبَّا عن فنون أوروبا**»، ورحلة الشيخ بيرم التونسي «**صفوة الإعتبار**»، وبين «**رحلة ابن جبير**» أو «**رحلة ابن بطوطة**». هل يذهب بنا الحديث عن الفرق بين رحلات هؤلاء العرب في القرن التاسع عشر ورحلات الرحالين المتقدمين إلى الكلام عن «قطيعة» بين جنسين أو نوعين من الرحلة ؟ الحق أن سمات من الجدة تطالعنا حين النظر في نصوص الطهطاوي والشدياق وبيرم التونسي، فضلا عن نصوص غيرهم من المغاربة (مما سنقف عنده في الفصول التالية). والحق، أيضا، أن فروقا جلية نجدها بين نصوص رحلات هؤلاء وبين رحلات ابن بطوطة وابن جبير والعبدري وأمثالهم : فروق تكمن في الوظيفة التي تكون للرحلة بين هؤلاء وأولئك، وفروق أخرى تكمن فيما يمكن اعتباره الموضوع الأصلي لكل منها.

أول الفروق يكمن في السبب الداعي إلى الرحلة عند كل من المتقدمين ومن ذكرنا من المتأخرين عليهم، فقد تظل الرحلة من حيث شكلها وموضوعها الظاهر رحلة «سفارية»، على نحو ما سنراه عند الرحالين المغاربة، ولكن مضامين جديدة تتسرب إلى كتابة الرحالة على نحو لا يكاد يتبينه. وقد تكون الرحلة علمية أو «دراسية». و**رحلة الطهطاوي** كانت كذلك من حيث شكلها، ولكن الداعي

أصبح مختلفا : فهو الإرتحال إلى فرنسا لاكتساب المعرفة الجديدة والتمكن من بعض أسباب الرقي والتقدم.

ثاني الفروق يكمن في وجهة الرحلة وفي العالم الذي تكون الرحلة مشاهدة أو اكتشافا له. فابن بطوطة كان قد زار «الحاضرة الكبرى للنصارى» وتنقل في أماكن عديدة من أوروبا الوسطى، مما هو اليوم بعض من روسيا وبلغاريا وغيرها، وهو ـ بعد ذلك ـ قد قام بزيارة الأندلس. ولكن القارئ يجد أن الفقيه الطنجي كان مما شاهده في تلك البلاد أقل منه تعجبا واستغرابا مما كان قد شاهده في دول الهند والسند والصين وجزر المالديف. والأمر، في القرن التاسع عشر، غير ذلك عند الرحالة العربي. فالعالم الذي زار ابن بطوطة أجزاء منه أصبح له، من جهة أولى، اسم جغرافي هو «أوروبا» وصار له، من جهة ثانية، تعيين ثقافي يحمل على المغايرة هو «الغرب». نعم، لم تكن روسيا ولا أي من بلاد أوروبا الوسطى تحمل من مظاهر التحديث والثورة ما كان موجودا في فرنسا وبريطانيا وباقي بلاد أوروبا الغربية، على نحو أقل طبعا، ولكن الفروق بين «دار الإسلام» من جهة و«دار الكفر» من جهة أخرى أصبحت فروقا كيفية ترجح كفة التقدم والقوة لصالح الدار الثانية.

ثالث الفروق هو ذلك الشعور المتولد عند الرحالة بين سوء أحوال الإسلام وانحطاط أهله، وتقدم أهل الكفر وعلو شأنهم ـ إنه شعور المرارة والأسى. فحيث كنت، تجد الرحالة المسلم، زمان ابن بطوطة، ممتلئا بالحماسة والقوة في حديثه عما عنده وليس لغيره : فأنت تجد عند الشدياق والطهطاوي (بل وعند المكناسي قبلهما في القرن الثامن عشر) شعورا بالأسف.

رابع الفروق، وهو نتيجة ضرورية للفروق الثلاثة السابقة، يرجع إلى «الرؤية» في الرحلة : فحيث كنا معتادين، عند ابن بطوطة مثلا، على حديث يكون القصد منه «الإمتاع» وذكر «العجيب والغريب»، أصبحنا نجد عند الطهطاوي وعند الصفار حديثاً يطفح، من جهة أولى، بالإعجاب الشديد بما يلاحظه العقل من أسباب القوة والتقدم ونلمس، من جهة ثانية، دعوة خفيفة إلى وجوب الاقتباس من «الغرب» والأخذ مما عنده وكانت له به أسباب التفوق والرقي.

يمكن القول، إجمالا، إن تغيرا قد حصل في «**النظرة**» ذاتها : في النظر إلى «الآخر»، وفي الحكم عليه. هذا التغير لم يكن ممكنا إلا لأن تحولا آخر، مساوقا

للتحول في النظر، قد أصبح أمرا ملحوظا : هو التغير في نظر الذات إلى ذاتها وفي وعيها لوجودها. كان الرحالة المسلم، في السابق، يرحل من أجل السياحة أو يطلب المتعة متى كانت وجهته جهة أخرى توجد خارج أرض الإسلام. وكان إحساس بالرضا والتفوق يلازمه : فهو لا يقدر أن يتخلص منه في نظره إلى الآخر وفي مشاهدة بلاده. وفي الرحلة العربية المعاصرة لم تكن الوجهة وحدها هي التي تغيرت، إذ أصبحت بلاد أوروبا أو «الغرب»، بل إن الباعث على الرحلة وشعور الرحالة معا قد تغيرا : فالشعور بالقوة أصبح إحساسا بالإنحطاط والضعف، والشعور بالرضا والموافقة تحول إلى قلق ورغبة في إدراك بعض ما يجده عند «الآخر». ذلك الآخر وقد فاجأه في أرضه وبلاده غازياً مستعمرا، لا يمتلك أسباب القوة والمنعة المادية فحسب، بل إنه يتوفّر على أسس المعرفة والعلم الحديثين وينعم، في بلاده، بما يجد الرحالة المسلم أنه في وطنه من عناصر الحق والعدل.

5. الرحلة المغربية صوب أوروبا

لاشك أن ما عرضنا له من قضايا، في حديثنا السابق عن الرحلة العربية المعاصرة، يظل صالحا حين القول في الرحلة المغربية المعاصرة تخصيصا ـ بل إنه ضروري لفهم هذه الأخيرة وجعلها في سياقها النظري الممهد لحسن معرفتها. ولكن هذا الإقرار لا يتعارض في شيء مع وجوب التسليم بجملة معطيات ما فتئت تجعل الفكر العربي الإسلامي في المغرب يتصف بجملة من الخصائص النوعية والمميزات المحلية. ومن الطبيعي أن يأتي أدب الرحلة المغربية صوب أوروبا حاملا لجملة هذه الخصائص ومعبرا عن مجموع هذه المميزات.

ربما كان أهم هذه المميزات المحلية راجعا إلى عامل الجغرافيا. فالمغرب هو أكثر البلاد العربية الإسلامية قربا من أوروبا : فهو يوجد قيد كيلومترات قليلة منها فحسب. وحيث تحكم الجغرافيا بذلك، فإنه يكون من المنطقي أن تتوافر للمغرب مع أوروبا، في القرون السابقة، ما لم يكن لغيره من بلدان العالم العربي الإسلامي من حيث الصلات السياسية والعلاقات التجارية. ومتى أضفنا إلى ذلك كون المغرب قد تمكن من الحفاظ على استقلاله السياسي زمنا طويلا بعد خضوع باقي الدول العربية الإسلامية في إفريقيا لسيطرة الإستعمار، فإنه يكون في وسعنا أن نقدر طبيعة العلاقات التي استمرت بين المغرب ومختلف البلدان الأوروبية قبل أن يسقط في إسار

الحماية في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين. وإذا انتبهنا إلى واقع إفلات المغرب من السيطرة العثمانية، فإنه يكون من اليسير تصور علاقات تتسم نوعا ما بسمة الندبة في التعامل بين المغرب وبين دول أوروبا. لكل هذه المعطيات الجغرافية ـ التاريخية انعكاسات مباشرة على أدب الرحلة، نجم عنه ظهور صنف غير مألوف في الرحلة العربية المعاصرة وهو صنف **الرحلة السفارية**.

الحق أن السفارة هي الطابع العام المهيمن على الرحلة المغربية صوب أوروبا، بل إن الفقرة التالية ستجعلنا نتبين أن الرحلات المغربية المعاصرة، ما هو مطبوع منها ومعروف وما هو مخطوط مما نكشف عنه في هذه الدراسة، إنما هي، من حيث موضوعها أو الحامل عليها، رحلات «سفارية»، ومن حيث هي كذلك فقد كانت في أغلبها الأعم رحلات قصيرة من حيث الزمن الذي استغرقته ولم تشذ عن هذه القاعدة سوى رحلتي محمد بن عثمان المكناسي : **«الإكسير في فكاك الأسير»**، **«البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر»**. وأيا كان ما يتبينه الباحث من التشابه الشديد بين **رحلة الطهطاوي**، على سبيل المثال، وبين **رحلة الصفار**، ومهما يكن من حضور الأول في كلام الثاني وفي حديثه عنه ورجوعه إليه فإن طبيعة المهمة السفارية تسم رحلة المبعوث المغربي بسمات نوعية مميزة مما سنقف عليه في فصل لاحق.

إذا كانت الرحلة المغربية صوب أوروبا تشترك، ضرورة، مع الرحلة العربية المعاصرة من جهة تعبيرها عن الوعي العربي الإسلامي، وقد التقى بالغرب المتقدم ـ المحتل لقاء عنيفاً، فإن رحلات المغاربة تقدم عن ذلك الوعي صورة ثقافية مختلفة. قد يعزى هذا الأمر إلى طبيعة البناء السياسي للدولة المغربية المُغايِرَة في جوانب كثيرة من نظمها، لما كانت عليه دولة «الباب العالي» وحيث كان المسافر المغربي مبعوثا رسميا (أو هو في جملة الوفد «الرسمي» على كل حال)، فقد كان من الضروري أن يكون لهذا الأمر أثره في ملاحظاته وآنطباعاته. ولو أنا اعتبرنا المسألة من الناحية الأسلوبية وحدها، لوجدنا أن المقارنة بين بلاد الإسلام وبلدان النصارى تقتضي الإحاطة بنظم «الدولة المخزنية» في المغرب وشاراتها وتقاليدها.

هي إذن جملة خصائص أسلوبية وتلوينات محلية يرجع بعضها إلى التاريخ من جهة أولى، وبعضها إلى الجغرافيا ومقتضياتها من جهة ثانية، ويرجعُ بعضها الآخر إلى

الباعث الأصلي على الرحلة أو الوظيفة التي كانت من أجلها من جهة ثالثة، ولكن «العماد الثقافي» الذي به قوام الرحلة المغربية المعاصرة يستمد مكوناته وركائزه النظرية الكبرى، وبالتالي مرجعيته، من الفكر العربي الإسلامي المعاصر جملة وأساسا.

6. متن الرحلة «الأوروبية»

نحن في الرحلة المغربية المعاصرة أمام مجموعة من النصوص تربط بينها، مع وجود اختلافات كيفية بينها، جملة من الخصائص المشتركة. وإذا كنا في هذه الدراسة نهدف إلى أن نكشف عن تلك الخصائص وندلّ على جملة المميزات النوعية، فإنه يتعين علينا، الآن، أن نقدم للقارئ «متن» هذه الرحلة. وقد نقتبس من كتاب الرحلة العربية طريقتهم في تسمية رحلاتهم، محاولة منا استحضار أجواء تلك الرحلات، فنتحدث بدورنا عن متن «الرحلة الأوروبية» على نحو ما دونها به الرحالون المغاربة.

يشمل هذا «المتن» عشر رحلات. إذا لم نكن جازمين قطعا بأنها كل ما تتوفّر عليه الخزانة المغربية، فإننا نميل، مع ذلك، إلى الظن بأن هذه النصوص التي وقفنا عليها تشكل أغلب ما في ذلك وأكثره أهمية.

أ ـ الإكسير في فكاك الأسير (محمد بن عثمان المكناسي) : وجهة الرحلة هي إسبانيا، والسفير فيها هو كاتب الرحلة ذاته. فأما الهدف من الرحلة، فهو على نحو ما يفيده عنوانها، العمل على افتكاك الأسارى المسلمين. وأما زمانها فهو نهاية القرن الثامن عشر. وهي، من حيث المدة، قد قاربت السنة كاملة (1779 ـ 1780)، لتكون أطول مدة قضاها في السفر كاتب من كتاب المتن «الأوروبي». والرحلة منشورة في تحقيق ومقدمة دراسية للأستاذ محمد الفاسي (منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965، الرباط).

ب ـ البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر (محمد بن عثمان المكناسي): يدل عنوان الرحلة على موضوعها بكيفية واضحة. فهي رحلة «سفارية» كانت وجهتها نابولي ومالطة بعدما كانت «**الإكسير**»، وهي السفارة الأولى، رحلة نحو إسبانيا. ومثل الرحلة السابقة قاربت السنة في مدتها (نونبر 1781 ـ أكتوبر 1782).

الرحلة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط (ح 52).

ج ـ رحلة الصفار (محمد بن عبد الله): رحلة وجهتها فرنسا. وهي رحلة «سفارية» بدورها، استغرقت شهرين على وجه التقريب (بين نهاية 1845 ومنتصف الشهر الثاني من سنة 1846).

مخطوطة في الخزانة الحسنية بالرباط (رقم 113). وقد أعدها الأستاذ خالد بن الصغير للنشر وقدم لها بترجمة دراسة قامت بها الباحثة الأمريكية سوزان ميلر (Susan Miller).

د ـ الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية (محمد الطاهر الفاسي) : رحلة «سفارية». كان الفاسي، صاحب الرحلة، كاتباً للبعثة. زمانها صيف 1860. ومدتها تتجاوز الشهرين بقليل. ووجهتها بريطانيا.

قام الأستاذ محمد الفاسي بنشر هذه الرحلة، الصغيرة الحجم، ضمن منشورات جامعة محمد الخامس (مطبعة جامعة محمد الخامس، 1967، فاس).

هـ ـ تحفة الملك العزيز بمملكة باريز (إدريس العمراوي) : خرجت السفارة، موضوع هذه الرحلة، من مدينة فاس قاصدة باريس في اليوم نفسه الذي قصد فيه الفاسي وأصحابه بريطانيا. وتقارب مدة الرحلة الشهرين، فهي مثل سابقتها.

منشورة في طبعة قديمة، دون تاريخ، من منشورات المطبعة الحفيظية (الاحتمال أن طبعها تم في سنة 1908).

وقد أعاد زكي مبارك نشرها مع التقديم لها بدراسة قصيرة.

و ـ التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإسبنيولية (أحمد الكردودي): المقصود بالحضرة الحسنية في العنوان المذكور هو الملك المغربي الحسن الأول. وجلي من عنوان الرحلة أن وجهتها كانت إسبانيا، أما مدتها فقد قاربت السبعة أشهر (من عام 1884).

الرحلة مطبوعة في نشرة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور (منشورات المطبعة الملكية، 1963، الرباط).

ز ـ إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار (إدريس الجعايدي) : رحلة «سفارية»

امتدت عدة أشهر من سنة 1876، قام فيها صاحبها بزيارة كل من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وإنجلترة.

مخطوطة في «الخزانة الصبيحية» في مدينة سلا. كان إعدادها للنشر موضوعا لرسالة جامعية (غير منشورة) أعدها السيد عز المغرب معنينو قصد الحصول على شهادة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر.

ح ـ **رحلة الغسال (الحسن الغسال)** : رحلة «سفارية» إلى بريطانيا، توجه فيها الغسال إلى لندن في سنة 1902 موفدا من قبل الملك المغربي عبد العزيز بن الحسن قصد تهنئة الملك إدوارد السابع بعد توليته عرش بريطانيا.

مخطوط في الخزانة العامة (توجد منه نسختان : 90 ح، 1496 د).

ط ـ **حديقة التعريس في بعض وصف ضخامة باريس (عبد الله الفاسي)** : هذا نص حديث عن رحلة، أو هو ـ بالأحرى ـ محاضرة عنها، وفي لغة الوقت الذي كتبت فيه فهي «مسامرة» تحدث فيها عبد الله الفاسي عن رحلة «سفارية» له إلى باريس. ومقامه فيها تجاوز السنة ونصف السنة (بدءا من أواخر سنة 1909).

و«المسامرة» منشورة في سنة 1916، دون ذكر للمطبعة أو الناشر.

ي ـ **الرحلة الأوروبية (محمد الحجوي)** : رحلة «سفارية»، «بروتوكولية» في الشق الأول منها، وجهتها باريس ؛ و«سياحية» في الشق الثاني منها (بريطانيا).

مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط (115 ح) ـ أعددناها للنشر وأدرجناها في ملاحق هذه الدراسة.

7. الرحلة «الأوروبية» : محاولة تصنيف

إذا ما نظرنا في «**الرحلة الأوروبية**» من جهة قوة المتانة اللغوية وضعفها، وحسن الإمتاع الفني وسوئه، وبالتالي من حيث الاعتبارات البلاغية (طرائق السرد أو الحكي، دقة الوصف، تخير المشاهد والمواقف القوية والضعيفة في تصوير العواطف والانفعالات، آستحضار المخزون المعرفي والرصيد الجمالي في التذوق والإعجاب، إلـخ.)، وجدنا ذلك المتن يقبل التصنيف في فئتين أو مجموعتين. مجموعة أولى تشمل مؤلفي المكناسي («**الإكسير في فكاك الأسير**»، «**البدر السافر**»)، ونص الطاهر

الفاسي («**الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**»)، ورحلة الكردودي («**التحفة السنية للحضرة الحسنية**»)، فضلا عن رحلة الجعايدي («**إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**») و«**رحلة الغسال**». ذلك أن الناظم بين هذه النصوص المختلفة واحد : فهي تجنح إلى السجع المتكلف والمحسنات البديعية الخالية من الرونق والبهاء، وهي تعكس اللغة التي كانت متداولة في الدواوين العتيقة حيث تمتزج التعبيرات الشكلية المتداولة في الأوساط «المخزنية» بالعبارات الفقهية الجافة دون أن يخلو الأمر، أحيانا كثيرة، من تسرب مفردات من اللسان المغربي الدارج. وفي مقابل هذه المجموعة تأتي المجموعة الثانية (نصوص العمراوي، والصفار، وعبد الله الفاسي، والحجوي) لتكون نثرا فنيا جميلا، كما هو الشأن عند العمراوي، ولغة بعيدة عن أساليب الدواوين والمراسلات السلطانية، مثلما هو الشأن عند الصفار والحجوي وعبد الله الفاسي ـ ثم لتكون، مع ذلك، حاملة لهموم التحديث ودعوة إلى مجاوزة القديم : دعوة تكون صريحة حينا وتكون، أحيانا كثيرة، ضمنية خجولة.

أما إذا نظرنا في المتن نفسه من حيث هو مجموع رحلات «سفارية» وبحثنا في الدلالة التاريخية والديبلوماسية لكل رحلة من الرحلات العشر التي يشتمل عليها المتن، فنحن سنضطر إلى القول بوجوب تصنيف خماسي لتلك الرحلات :

ـ قسم أول يشمل رحلتي المكناسي وحدهما، باعتبار الزمان الذي تنتميان إليه (نهاية القرن الثامن عشر ليلة الثورة الفرنسية)، وباعتبار الموضوع أو الهدف منهما (افتكاك الأسرى المسلمين).

ـ قسم ثان تمثله رحلة الصفار وحدها (في سنة 1845، عقب هزيمة المغرب في معركة إيسلي)، وتفسره جهود السلطان عبد الرحمن بن هشام في فتح قنوات الحوار والاتصال مع فرنسا من أجل مسألة الحدود الشرقية. مثلما أن تلك الرحلة تشي برغبة السلطان في اكتشاف أسباب المدنيَّة الأوربية الحديثة وقد أدرك أهميتها التي يجليها له توافر جيش قوي ومنظم.

ـ قسم ثالث يضم رحلتين متواقتتين كانتا على أثَر هزيمة أخرى، لها أثرها القوي في تشكيل الوعي السياسي في المغرب الحديث ـ تلك الهزيمة التي كان عنها ضياع المدينة المغربية الشهيرة، تطوان، واحتلالها من قبل الإسبان مدة سنة كاملة.

وأغلب الظن أن رحلة كل من الطّاهر الفاسي إلى انجلترا، والعمراوي إلى فرنسا كانتا من أجل عقد معاهدات سياسية وإبرام اتفاقات تجارية.

ـ قسم رابع يمثل مرحلة خطيرة وحاسمة من تاريخ المغرب المعاصر : مرحلة تنامي التنافس الاستعماري على المغرب من قبل الدول الغربية ؛ وفي مقابل ذلك التسابق من أجل بسط السيطرة على المغرب كانت سياسة ملك مغربي حازم وأساليبه المتنوعة في الإفلات من تلك السيطرة. سياسة كان لها شقان اثنان في مكافحة تلك الأطماع : شق أول قوامه الاتصالات والمناورات الديبلوماسية المتصلة (وهذا ما نستشفه من رحلة الكردودي، كاتب «السفارة»، رغم تكتمه الشديد على الموضوع الحقيقي للرحلة) ؛ وشق ثان كان الهدف منه هو الإطلاع على التقنيات والمخترعات الأوروبية الحديثة، والعسكرية منها خاصة (وهذا ما تكشف عنه رحلة الجعايدي ويصوره، أفضل تصوير، الميل الشديد لهذا الأخير إلى تدوين كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بالصناعة العسكرية وأنواع الأسلحة).

ـ قسم خامس تمثله، بكيفيتين مختلفتين، كل من رحلة عبد الله الفاسي (وصف باريس في سنة 1909)، وزيارة الحجوي لكل من بريطانيا وفرنسا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى والاحتفال بانتصار الحلفاء.

من الواضح أن لكلا التصنيفين مبرراته، كما أن لكل منهما فائدته العلمية في معرفة الرحلة «الأوروبية». ولكن لبرنامج تاريخ الفكر الذي نصدر عنه مبرراته ومقتضياته، وكلا التصنيفين يمدان ذلك البرنامج بما يمكنه من بلوغ ما يرسمه لنفسه من هدف. فحيث يمكننا التصنيف الأول من الاقتراب من إدراك الخصائص النوعية الأسلوبية ويفيدنا ـ من ثم ـ في فهم التلوينات المحلية، فإن للتصنيف الثاني فائدته الواضحةَ في معرفتنا بالسياق التاريخي للرحلات وكذا بالشروط السياسية المحيطة بها. غير أن معرفة «الآخر»، على نحو ما تصوره الرحلة المغربية أو بالأحرى رصد صورته على نحو ما تحضر به في الوعي الثقافي المغربي الحديث ثم المعاصر، يجعلنا أمام طلب سبيل ثالث مختلف عن السبيلين المتقدمين مع الحاجة إليهما معا. يمكن القول عن هذا السبيل الثالث إنه طريق رصد اللحظات البارزة في سيرورة الوعي بالذات، وقد كانت «الرحلة الأوروبية» تجليا لذلك الوعي وميدانا لتشكله وتطوره في الوقت ذاته.

يحملنا فحص نصوص «الرحلة الأوربية»، في ضوء التنبيهات المذكورة أعلاه،

وتدفعنا مقابلة تلك النصوص ومعارضتها ببعضها البعض من جانب أول، واعتبارها بالنظر إلى الشروط التاريخية والسياسية المحيطة بها ـ يجعلنا كل هذا نقْضي بوجود لحظات ثلاث، حاسمة، من لحظات ذلك الوعي وتشكله.

ـ اللحظة الأُولى : لحظة القوة والثقة في النفس.

ـ اللحظة الثانية : لحظة الهزيمة والِاكتشاف.

ـ اللحظة الثالثة : لحظة الدهشة واستعادة الوعي.

هذه اللحظات الثلاث هي ما يعين لنا، في نهاية الأمر، ما سنقطعه من مسيرة ثُلاثية المراحل. في كل مرحلة من المراحل الثلاث نقف وقفة ملاحظة تطمح إلى استجلاء السمات الواضحة وتهدف إلى استخلاص المكونات الرئيسية والأحوال الملازمة للذات في رصدها للآخر وفي رسم صورته.

الفصل الثانـي

لحظـة القـوة والثقـة في النفـس

«الحاصل أن أمور الدنيا لم يعجزوا في شيء منها ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾».

المكناسي، **البدر السافر لهداية المسافر.**

يجد قارئ الرحلة المغربية المعاصرة في كتابة محمد بن عثمان المكناسي ما لا يجده في غيرها من نصوص «الرحلة الأوروبية». فهي تختلف عنها من أوجه عديدة. وهذا الإختلاف لا يأتي من حيث الأسلوب والصياغة: ففي نصوص المتأخرين على المكناسي، أمثال الطاهر الفاسي والجعايدي والكردودي والغسال، أشباه لها ــ بل إن القارئ لا يكاد يتبين فرقا في العبارة بين الأول واللاحقين به في القرن التالي. ولكن الإختلاف يكمن أساسا في المغايرة في النظر والإدراك، في الكيفية التي يتم بها النظر إلى «الآخر» من جهة أولى، وفي النحو الذي يتم به إدراك الذات أو الوعي بها من جهة ثانية. والحق أن في كتاب «**الإكسير في فكاك الأسير**»، من جانب أول، وفي مخطوطة «**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**»، ما يبدو أنه التعبير الأمين عما نعتناه، في نهاية الفصل السابق، باللحظة الأولى من لحظات إدراك الذات والنظر إلى الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة : لحظة القوة والثقة في النفس.

إذا كنا، في هذا الفصل الثاني، نتوخى استخلاص معالم لحظة القوة والثقة في النفس على نحو ما تكشف لنا عنه قراءة ما دونه السفير المكناسي في رحلتيه وكنا، بالتالي، نريد تبين صورة «الآخر» على نحو مَا ترتسم به في الوعي العربي الإسلامي في المغرب في نهاية القرن الثامن عشر، فإن التوطئة الضرورية للسعي نحو هذه الغاية تقوم في محاولة الإجابة على السؤال الآتي : لماذا كانت الصورة، صورة الغير المخالف أو

«الآخر»، على النحو الذي نجدها عليه في كتابة المكناسي ؟ لا يخفى أن هذا السؤال يعني، بكيفية أخرى، وجوب الإلمام بجملة الظروف التاريخية وجملة الملابسات الديبلوماسية التي سار المكناسي بموجبها إلى إسبانيا، في كتابه الأول، وأرسل مبعوثا من قبل الملك المغربي محمد بن عبد الله إلى حكام مالطة ونابولي على نحو ما تدونه مخطوطة «**البدر السافر**..». وإذا لم يكن لنا أن نخوض في الوقائع والأحداث التاريخية التي شهدها المغرب في نهاية القرن الثامن عشر، فإنه لا مندوحة لنا، بطبيعة الأمر، من تبين المعالم الكبرى لعصر المكناسي وزمان سفارته.

1. فكـاك الأسيـر

تجمع آراء المؤرخين على نعت الملك المغربي محمد بن عبد الله العلوي (محمد الثالث) بالملك المصلح تارة، وبالسلطان القوي تارة أخرى. الملك المصلح، متى تعلق الأمر بما سلكه من اختيارات مذهبية كانت تخدم أهدافا سياسية واضحة[1]، أو لنقل إنها كانت التعبير العملي عن السياسة «الداخلية» لحفيد السلطان الأشهر مولاي إسماعيل. السلطان القوي، متى كان الأمر راجعا إلى ما سار عليه أول الملوك الذين كان محمد بن عثمان المكناسي في خدمتهم من مسائل ترجع إلى السياسة «الخارجية». وقد لا نكون في حاجة إلى الوقوف عند العلامات البارزة في السياسة «الداخلية» لمحمد بن عبد الله، مع أهميتها الكبرى في إلقاء الضوء على جوانب هامة من زمان رحلات المكناسي، ولكن الشأن غير ذلك بالنسبة لما كان موجها في السياسة «الخارجية» للسلطان المذكور. وفي الجملة، فإن عناصر ثلاثة في تلك السياسة تستوقف المتتبع لحكم محمد الثالث. ولا شك أنه كان عن تفاعل تلك العناصر نتائج حاسمة، هي بمثابة المصباح في إنارة كتابة المكناسي وفي الكشف عن مغزى السفارات التي كانت رحلاته الثلاث تدوينا لها[2].

---

(1) أنظر دراستنا : «نصيحة الأمة وإرادة الوحدة : محمد الثالث واختياراته المذهبية»، مجلة **الاجتهاد** اللبنانية، العدد العشرون، صيف 1993، الصفحات 85-99.

(2) أنظر محمد الفاسي في مقدمته لكتاب المكناسي «**الإكسير في فكاك الأسير**» (التي سبقت الإشارة إليها). وقفنا على مخطوطة «**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأساري من يد العدو الكافر**» (وسيكون رجوعنا إليها كثيرا في هذا الفصل). أما الرحلة الثالثة «**إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**»، فلم نقف عليها.

العنصر الأول في تلك السياسة هو العمل على تشييد أسطول مغربي قوي يكون قادرا على تأمين الشواطئ ورد هجمات القراصنة، أو كما يكتب عبد الرحمن ابن زيدان : «ولما استلم زمام الملك، كان من جملة ما تشوفت إليه همته الكبرى إحياء أسطول أبيه المولى عبد الله وجده المولى إسماعيل، لأنه ألفاه آضمحل وتنوسي ما كان له من الشهرة والنفوذ، وتعطل ما كان يستفاد منه من المداخيل والمحاصيل، وانقطع خوف أمم البحار من تلك العقبان التي كانت لا تفارق البحار من تجوالها»(3).

العنصر الثاني يكون عن مقتضيات العنصر المتقدم ومستلزماته في نهاية القرن الثامن عشر : فلم يكن لخطة الملك العلوي أن تستقيم إلا مع الحرص على عقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقات مع الدول الغربية التي كانت سفنها تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ولا تفتر عن الحركة التجارية في عرض شواطئ المحيط الأطلسي. والمطالع لما دونه ابن زيدان، وهو عمدة المؤرخين المغاربة المعاصرين في الإطلاع على نصوص الوثائق والمعاهدات ومرجعهم الأساس، يجد اتفاقيات ومعاهدات مع كل من البرتغال والسويد وفرنسا وإسبانيا.

أما العنصر الثالث في تلك السياسة الخارجية، فقد كان له شقان إثنان على الأقل : شق أول يتعلق بالعلاقة مع الدولة العثمانية، وشق ثان يرجع إلى العلاقات التي ظلت موجودة بين المغرب وإسبانيا خاصة، والتي كانت متميزة عن تلك التي قامت بينه وبين الدول الأوربية الكبرى.

يبدو أن العلاقات المغربية العثمانية كانت تدور حول محورين إثنين في عهد السلطان العثماني عبد الحميد ومعاصره المغربي الملك محمد بن عبد الله : محور أوّل طريقه الإتصال المباشر بين فاس والباب العالي، ومحور ثان بين المغرب والحاكم التركي في الجزائر، ولكن الإتصال يتم في الأغلب الأعم بين فاس وآلأستانة في نهاية المطاف. والظاهر أن الملك المغربي لم يكن يتوانى عن تقديم مختلف أشكال المساعدة والدعم المالي والعسكري للدولة العثمانية في حروبها مع الروس، حسبما تكشف عن ذلك الوثائق العثمانية المحفوظة في إستانبول كما يفيد ذلك بحث في الموضوع لأحد المؤرخين

---

(3) عبد الرحمن ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** (خمسة أجزاء)، الجزء الثالث، ص. 256_257، المطبعة الوطنية، 1931، الرباط.

المغاربة[4]. أضف إلى ذلك أن الهبات التي كان الحجاج المغاربة يحملونها إلى الحرم المكي كانت تمر، في الأغلب الأعم، عبر البلاد العثمانية. ثم إن محفوظات الوثائق العثمانية تؤكد ما يذكره المؤرخون المغاربة، أمثال الناصري وابن زيدان، من سعي الملك المغربي إلى افتكاك المئات من الأسرى الأتراك في مالطة وفي إسبانيا، كما تدعم ـ من جهة ثانية ـ ما يتحدث عنه السفير المكناسي في «**الإكسير**» وفي «**البدر السافر**».

تفيد المراجع التاريخية التي تؤرخ لحكم الملك المغربي محمد الثالث وعصره أن «مسألة الأسرى» قد شكلت رافدا أساسيا من روافد العلاقات المغربية الإسبانية وأنها كانت سببا مباشرا في إحياء بعض الاتفاقيات القديمة بين الدولتين وأنها، على كل حال، كانت عاملا في «إذابة الجليد» بين دولتين ظلت حال الحرب والتوتر متصلة بينهما قرونا ثلاثة على الأقل. ويذكر ابن زيدان أن الملك المغربي قد بادر كارلوس الثالث، ملك إسبانيا، إلى الدعوة إلى تبادل الأسرى بين المسلمين والمسيحيين وأن هذا الأخير قد رحب بالدعوة وأنه «أمر في الحين بإطلاق الأسارى الذين بحضرته وبعث بهم للمترجم له، وأخذ يبحث عمن بقي من أسارى المغرب متفرقا في بلاده»[5]. كما أن هذا المؤرخ يذكر لنا أن الملك الإسباني طلب وساطة الملك المغربي من أجل أن يعمل «والي الجزائر» على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين الموجودين لديه مفاداة بأسارى المسلمين في إسبانيا، وأن الملك المغربي قد نجح في مسعاه العسير بالنظر إلى ما كان من مناورات الحاكم التركي في الجزائر. كذلك يحدثنا ابن زيدان أن الملك الإسباني طلب وساطة السلطان المغربي، مرة أخرى، حين «أسر أهل الجزائر أميرة من بيت ملك إسبانيا كانت ذاهبة في مركبها لزيارة ابن عمها صاحب نابولي وامتنعوا من فدائها». غير أن مساعي الملك المغربي كانت أكثر صعوبة، مما حمله على التوجه بالخطاب إلى الباب العالي مباشرة. ونقرأ في كتاب ابن زيدان أن عبد الحميد العثماني كتب «لأهل الجزائر يوبخهم على رد شفاعة السلطان ويأمرهم بتسريحها ويذكرهم بما فعله السلطان من تسريح أسارى الأتراك، فأرسلوها إلى حضرة السلطان وكتبوا إليه معتذرين»[6].

---

(4) عبد الرحيم بنحادة، «فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله في أرشيف رئاسة الوزراء بأسطنبول»، بحث شارك به في **أعمال جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الثالثة، منشورات وزارة الثقافة، 1993، الرباط.

(5) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**... (سبقت الإشارة إليه)، الجزء الثالث، ص. 309.

(6) **المرجع السابق**، ص. 320.

نتبين من الحكايات المتقدمة أن «**فكاك الأسير**» قد شكل، بحق، العنصر الفاعل في «السياسة الخارجية» التي اختطها الملك المغربي محمد بن عبد الله أيام حكمه التي امتازت باستعادة ما كان قد اضطرب من الثقة في النفس وما اختل من مظاهر القوة، نتيجة لما عرفه المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن الأكيد أنه ما كان لنا أن نقرأ رحلة مثل «**الإكسير في فكاك الأسير**» أو أخرى مثل «**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**»، لو أن الملك المغربي قد سلك سياسة أخرى مغايرة. ومن الأكيد أيضا أن فهم خطاب المكناسي في رحلتيه، على النحو الذي يكون به الفهم منطقيا ومبررا معا، يظل متوقفا على الإلمام بسياسة «**فكاك الأسير**» وبجملة الملابسات السياسية والموجهات الدينية والمعطيات السيكولوجية التي كانت مصاحبة لها.

لا شك أن السفير المغربي ابن عثمان المكناسي قد أصبح جزءا من «ديبلوماسية الأسير» من شدة تمرسه بها : فهو قد سار في سفارته الأولى إلى مدريد من أجل «**فكاك الأسير**»، وقاد السفارة الثانية إلى كل من نابولي ومالطة من أجل الغاية نفسها، كما أن سفارته الثالثة إلى الأستانة، في الطريق إلى «حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف»، كانت ذات صلة مباشرة بموضوع «**الأسير**»، وبالتالي فقد كان مؤلف «**الإكسير**» و«**البدر السافر**» عارفا بدقائق تلك الديبلوماسية وأسرارها. بيد أنه لم يكن من المنتظر أبدا أن يتحدث عنها بالنظر إلى تقاليد الصمت والتكتم الشديد التي كانت تحيط بمواضيع السفارات. لذلك، فالملاحظ أن المكناسي بقدر ما كان مسهبا في حديثه عن الأسير وفكاكه وبقدر ما كان «سخيا» في سرد الوقائع التي تتعلق بالسفر والتنقل، كان موجزا أشد الإيجاز، متكتما أكثر ما يكون التكتم، في الحديث عن المعاهدات والاتفاقيات التي رافقت عملية فداء الأسرى أو مقايضتهم بأسرى من بني جلدتهم. قد تكون قراءة ما كتبه المكناسي قليلة الفائدة من الناحية التاريخية، بل ربما بدت أمرا مشوشا بعض الشيء ؛ ولكن الأكيد أن المعرفة التاريخية تغتني من جهة أن كتابة المكناسي تنير السَّبيل أمام القارئ في التعرف على الأحوال النفسية والموجهات الدينية التي كانت تحكم النظرة التي ترتسم بها صورة «الآخر» في الوعي العربي الإسلامي سنوات قليلة قبل قيام الثورة الفرنسية وبداية حصول التحول الكبير الذي أخذ العالم الغربي يعرفه بالتدريج، وهو يسعى إلى تدشين عهد جديد من القوة والهيمنة على العالم من حوله.

لا نريد بهذا الإستطراد القصير أن نستعجل نتائج نرى أن مسيرة البحث ستقودنا إليها بكيفية طبيعية، ولكننا نريد من القارئ أن يقف معنا عند الكيفية التي يمتزج بها العمل السياسي أو السعي الديبلوماسي من أجل افتكاك الأسير، بالحافز الديني ؛فتصبح الرحلة «السفارية» كلها جهادا متصلا وآئتمارا بوازع ديني قوي وجارف. وازع مصدره الصدع بقول الكتاب والسنة، والساهر على تنفيذه الملك أمير المؤمنين : «لما كانت أسباب الخير ودواعيه وردت متواترة موثرة فيمن يفهم القول ويعيه (...) وكان من أعظمها ومهمها فكاك الأسير من الأسْر (...) سيما إذا شفع بإحسان ينعش ما وهن من قواهم ويشد من الأسر كما ورد في الكتاب والسنة (...) وكان مولانا (...) أمير المؤمنين (...) محمد بن مولانا أمير المؤمنين مولانا عبد الله ممن اختاره الله تعالى للقيام بهذا الوظيف وشرفه بتوجيهه إليه»[7]. ثم إن هذا الوازع الديني القوي والجارف، كما قلنا، تمازجه شهامة عربية لا يملك الإنسان العربي أن يظل معها أصمَّ مغلق السمع بعد أن «وردت إليه عدة رسائل من أولئك الأسارى وفيهم بعض الطلبة وعلماء الدين يعلمونه بما هم فيه من الشدة والضيق»، كما ينقل إلينا المؤرخ المغربي ابن زيدان[8]. لم يكن في وسعه إلا أن يقدم على تجهيز الفدية وبعث السفارة، خاصة بعد أن علم أن «عامل الجزائر الترك» ـ كما يقول المكناسي ـ قد قبل فداء الأسارى المسلمين الأتراك وأنه «امتنع من فداء العرب وفدى من بقي عنده من النصارى بالمال ورد المسلمين إلى الأسر ببلاد الكفر». والحال أن «بيده من أسارى النصارى ما يفتدي به أسارى المسلمين كلهم ويفضل بيده نصارى كثيرون».

تجتمع لسفارة المكناسي كل عناصر الرحلة «الجهادية» : الحافز الديني القوي، والإستجابة لأمر الله والرسول، وطلب الأجر والثواب، وتجهيز الفدية، والخروج من دار الإسلام إلى دار الكفر. وتقترن هذه العناصر كلها بخدمة ملك قوي مهاب الجانب «اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده (...) من أسارى المسلمين (...) وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس والجزائر وعمالاتها»، وبالتالي فالحافز على «السفارة» لا يندرج في باب المصلحة المباشرة. وإذن، فإن للرحلة زمانها ومكانها وملابساتها السياسية المعلنة، والخفية خاصة؛ ولكن للرحلة قبل ذلك كله فضاءها الوجداني وعمادها الثقافي وسندها السيكولوجي. وقارئ المكناسي مدعو إلى مراعاة

---

(7) محمد بن عثمان المكناسي، **البدر السافر لهداية المسافر**... (مخطوط سبقت الإشارة إليه)، الورقة الأولى.

(8) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**...، الجزء الثالث، ص. 306.

هذه الأمور كلها قبل أن يشرع في قراءة الرحلتين وقبل أن يلج العالم الذي ينقله إليه السفير ـ المسافر. على هذا القارئ أن يستحضر المرجعية الناشئة عن اجتماع الحافز الديني والباعث السياسي والمكونات الثقافية الباطنة، وعليه ـ على وجه أخص ـ أن يقدر أن السفر والمشاهدة ومن يلقاهم المكناسي من الغير المخالف في الأمور كلها... كل هذا يرسم للرحلة فضاءها ويحدد لها منطقها وبناءها.

2. دار الكفر ـ بلد النَّصراني

سفارة المكناسي صوب إسبانيا أولا، ثم وجهة نابولي ومالطة ثانيا، على نحو ما تشعرنا به قراءة الكتابين اللذين يسجلان وقائعهما، هي رحلة أو انتقال مؤقت من دار الإسلام إلى دار الكفر. والسفير المكناسي، في حرصه الشديد على استحضار المرمى الديني لسفارته (= فكاك الأسير)، لا يقبل أن ينوم هذا الشعور الديني ولو لفترة قصيرة ولا يريد لذلك الحضور الديني في نفسه إلا أن يكون حيا متصلا. ولا يمكن لعين القارئ أن تغفل مثلا عن ملاحظة الحديث عن ساعات النهار في السفر والحضر : إنها تنقسم، منتظمة، بتعاقب مواقيت الصلاة: «فأعادوا السلام علينا وحاكمهم واقف يعرفنا بهم إلى أن وجبت المغرب، فانصرفت عنهم لصلاة المغرب»[9]؛ «فلما صلينا الظهر انصرفنا إلى قرية يقال لها ططانة»[10]. وقد تعين المسافات بين المحطات أو تحدد ساعات الوصول إليها بعدد الساعات التي قضاها الراكب في السفر: «ووصلنا مدينة إشبيلية بعد غروب الشمس على عشر ساعات من الكبيسات»[11]. والأمثلة في الرحلتين عديدة متوافرة. أضف إلى ذلك أن الحضور الديني يصبح، عند المكناسي، أكثر قوة وهيمنة على الرحلة وعلى الحديث عنهما متى كان الأمر متعلقا بالتنقل في دار كفر كانت هي نفسها، قبل قرون قليلة، دار إسلام. وذلك هو الشأن في الرحلة الأولى صوب إسبانيا. والقارئ يقلب صفحات «**الإكسير في فكاك الأسير**»، ويصاحب المكناسي في حله وترحاله، فيجد أن الحديث عن كل المدائن والقرى التي ينتقل فيها السفير يرفق، في لازمة لا تخطئ، بإضافة جملة «أعادها الله أرض السلام» : «دخولنا مدينة قالص أعادها الله أرض

---

(9) محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**... (سبقت الإشارة إليه)، ص. 183.

(10) المكناسي، **الإكسير**...، ص. 167.

(11) **المرجع السابق**، ص. 33.

إسلام» ؛ «قرية لريل كرلينة أعادها الله أرض إسلام» ؛ «مدينة مادريد أعادها الله أرض إسلام» ؛ «مدينة لوخة أعادها الله أرض إسلام». لا يحضر الدعاء في المواطن التي تستثير ذكرى الوجود العربي الإسلامي، مثلما هو الشأن في مدن طليطلة وإشبيلية وغرناطة، ولا يغمر المكناسي ذلك الشعور عند الصعود إلى مئذنة الخيرالدا أو عند التجول في أبهاء مسجد قرطبة، بل إن ذلك الشعور ــ كما ذكرنا ــ حي فاعل متصل : فهو لا يفارق صاحبه لينسج حول الرحلة هالة من القدسية والتبتل في أمكنة كان فيها، في الأزمنة الماضية، للدين الإسلامي وجود تشهد عليه معالم وآثار مادية.

الدعوة على الأرض بإعادتها أرض إسلام إفادة لا تعني، عند المكناسي، أن تلك الأرض قد دنست بحضور الكفر فيها حضورا معنويا أو رمزيا، بإسكات صوت الإسلام فيها، بل إنه يجتهد في التدليل على حدوث الدنس المادي الملموس وآستقصاء آثاره ومظاهره. ذلك ما يجده في زيارته لصومعة الخيرالدا : «إلا أن الكفار الساكنين بالصومعة المذكورة قد أفسدوا داخلها بالبول والقذارات حتى لا يمكن للإنسان أن يطلع إليها إلا ممسكا أنفه من شدة النتن. طهر الله منهم البلاد وجعلهم فيئا وغنيمة للعباد»[12] ؛ وذلك ما يستشعره من تنقله في أبهاء المسجد الأموي في قرطبة : إذ صيره النصارى جملة كنائس «أعدوها لكفرهم وضلالاتهم ومخازن لوضع صُلبانهم الذهبية والفضية والذخائر (...) قبحهم الله وطهر منهم ذلك المسجد وعمره بذكره»[13].

بلد النصارى دار كفر وضلال. فالمكناسي يأنف منها، وليس عيش الرهبان تنكبا عن جادة الصواب فحسب، بل إنه وقوع في الدنس والخبائث : «وشأن هؤلاء الراهبات في عزلتهن مناكر معتكفات عليهن، قد جالوا من المساحقة في مجال مع إبليس حيثما جال، واستغنوا بذلك عن الرجال»[14]. والبابا يحتال في جمع الأموال ومراكمة الثروات بكل سبيل ووسيلة «حيلة على جمع المال المذكور، وهو الذي يحل لهم ويحرم عليهم ويشرع لهم شرائع كفرياتهم على وفق إرادته ويحل لهم نكاح المحرم مثل بنت الأخ، وهي حرام في دينهم»[15]. لذلك كان البابا ــ في وعيه له ــ نتنا مصيره

---

(12) المرجع السابق، ص. 39.

(13) المرجع السابق، ص. 59ـ60.

(14) المكناسي، البدر السافر، الورقة 185.

(15) المكناسي، الإكسير...، ص. 110.

بعد موته مصير الكافر: «فإذا مات آلبابا كُبْكِبَ في الجحيم وتجرع الحميم»[16].

بلد النصارى دار كفر وضلال، لأن الغيرة على الحرم، المطلوبة شرعا، تنعدم فيها ؛ ولأن الفسق والرذيلة تشيع فيها : «فتجد الرجل جالسا وامرأته أو بنته ترقص مع أجنبي ويناجي بعضهم بعضا خفاء، ولا حياء ؛ وكلام الناظرين يذهب جفاء ولا يبالي أحد بذلك، مع ما هو معلوم فيهم وشائع في بلادهم من الفسق والزنا. ويعرف ذلك بعضهم في بعض، ومع ذلك فلا يبالون بشيء : فقد جبلوا على عدم الغيرة قبَّحهم الله وطهر البلاد منهم»[17].

بلد النصارى دار كفر وضلال لأنها، أخيرا، بلد لا تعرف الشرع ولا يكون الحكم فيها بما شرع الله : فهي بلد «الطاغية». وقد تجدر الإشارة إلى أن المكناسي المتشبع بتربيته الدينية، الوافد من دار الإسلام، لم يستشعر ـ ولو مرة واحدة ـ الحاجة إلى شرح السبب الذي يحدوه إلى إطلاق نعت الطاغية على ملك إسبانيا، بالرغم من إعجابه الخفي بمظاهر من عدله وحسن سيرته، بل وإلى الالتزام بإطلاق ذلك النعت على ملك نابولي فيما هو يسجل علامات باهرة على تواضعه وحدبه على رعيته : «وقد أخبرت أنه إذا دخل بعض جناته ينزع الفؤوس من أيدي الخدمة ويخدم بيده، ويلزم كل من معه من الأكابر أن يخدم (...) فإذا ركب في البحر أمسك المجادف من جملة الملاحين»[18].

على أن بلد النصارى، وإن كانت دار كفر وضلال، بلد خبرة ومعرفة بأمور الفلاحة : «لهذا الجنس خبرة كبيرة بالفلاحة وتربية الأشجار»، كما يسجل ذلك في «**الإكسير**»[19]. ويؤكد القول في صيغة أخرى، في رحلته إلى نابولي ومالطة : «وأما ما بها من الخيرات، فحدث عن البحر ولا حرج : فالفواكه موجودة فيها في غير إبانها، حتى تجتمع فاكهة السنتين معا»[20]. وهي بلد إتقان وجودة في صناعة السفن، على نحو ما يسهب في الحديث في «**البدر السافر**»، وهي بلد معرفة بالصناعات العديدة

(16) **نفس المرجع والصفحة.**

(17) **المرجع السابق،** ص. 161.

(18) المكناسي، **البدر السافر...**، الورقتان 176ـ177.

(19) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 45.

(20) المكناسي، **البدر السافر...**، الورقة 213.

المذهلة. وبالجملة، فهي بلد يجمل الوصف فيها، عند المكناسي، القول القرآني : ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[21].

في هذه البلاد التي لم يتوانَ المكناسي، في كل تجواله فيها، عن التذكير بهويته الإسلامية وبما تستلزمه تلك الهوية من مراعاة الدين قواعداً وسلوكاً، لا يريد ابن عثمان أن ينسى لحظة واحدة أنه يتنقل في تلك البلاد مبعوثاً من قبل أمير المؤمنين الملك، مبعوثاً في سفارة لها كل السمات والخصائص التي سبقت الإشارة إليها.

3. صاحب الرحلة سفير السلطان

تشعرنا قراءة المكناسي، أحيانا عديدة، بأن الموضوع الرئيسي في تدوين الرحلة هو جمع كل الحجج والبراهين الدالة على ما لقيته بعثة الملك المغربي من تعظيم وإجلال من قبل الملك الإسباني ورجال دولته. يجمل المكناسي الحديث عن التعظيم والإجلال، فيقول : «وقد بالغ هذا الطاغية في إكرامنا وتعظيمنا، كل ذلك تعظيماً لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أعز الله ببقائه الدين. فلم يبق متنزه ولا متصيد إلا وأرانا إياه وأمر جميع أكابر دولته بإكرامنا، فكانوا يتسابقوا لذلك لعلمهم أنهم يستجلبون بذلك إليهم خاطر طاغيتهم»[22]. ولكنه لا يقنع بالقول المجمل، ولا يريد من قارئه أن يقنع به. ولذلك فهو لا يمل من سرد الجزئيات والتفاصيل التي تشي بحفاوة الاستقبال وحرارته. والحال أنه الرجل الذي يميل إلى الابتسار في الحديث والاختزال في الوصف حين يتعلق الأمر بالمشاهدات وتسجيل الانطباعات أمام الكشوف والاختراعات والفنون الكثيرة. وإذن فهو يجعل الأدلة والحجج على التعظيم والإجلال تتراكم فوق بعضها، بل إن القارئ ليحسب أن ذلك هو الهم الوحيد لمؤلف «**الإكسير**» وأن قوله في مقدمة الكتاب : «وقد رأيت أن أقيد ما أبصرته في وجهتي وأوبتي من المدائن والحواضر، والقرى والمداشر، وإن لم أكن من أهل هذا الميدان..»، قول يستدعي تخصيصا يحد من إطلاق القول ليفيد ما أبصره في ذهابه وأوبته من مظاهر الحفاوة وحسن الاستقبال.

يذكر السفير المكناسي، أول ما يذكر من مظاهر التعظيم والتبجيل التي

---

(21) سورة الروم، الآية رقم 6.

(22) المكناسي، **الإكسير**...، ص. 98.

أحيطت السفارة بها، أنه لا بد للوَافِد على بلادهم من «الكرنطينة» (أي قضاء مدة أربعين يوما من الحجر الصحي بقصد التأكُد من السلامة من الوباء)، ولابد له من مراعاة قواعد صارمة دقيقة في ذلك. أما هو والمرافقون له، فمن «مهابة سيدنا ومولانا وعلو قدره ومنصبه لم يجعلوا لنا شيئا من ذلك، فأدخلونا المدينة وأنزلونا بدار هي أفضل ديارهم منسوبة إلى طاغيتهم (...) وقالوا لنا تجعلون الكرنطينة بهذه الدار أربعة عشر يوما فقط على أعين الناس»[23]، فضلا عما صاحب الإقامة من أشكال التعظيم : «في كل يوم يأتي إلينا كبارهم وأعيانهم وحاكمهم ويجلسون معنا ويبحثون عن مقتضياتنا ويتفقدون أحوالنا»، في حين أن القادمين من غيرهم لا ينعمون بمزية من قبيل ذلك.

أما آستقبال الناس لهم، في كل الأمكنة التي حلوا بها، فإن السفير يتنعم بلذّة خاصة في الحديث المسهب عنها: «وصلنا مدينة إشبيلية (...) فلما أشرفنا عليها وجدنا أهلها خرجوا لملاقاتنا بما ينيف على المائتي كدش[24]؛ وأما الرجالة فلا يحصون عددا، نساء ورجالا»[25]. ولا يقتصر الِاستقبال على عامة الناس ورعاع القوم، بل هو يشمل الحكام ووجهاء البلد : «فتقدم إلينا نائب الحاكم، فرحب بنا وأظهر هو وجميع من خرج معه من الأعيان من فرح والسرور ما لا يُكَيَّف وقدم إلينا كدش الحاكم لركوبنا (...) فتوجهنا إلى المدينة ووجدنا الحاكم بعسكره...»[26]؛ «خرج لملاقتنا حاكمها وقاضيها وأعيان البلد وخاصتها وعامتها»[27]. بل إن الملك يبعث للسفير بعربة خاصة تحاط بكل المراسيم والشارات التي لا تكون إلا لأعظم العظماء : «فقدم إلينا الكدش الذي بعث الطاغية لركوبنا، وركب في الأكداش الأخرى من بقي من أصحابنا. وتقدمت أمامنا طائفة من الخيل مصلتي السيوف، وكانت شعارا لملكهم مقصورا عليه وبه معروف»[28].

---

(23) **المرجع السابق**، ص. 9-10.

(24) **الكدش** : محرفة عن الكلمة الإسبانية Coche (= العربة)، ويجمعها المغاربة، في كتب رحلاتهم، على **«أكداش»**.

(25) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 33.

(26) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 34.

(27) **المرجع السابق**، ص. 28.

(28) المكناسي، **البدر السافر...**، الورقتان 111 ـ 112.

تتعدد الشواهد والأدلة على بهرجة الإستقبال وآتساع مداه لتصير إلى التكرار والرتابة في بعض المواطن، بيد أن المكناسي حريص كل الحرص على التنبيه على أن تعظيم السفير والسفارة إجلال للملك المرسل وتعظيم له : «وقد كان في ذلك اليوم من المطر الغزير ما غمر الأرض، وتجشموا مشقة الخروج لملاقاتنا اعتناء وتعظيما لسيدنا ومولانا أعز الله به الإسلام»[29] ؛ «ولأهل هذه المدينة [= مرسية] بشاشة وطلاقة : فقد احتفلوا لملاقاتنا غاية الإحتفال وأجلوا مقدارنا، لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين غاية الإجلال» ؛ «وعادة الطاغية، فيمن يرد عليه من وفود الملوك، أن يضيفه ثلاثة أيام ونحن، من شدة آعتنائه بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين، أكرم مثوانا وأحسن ضيافتنا إثني عشر يوما التي قبل الملاقاة»[30].

لا يكاد السفير يشعر من نفسه لذة في سرد ما وجده من إعجاب بما يجده من علامات العناية والإكرام حتى يتمالك نفسه، فيكون منه دعاء على مستقبليه : «احتفلوا لملاقاتنا (...) لسيدنا ومولانا (...) نصره الله على القوم الكافرين وجعله قذى في آماقهم وشجى في حلوقهم فقد هيئوا دارا لنزولنا وورد حاكم البلد وأعيانها للسلام علينا...» ؛ ويكون منه، تارة أخرى، إعلانا صريحا بالاستغناء عن كل أنواع التكريم في خطاب يكاد يخلو من اللباقة في حدودها الدنيا : «ورد علينا في ذلك الجمع الخازندار الذي على بيت المال بتلك المدينة وسلم ورحب وقال : إنه عند أمر عظيمه أن يكون عند أمرنا ببلده وأن ينفذ جميع ما أمرناه به. كل ذلك آعتناء بقدر سيدنا ومولانا، فقلت : قد علمنا بهذا وما أنتم عليه من المحبة في جانب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، ونحن لا نحتاج من فضل الله إلى شيء وقد أغنانا الله تعالى بسيدنا ومولانا»[31].

هل نقول إن مثل هذا القول من ابن عثمان لباقة وحسن تأدب مع من أرسله على رأس السفارة، وأن المكناسي، الكاتب في القصر الملكي ثم الوزير بعد ذلك، كان يقدر أن سجل رحلته سيكون من الملك موضع قراءة وتأمل ؟ لا شك أنه أمر جائز، بل ربما في حكم الأكيد، بالنظر إلى شغف محمد بن عبد الله بمطالعة الكتب وتقصي الأخبار وبالنظر إلى ما كانت «السفارة» تعنيه له من حصول آتفاق وعقد صلح مع

(29) المكناسي، **الإكسير**...، ص. 28–29.

(30) المكناسي، **الإكسير**...، ص. 84.

(31) **«الملاقاة»** : كلمة تعني في التعبير المغربي الدارج (المخزني، خاصة) الإستقبال الملكي.

إسبانيا وأخيرا، بالنظر إلى ما كان في تقديره لمسألة الأسير وفكاكه من أهمية في سياسته الخارجية ومن مكان في حافزه الديني على الفعل والإختيار.

الأكيد أيضا، بل الثابت عند رؤية كتابة المكناسي تأخذ بمثل ما نأخذ به، أن صاحب «**الإكسير**» و«**البدر السافر**» لم ينفك، في ثنايا مدوناته كلها، من شعور باطن بالقوة والإستعلاء في مقابل شعور باطن محايث بدونية «الآخر» ونزول مقداره. لكن ما كانت العين تشاهده من صور القوة المادية والإرتقاء الحضاري لم يخلُ من ممازجة الشعور الباطن بقوة الذات وسموها بشعور آخر، لا يكاد يبين، بتفوق «الآخر» وآرتفاع شأنه.

4. مشاهدات وآنطباعات

إذا ما تركنا الأحاديث المسهبة عن الاستقبال وحرارته وعن التعظيم والإجلال ومظاهرهما ؛ وإذا ما تركنا جانبا الأحاديث الأخرى، الأقل إسهابا وتفصيلا، عن النصرانية والنصارى؛ وإذا ما شئنا أن ننظر فيما حق آعتباره مشاهدات من النوع الذي تعودنا كتب الرحلات العربية على تدوينه وسرده، فإننا نفاجأ من ندرة الصفحات المخصصة لمثل ذلك الحديث. بل إن القارئ قد يعجب، معنا، بأن حديث المكناسي عن مشاهداته وزياراته للمتاحف، والمعامل، وحدائق الحيوانات، والمسارح، ومصانع السلاح، والورق، ودار البريد، وحلبة مصارعة الثيران، والمنتزهات، والحدائق... كل هذه المشاهدات الكثيرة المتنوعة لا تكاد تبلغ العشرة في المائة من مجموع صفحات «**الإكسير**» ومن مجموع أوراق مخطوطة «**البدر السافر**» ! حصيلة هزيلة، مثيرة للدهشة حقا، تلك التي جاءت ثمرة تنقل كثير في نابولي ومالطة، فضلا عن الكثير جدا من المدن والقرى الإسبانية.

نجد أن إمعان النظر في ما دونه المكناسي من مشاهداته تنتسب إلى جنس ما أشرنا إليه أعلاه، ثم إن محاولة آستكناه آنطباعات السفير، في المواطن التي لا يفصح فيها عن قول أو رأي، لأمر يجيز لنا أن نصف تلك الانطباعات والمشاهدات في أصناف ثلاثة : نوع كان موقع آبن عثمان فيه مضطربا بين اللامبالاة والتبرم، وصنف ثان كان حاله فيه بين اللامبالاة وقلة الاكتراث، ونوع ثالث اتسم فيه شعوره بالمتعة ولذة المشاهدة.

أ ـ بين التبرم واللامبالاة :

في حال من الاضطراب بين الضيق والتبرم من جهة، وحال من اللامبالاة وضعف الاهتمام من جهة ثانية، تأتي زيارات السفير المكناسي العديدة للمسرح ثم للأوبرا. ويجد القارئ ما يشي بتلك الحال في «**الإكسير**»، حيث كان ذهابه الوحيد إلى المسرح في رحلته إلى إسبانيا، كما يجده في حديثه عن مشاهداته في نابولي في «**البدر السافر**» حيث تكرر ذهابه إلى دار الأوبرا.

فأما الذهاب إلى المسرح، على نحو ما نقرأ في «**الإكسير**»، فقد كان خضوعا لضغوط معنوية لم يكن يملك أن يتخلص منها رغم محاولاته : «هيئوا دارا بالقرب منها للفرجة تسمى الكميدية، وطلبوا منا أن أتوجه إليها حتى أنظرها فامتنعت من التوجه إليها، وراودونا مرارا فأبيت (...) فورد علينا نصراني له معرفة بنا (...) صنعوا هذه الفرجة بقصدك وإكراما لك وتعظيما لسيدنا المنصور بالله وقد صرفوا عليها مالا كثيرا. وليس هذا وقت صنعة هذه الفرجة، وإنما جعلت اليوم بسببك (...) فبينما نحن كذلك، إذ أقبل الحاكم والقاضي وأعيان البلد يستدعوننا، فما أمكنني إلا أن توجهت معهم»[32]. وهو، على نحو ما نقرأ في «**البدر السافر**»، خضوع لضرورة ليس إلى دفعها من سبيل : فالظاهر أن ملك نابولي، آبن ملك إسبانيا كارلوس الثالث الذي عرفه آبن عثمان في إسبانيا، كان يعشق الأوبرا عشقا شديدا : «وقد ترددنا إلى هذه الديار مرارا، حيث كان يتوجه إليها الطاغية» ؛ «وبين العشاءين، ورد رسولُ الطاغية، وقال : «إن الطاغية يريد أن يتوجه إلى رؤية الفرجة ويجب أن تتقدم أمامه»[33].

وأما الحديث عن المسرح، فقد كان حديثا مقتضبا أشد ما يكون الاِقتضاب في ذهابه إليه، للمرة الأولى، في إسبانيا : «دار عظيمة لها أربع طبقات، قد أوقدوا فيها من الشمع ما لا يعد ولا يحصى، وأصحاب آلات الطرب والموسيقى في سفلي الدار»[34]. وهو أقل اقتضابا وميلا إلى الوصف الدقيق في «**البدر السافر**» : فقد زالت وحشة المرة الأولى التي عرفها في «قالص» (= مدينة قادس) ؛ ثم إن آرتياده

---

(32) المكناسي، **الإكسير**...، ص. 51.

(33) المكناسي، **الإكسير**...، ص. 23.

(34) المكناسي، البدر السافر...، الأوراق 141–144.

لدار الأوبرا في نابولي قد تكرر عدة مرات. لذلك فهو يصف خشبة المسرح : «براح متسع مرتفع عن الأرض بنحو قامة، مفروش بالخشب هو موضع اللعب والفرجة»، ويتحدث عن الفصول وإسدال الستار بين الفصل والآخر: «وكلما لعبوا، أرخوا ذلك الساتر، فيصفر الصافر، ويرفع ليكشف عن أشكال وبناءات مغايرات لما تقدم. وكل ذلك إنما هو تخيلات، ما عدى الآدميِّين فهم حقيقة»[35].

أما الِانطباع الحاصل عن مشاهدة «موضع اللعب الفرجة»، فهو، في «**الإكسير**»، لا يخفي تبرمه منها بالرغم من آتسامها بسمة العجيب من جهة، وطابع الفرجة من جهة أخرى : «وشاهدنا من العجب في تلك الدار ما لا يمكن وصفه من أنواع التصاوير والبناءات والحيوانات التي تخيل للناظر كأنها قائمة بالذات، ومن آلات الطرب والرقص ما لا يكيف. فجلست معهم شئيا ما وانصرفت إلى الدار التي نحن فيها»[36]. وإذ ينتظر قارئ «**البدر السافر**» آنطباعا أكثر إيجابية وحرارة، وبالنظر إلى «الكلفة» الناتجة عن تكرار الذهاب إلى «الفرجة» فإنه لا يجد إلا جملتين يخبره المكناسي في أولاهما أنه «كلما مررنا إليها هيأ لنا الأشربة والحلاوي على سبيل الإكرام»، ويعلق في ثانيهما في صيغة لا تكاد تخفي حال التبرم واللامبالاة : «والعمل في تلك الدار واحد، إلا مما كان من اللعب فيختلف باختلاف أصحابه»[37].

ب ــ اللامبالاة وقلة الِاكتراث :

نقف في رحلتي إسبانيا ونابولي ــ مالطة على ذكر لمشاهدات يكاد المشاهد أو الرائي يختفي فيها اختفاء كليا : فهو أشبه بموثق أو عدل، في حركة آلية صنع المتعود بحكم عمله ومهنته ما يجده أمامه أو ما يطلب منه أن يسجله ويثبته في كناشته أو «محضره». فعلا، فكثير من مشاهدات السفير المكناسي لا تكاد تعدو مدونات المحاضر ولغتها التقريرية. ولكنه لا يخرج عن حال الوقار أو الجمود التي لا تختلف في شيء عن حال اللامبالاة أو قلة الاكثرات بما يراه ويشاهده. من ذلك ذهابه إلى البنك، وهو مشهد جديد لديه لم يَكن له به سابق معرفة، ولكنه يكتفي بالحديث عن الرهن وما يراه من الأشياء المحجوزة أو التي تكون موضع الرهن ؛ ثم لا

---

(35) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 23.

(36) المكناسي، **البدر السافر...**، الأوراق 141ـ144.

(37) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 24.

نجد لذلك أثرا في نفسه، سلبيا كان ذلك الأثر أو إيجابيا. وينقلنا إلى متحف نابولي أو «دار الطاغية»، كما يتحدث عنها، فلا يزيد شيئا على القول : «خزانة كبيرة موضوع فيها الغرائب»؛ ونتشوق إلى تعرُّف ما خلفته الزيارة في نفسه، فلا نجد غير جملة واحدة توحي بعجبه من غرابة ما شاهده : «واتفقنا على الرجوع مرة أخرى لنشفي الغليل في تلك العجائب، فلم يتفق ذلك بسبب ما كنا بصدده من الأشغال»[38].

ربما كان الأعجب من ذلك عند قارئ يرافق ابن عثمان السفير في جولته الإسبانية ويقدر مقدار حماسته الدينية، ما يراه من حديثه عن مصارعة الثيران والصور والمشاهد المتعاقبة على الحلبة. فأنت ـ أولا ـ لا تجد عنده من التردد ما كان له حين دعي إلى زيارة «الكميدية»، بل إن حاله يشي بالموافقة والاستحسان : «ولم يحضر الطاغية بمادريد : فقد كان برانخويس، وبعث إلينا أحد خاصته، فهيأ لنا موضعين بأعلى الدار وكساهما بأنواع الحرير والزينة (...) وقال إن الطاغية بعثني لأتوجه بكم إلى رؤية هذه الفرجة»[39]. وأنت ـ ثانيا ـ لا تجد عنده إنكارا لمصارعة الثور وطعنه : «يركض الفرس وينجو منه، وإما أن يخطئه فيلحقه الثور فيضرب الفرس فيبقر بطنه ويأتي الفارس الآخر فيحمل عليه الثور كما فعل أول مرة»[40]. وأنت ـ ثالثا ـ لا تجد عنده تعليقا باستشناع يحركه الوازع الديني، أو استشباع مصدره غرابة ما يراه ومخالفته لما يعرفه من تكريم الحصان وإعزازه، كما تقرر ذلك مكونات الثقافة التي يصدر عنها.

ج ـ لذة المشاهدة : الجنات والحدائق :

لا تشعرنا قراءة الرحلتين بأن المسافر ينتابه الارتياح لما يراه، ولا نتبين أن المشاهدات تغدو موضع لذة في المشاهدة ومتعة تستشعرها الحواس إلا حين يكون ذكر الماء، وحين يأتي الحديث على الجنات والحدائق : «ومن غرائب إشبيلية الغرسة المجاورة للقصر الذي كنا نازلين فيه : ففيها من العجائب ما يقصر عن وصفه اللسان (...) وفيها من التصاوير ما لا يحصى، وحيث يطلقون الماء يخرج من تلك

---

(38) المكناسي، **البدر السافر...**، الورقة 144.

(39) **المرجع السابق**، الورقة 209.

(40) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 107.

التصاوير»[41]. وقد يتبيَّن القارئ حديث المتعة (وما أقله في كلام السفير آبن عثمان! إلا أن يكون حديث المتعة الحاصلة عن حسن الرعاية وجليل الِاستقبال ومظاهر الحفاوة) حين وصف مشاهدات «الدار الكبيرة»، حيث «أنواع الغرائب البرية والبحرية والمعادن الذهبية والحجرية ما لا يمكن وصفه» (...) من العجب العجاب مالا يسعه كتاب»[42]. والحق أننا لا نكاد نتبين حديثا مماثلا سوى مرتين أو ثلاث في «**الإكسير**»، ونحن لا نجده في عفوية وآمتناع عن «الرقابة الذاتية» سوى مرة واحدة في «**البدر السافر**»، حيث يجمل القول في وصف نابولي : «الحاصل، هذه المدينة من عجائب الدنيا ! لا تنقضي عجائبها ولو أقام الإنسان سنين فيها لا يحصي عجائبها ولا يستوفيها»[43].

5. منطق النظرة وعوائقها

للنظرة إلى الآخر ضوابطها وموجهاتها، ولكن لها عوائقها التي تمنعها من الرؤية كذلك. ذلك ما نجد أن متابعة آبن عثمان المكناسي في رحلتيه تكشف لنا عنه. فما يبدو أنه كان فاعلا في صياغة لحظة القوة والثقة في النفس وحياكة النسيج المحيط بها : خدمة الملك المصلح القوي، والسعي من أجل «فكاك الأسير»، والسير في أرض كفر كانت، إلى قرون ليست بالغابرة، أرض إسلام، وما حظيت به السفارة – بالفعل – من رعاية واحتفاء بها، كل هذه كانت عوامل وعناصر في تشكيل النظرة وتعيين قواعدها ومنطقها. ولكن هذه العوامل والعناصر كانت من دواعي التعتيم على النظرة، وقامت عوائق في وجهها تحول بينها وبين النظرة آنا، وتسيء إلى النظرة وتشوهها آناً ثانيا، وتجعلها تضطرب بين الصراحة في الإفصاح عن الرأي وبين المواربة والتردد آنا آخر. ما كان يقف عائقا في «رؤية الآخر» هو بالضبط ما كان يملأ وعي المكناسي من الِانتشاء بمظاهر التبجيل والتعظيم التي أحيطت سفارته بها آنطلاقا من قاعدة مقررة لديه، أو نتيجة لوعي ثقافي يقضي بأن تعظيم السفير والتفنن في إكرامه كناية عن إجلال المرسل وآعترافاً بعلو مقداره. لذلك فإن السفير لا يكاد يرى، مما يفتح عينيه عليه ويشاهده، إلا ما كانت فيه علامات التقدير والتبجيل محورا وبؤرة في الوعي لا يكون ما عداها، مما يحيط بها، سوى هوامش أو إضافات. لذلك، فإن ما أمكن أن

---

(41) **المرجع السابق**، ص. 108.
(42) **المرجع السابق**، ص. 103–104.
(43) المكناسي، **البدر السافر...**، الورقة 213.

«يراه» هو ما فضل من حديثه عن «الذات»، وحيث كانت «مغادرته» للذات ومفارقته لها لا تكون إلا لماما، أو صدفة، فقد كاد أن لا يرى كبير شيء، أو هو لم ير إلا قليلا مما يستحق التدوين والحديث عنه.

نُمعن النظر في الصورة التي ترتسم للآخر في «**الإكسير**» وفي «**البدر السافر**»، فنفاجأ بأن الصورة تخلو من الألوان: فهي لا لون لها ! والمكناسي لا يأتي على ذكر الألوان مثلما أن الوصف، وصف الأشخاص، يغيب عن أحاديثه كلها. لم يكن آبن عثمان يرى أشخاصا بأعيانهم، ولكنه كان يرى النصارى : «دمرهم الله وخذلهم»، وينظر إليهم كتلة بشرية مجتمعة : «استأصل الله شأفتهم، وأسكت قامتهم وطهر منهم البلاد»[44]. لذلك فهو لا يتحدث، في الرحلتين معا، عن الفرد الواحد المتميز إلا في ندرة شديدة، بل إن في الإمكان تعداد مواطن الأحاديث. ولا اهتمام له ولا احتفال بالألبسة ولا بنظم العيش مثل آداب المائدة وأنماط الحياة اليومية، وإنما المرجع في الحديث ـ متى كان ـ ما يحصل عنده من آنقباض أو انبساط : «فإذا بتلك الدار كل من له بال وشأن منهم حتى امتلأت الدار نساء ورجالا (...) وأدخلوا أصحاب الموسيقى وأخذوا في استعمالها وغنين [= وغنت] الفتيات من الضامات بأصوات حسان ورقة ألحان. فقلت لهم : قد لحقنا تعب اليوم، وأنتم مخيرون في تتميم عملكم أو انصراف إلى منازلكم. فقالوا : آخترنا الأمر الأول وعليه المعول، فتركتهم مختلطين نساء ورجالا، وأبو مرة لا يالوهم خبالا»[45].

لا غرو أن صورة «الآخر»، على النحو الذي تظهر به كتابة السفير المكناسي، لا ترتسم اتفاقا أو آعتباطا، كما أنها لا ترجع فقط إلى أذواق الفقيه المتعود على العيش في أجواء ثقافية مغايرة، ولكنها تخضع لسند سيكولوجي قوي ثابت يشكل قاعدتها ويعين منطقها الذاتي الذي به يكون تفسيرها. ومن العسير على المرء أن يتصور أن تغيرا نوعيا ما كان سيصيب تلك الصورة لو أن ابن عثمان ذهب في سفارة ثالثة إلى بريطانيا، وفي أخرى رابعة إلى السويد أو إلى غيرهما من البلدان الأوروبية التي كانت للمغرب علاقة بها. ذلك أن التغير في «النظرة» ذاتها ما كان ليحدُث دون الإفاقة من غفوة القوة والانتشاء بشعور الثقة الجارفين.

---

(44) المكناسي، **الإكسير...**، ص. 14.

(45) **المرجع السابق**، ص. 183-184.

كان لابد من الإفاقة على صدمة قوية عنيفة، تخلخل الشعور الذاتي بالقوة والتفوق، وتصيب الثقة في النفس برجة تحمل على المراجعة وتدفع إلى إعادة التقدير. كان لابد، بالتالي، من ريح تعصف بالقاعدة التي استقر المكناسي فوقها ساكنا في طمأنينته، وكان لابد من عاصفة تقوض المنطق الذاتي الذي كان يحكم نظرة صاحب «**الإكسير في فكاك الأسير**».

الفصل الثالث

لحظة الهزيمة والاكتشاف

«ليس آسم العالم عندهم مقصورا على من يعرف أصول دين النصرانية وفروعها (...) بل ربما كان عندهم غير ملحوظ بالنسبة لغيره من العلوم العقلية الدقيقة».

محمد الصفار، **الرحلة**

«وبالجملة، فما سمعت أذني ولا رأت عيني، ولا طالعت في كتب التواريخ بأعجب ولا أغرب من هذا البابور (...) وأعجب منه سلك الإشارة الذي يكتبون به فيصل خبره في لحظة للأماكن البعيدة».

العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**

لحظة الهزيمة هي لحظة الوعي بالإنهزام أمام الحضارة الأوروبية التي عرفت مع بداية العصر الصناعي نقلة كيفية، نقلة أصبحت معها الحاكم الآمر في عالم جديد. ولحظة الهزيمة هي، مع ذلك، لحظة الشعور الإيجابي بوجوب الوقوف على سر هذه الحضارة الجديدة واكتشافها : ربما من أجل عرضها على محكمة الوعي الديني أولا وقبل كل شيء، ثم القول في آتخاذها سبيلًا حسب ما يتقرر من تعارضها المبدئي أو عدم تعارضها مع ذلك الوعي...؛ وربما، ثانيا، من أجل تسجيل جوانب الإيجاب والمعقولية في ثقافة وحضارة قر الرأي عهودا عديدة على أنها ربيبة الكفر والزندقية وصنو الجهل والهمجية. فهذه اللحظة إذن، متى نظرنا إليها من جهة وعي الذات لذاتها، هي لحظة إعادة اكتشاف «الآخر»، أو هي بالأحرى اكتشاف هذا «الآخر الجديد». ومن حيث هي كذلك، فإن لحظة الهزيمة والإكتشاف هذه التي نريد الوقوف عندها ورصدها من خلال «الرحلة الأوربية» في القرن التاسع عشر، هي

لحظة سمتها الكبرى المميزة لها هي سمة إحداث الخلخلة العظمى في الصورة التي كان آبن عثمان المكناسي قد رسمها للذات وللآخر، فتعينت بموجب ذلك الرسم الصلات والعلاقات التي تقوم بينهما. وما حدث في المغرب هو من قبيل ما حدث في غيره من البلدان العربية الإسلامية في القرن الماضي : آجتماع عناصر ومعطيات جديدة يؤول معها الوعي القديم إلى ماض غابر وتصاب فيه الصورة المألوفة بتشويهات وانحرافات عديدة. ثم إنه كان لابد من فعل تاريخي حاسم يقوم بعمل الإختصار والحذف معا، كان لابد من حدوث رجة أو صدمة هائلة، وبعبارة أخرى كان لابد من الإنتباه من غفوة السكينة ومن الهدوء ومن الإفاقة على صدمة الإضطراب والقلق. وفي المغرب لم يكن الأمر متعلقا بصدمة واحدة تقوم بعمل الفعل التاريخي الحاسم، بل إن البلد قد عرف صدمات قوية متلاحقة، صدمات هائلة في عقود قليلة.

الصدمة الأولى، القوية، هي التي كانت عن هزيمة المغرب في معركة إيسلي (1844) أو هي، بالأحرى، اكتشاف المغرب «أن ما أصاب جيشه العديد، هو من عدم تنظيمه على الطراز الجديد» كما يقول أحد المؤرخين[1]. وبالفعل، فقد انهزم جيش قوامه بضع وثلاثون ألفا من الرجال أمام جيش لم يكن تعداده يفوق ثمانية آلاف جندي، ثم إن الهزيمة النكراء قد تمّت في ساعات قليلة. كانت دلالة الصدمة إذن هي أن «الذات» تكتشف أن ما ينقصها من أسباب القوة والنصر يوجد عند «الآخر»[2].

أما الصدمة الثانية، ولم تكن أقل قوة وتأثيرا في النفوس، فقد كانت عن هزيمة أخرى عرفها المغرب بعد مرور أقل من عقد ونصف العقد على هزيمة إيسلي وكاد يفقد بموجبها أكبر مدنه في شمال البلاد : مدينة تطوان. لم تكن الهزيمة سنة 1860 هزيمة عسكرية فحسب، ولم تكن نتيجتها فادحة من الناحية المالية (هي ما أُلزم على دفعه لإسبانيا بموجب عقد الصلح وآسترجاع المدينة) ؛ ولكن الهزيمة كانت هزيمة حضارية أو لنقل إن الدرس الناتج عنها كان درسا عميقا في دلالته الحضارية. كان الدرس

---

(1) محمد غريط، **فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان**. أورده محمد المنوني في **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، 1985، بيروت، ص. 77.

(2) آنظر كتابنا **الإجتهاد والتحديث : دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب**، مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992، ص. 27.

كذلك، لأن الدولة المغربية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد تبينت أنها ملزمة بمراجعة شاملة لنظمها المالية، وبالتالي فإنه لابد من إحداث «مكوس» وتنظيمات ضريبية حيث لم تعد الزكوات والأعشار قادرة على تحقيق الضمانة المالية الضرورية لاستقرار الخزينة وحفظ الأمن في الدولة[3].

اِستفاق المغرب، غداة حرب تطوان، على سلسلة متصلة من الصدمات التي كانت أوروبا مصدرا لها وعاملا حاسما فيها. فمن جهة أولى، أخذت الدول الاِستعمارية الأوروبية تحشر أنوفها في شؤون المغرب المالية أولا، ثم أصبحت تفرض عليه إحداث عدد من «الإصلاحات» التي كانت تخدم مصالح تلك الدول بكيفية مباشرة. ومن جهة ثانية، وجد المغرب نفسه في حال الضغط والإرغام على تسويق ما كانت أوروبا في حاجة إليه من ماشية وحبوب من جهة ؛ وعلى قبول ترويج ما تنتجه تلك البلاد من سلع ومصنوعات من جهة أخرى وسلوك ما عرف في الأدبيات الاِستعمارية في ذلك الوقت بسياسة «الباب المفتوح». ومن جهة ثالثة، وجد الملك محمد الرابع، ثم ابنه الحسن الأول من بعده، أمام ضرورة انتهاج سياسة كان مدارها والعنصر الفاعل فيها هو إرجاء احتلال المغرب والاِستفادة قدر الإمكان من حرب التنافس على المستعمرات. وإذن، فقد كانت كل هذه المعارك تعني تلقي صدمة مفادها الشعور بالعجز وضعف الحيلة وإدراك أن البحر الأبيض المتوسط لا يفصل دار الإسلام عن دار الكفر فحسب بل إنه يفصل بين عالمين إثنين متغايرين : صار أحدهما إلى أشكال من القوة والتفوق، بحيث لا يملك الآخر سوى التسليم بواقع الضعف والتأخر ؛ كما كانت تلك المعارك تعني حدوث صدمة دلالتها اكتشاف الحاجة إلى ضرورة «الآخر» واكتشاف ما عنده من أسباب القوة، من قصور النظر أن يقول المرء عنها إنها قوة مادية وكفى : إنها صدمة تُفِيدُ وجوب مراجعة معنى المعرفة والعلم.

1. رحلـة الاِكتشـاف

إذا كانت الرحلات التي سار فيها المغاربة صوب أوربا في القرن التاسع عشر، ابتداء من منتصفه خاصة، تقبل الاندارج في صنف الرحلات «السفارية»، فإن أسباباً عديدة تجعلها تختلف عن رحلتي السفير المكناسي إلى كل من مالطة ـ نابولي

(3) يجد القارئ بسطا للمسألة في الصفحة 28 من دراستنا المشار إليها أعلاه.

وإسبانيا. ولا شك في أن القارئ، بعد أن وقف معنا عند كتابه ابن عثمان المكناسي، سيتبين الكثير من الأسباب التي تحمل على حكم بالاختلاف والمغايرة الكثيرة بين رحلتي ابن عثمان ورحلات اللاحقين عليه في العقود التالية لسفارته. غير أننا نبادر إلى ذكر أهم أسباب الاختلاف والمغايرة : إنها تلك التي تكمن في لحظة الرحلة (على نحو ما تحدثنا به عن «اللحظة» في الفصل الأول) وترجع إلى موضوع السفارة. فبقدر ما كانت رحلة «**الإكسير في فكاك الأسير**» ورحلة «**البدر السافر**» تعبيرا عن لحظة القوة والثقة في النفس بالفعل، كانت رحلات الصفار والعمراوي والطاهر الفاسي والكردودي والجعايدي تعبيرا، بأنماط تعبيرية شتى، عما ألمحنا إليه في الفقرات السابقة من الصدمات والهزائم والحاجة إلى آكتشاف الغير أو النظر إليه بعين جديدة مخالفة كل المخالفة لتلك التي كان السفير المكناسي يرى مشاهداته في أوروبا من خلالها.

كان «التقليد المخزني» في المغرب يقضي، في القرون السابقة، بجعل السفير صاحب الرحلة أو الذي ذهب فيها بهدف عمل الكتابة (أو السكرتارية كما نقول اليوم) يتكتم على موضوع سفارته : فهو لا يكاد يتحدث عنها ؛ وإذا فعل، كان كلامه إلى الإيماء والإشارة أميل منه إلى التصريح والتوضيح. غير أن في الإمكان أن نعرف موضوع السفارة أو نتبين الهدف منها، إجمالا على الأقل، بالاستناد إلى إحدى طرق ثلاث. نقف على الموضوع، حينا أول، من أقوال المؤرخين في ترجمتهم لملوك المغرب في القرن التاسع عشر. وفي هذا الصدد، فإن كتاب ابن زيدان «**إتحاف أعلام الناس**» يمكن قارئه من مادة مرجعية كثيرة الفائدة. ونتبين موضوع السفارة، حينا ثانيا، من النظر في تواريخها والانتباه إلى أهمية تلك التواريخ في التاريخ المغربي المعاصر. كذلك نلاحظ أن الصفار قد ذهب، كاتبا في السفارة، في نهاية سنة 1845. فسفارته إذن أعقبت هزيمة إيسلي (1844). ونلاحظ أن كلا من العمراوي (في رحلته إلى باريز) والفاسي (في رحلته المتزامنة معها إلى لندن) قد أعقبا، مباشرة، حادثة تطوان (1860). ومن ثم لا نجد صعوبة في إيجاد العلاقة بين السفارتين والحادثة. كما نلاحظ، أخيرا، أن رحلة أحمد الكردودي إلى إسبانيا ورحلة إدريس الجعايدي إلى عدد من دول أوروبا الغربية (فرنسا وبلجيكا وبريطانيا) ذاتا علاقة وطيدة مع سياسة الملك الحسن الأول. ونستشف موضوع السفارة، حيناً ثالثا، من الإفادات القليلة التي ترد، بصورة عفوية تقريبا، في أحاديث أصحاب الرحلات

أنفسهم. كذلك يجد قارئ رحلة العمراوي الباريزية «**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**» إشارة صريحة إلى أن ما كان يعني كلاًّ من الملك المغربي محمد بن عبد الرحمن وملك فرنسا نابليون الثالث هو مسألة الحدود بين المغرب وفرنسا على أثر آستعمارها للجزائر : «سيما دولتكم التي هي أحب الدول عندنا. ولا يأتي تشويش بين الدولتين إلا من عدم المحافظة على الحدود»[4]. كذلك يعثر القارئ على إشارات مبهمة في مقدمة رحلة الكردودي «**التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية**»، ولكنها تكفي للتدليل على بعض السياسة الخارجية للحسن الأول، سياسة كان أحد موجهاتها المناورة والحيلة بهدف صد الأطماع الاستعمارية : «وبعد، فلما وقع التغلب من أعداء الدين على بعض بلادات المسلمين، كتونس ومصر (...) تَعَيَّنَ على من يجاورهم من أهل الإسلام أن يكونوا منهم على بال (...) ويعاملوا من جاورهم معاملة غير موصلة لمرادهم، ريثما يتضاعف الاستعداد...»[5].

هي إذن رحلات «سفارية» فعلا، ولكنها سفارات تزدوج فيها المهمة «الديبلوماسية» بصفة أخرى هي صفة الِاستكشاف وحب الِاطلاع، وهي تعبير عن «إرادة المعرفة» كما يقول فوكو : معرفة «الآخر» واكتشاف ما في يده من أسباب التفوق والقوة. نقرأ مخطوطة «**إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**»، فنجد عند صاحبها، إدريس الجعايدي، آنشغالا بالمدافع والبنادق والقذائف وبآلات التنقل في ميدان المعركة، بل ونفيد من مدوناته أن إحدى مهام سفارته آقتناء الأسلحة أو التفاوض في شأنها على الأقل. ولكننا نجد عند السفير المغربي آفتتانا بمعرفة تقنيات البنادق والمدافع وتدقيقا في وصف إمكانات وقدرات كل منها.

تتجلى «إرادة المعرفة»، في رحلات «اللحظة الثانية»، في الاعتناء الشديد

---

(4) أورده محمد بن إدريس العمراوي في رحلته **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**... (سبقت الإشارة)، ص. 85. ينوه نابليون الثالث بالعمراوي وسفارته في رسالة بعث بها إلى الملك المغربي محمد الرابع، نقرأ فيها : «وأما الطالب إدريس الذي تكلم بحضرتنا، نيابة عنكم، فقد قام بذلك قياما آمتاز به عن غيره، مع تؤدة نجد نفسنا تنشرح بإبلاغكم خبرها. ولذلك فإنه يستحق من عرشكم الجزاء». أوردها عبد الرحمن آبن زيدان في كتابه الشهير، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، 1931، الرباط، الجزء الثالث، ص. 526.

(5) أحمد بن محمد الكردودي، **التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية** (سبقت الإشارة إليه)، ص. 19.

بالوصف : وصف المشاهدات وصفاً لا يقوم على الانفعال والعجب السلبي، ولكنه وصف قوامه التدقيق والتوثيق. يحدثك الصفار عن الطريق التي قطعها من مارسيليا إلى باريز، فيذكر لك أن السفر عند الفرنسيين يكون في «الأكداش» لا على ظهور الدواب كما هو مألوف في بلده، ويذكر لك أن «الكدش» (= العربة) مريح، وأن الطرق معبدة، والعناية بها مستمرة، وأن في الطريق محطات للأكل والراحة مع توافر الأمن فلا حاجة إلى السلاح، ثم يأتي تعليقه إيجابا كله : «رأينا في طريقنا هذا ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دنياهم»[6]. ثم يفرد للكلام عن «بابور النار» و«طريق الحديد» صفحات عديدة يبسط القول فيها في القطار وسيره ووقوفه، وفي المحطات التي يمر بها بعد أن أقله القطار إلى باريز وقد أصبح المسافرون على بعد تسعين ميلا منها.

ويجتهد العمراوي في الحديث الواصف للقطار (وقد سافر فيه مباشرة من مرسيليا إلى باريز) : يصف القاطرة وآلية حركتها وتحريكها بالسحب لمجموع العربات؛ ثم يصف العربة أو «البيت» ومقاعده، والنوافذ أو «الطاق» التي يرى الأشياء كلها تنتقل منها مسرعة فلا يكاد يتبينها؛ ويصف الأبنية والقناطر وصفا دقيقا. ثم إنه لا يكتفي بالوصف وحده، بل يعمد إلى المقارنة بين البيوت وأنماط بنائها في فرنسا وبين ما يعرفه من بناء الدور والمنازل في المغرب. ويصف الصفار نظام الغرف ويتحدث، في تفصيل، عن آداب المائدة وأنواع الأطباق والأطعمة وترتيبها في الأكل، كما يذكر العمراوي ما يراه من كيفيات الولائم وتنظيمها...

لكن القارئ لا يجد شيئا أكثر دلالة على «إرادته المعرفة» في الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر من غياب حديث إطراء الذات، ومن الحديث عن صور الاحتفال بالسفير والاحتفاء به. لقد اختفى، كلية، ذلك الخطاب الذي عهدناه في كتابة المكناسي وما وجدنا عنده فيه نوعا من الهوس بالحديث عن الذات. يتحدث العمراوي، كما يتحدث الصفار قبله، عن صور الاستقبال والعناية التي كان الوفد المغربي يقابل بها، لكن بونا شاسعا يقوم بين حديث الرجلين وبين ما كان ابن عثمان يغرق فيه من إطناب في القول يصل بقارئه إلى حد الملل. قد يعلل البعض ذلك

---

(6) محمد بن عبد الله الصفار، **الرحلة**، مخطوط في الخزانة الحسنية (الرباط)، (سبقت الإشارة إليه)، الورقة رقم 29.

بوجود الفرق بين ما كانت عليه إسبانيا ومدنها في نهاية القرن الثامن عشر وما كانت عليه مدينة باريز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولا شك أن هذا التعليل لا يخلو من الصحة، ولكنه ليس كافيا مع ذلك. هو كذلك، لأنه يكاد يخطئ الأساسي والأهم : ذلك هو حصول التغير في حال المسافر وفي نظرته إلى الأشياء، تغير واضح وحاسم بين ما كان المكناسي «يراه» وبين ما أصبحت أعين الفاسي والعمراوي والصفار والجعايدي «تبصره».

يعجب القارئ، أحيانا، من قوة الحس التوثيقي عند الصفار ويجد في كتابته الحضور القوي للفقيه «العدل» المتمرس بتحرير العقود وإثبات أقوال الشهود، ويتحدث مُضيفوه عن ميله الشديد إلى التدقيق في كل ما يشاهده قبل إثباته في كناشته كتابة(7) ؛ كما قد يعجب من دقة المقارنات التي يعقدها العمراوي بين «ما عندهم وما عندنا»؛ ويعجب بما يلمسه من وصف دقيق للمشاهدات في رحلة الطاهر الفاسي الصغيرة الحجم. وكل هذه الأمور الداعية للعجب والحاملة على الإعجاب، ما تفتأ تشي ـ بكيفيات وألوان شتى ـ بهذه الرغبة الجارفة في الاكتشاف وتعبر عن هذا المنحى القوي نحو «إرادة المعرفة».

2. العجيب والغريب

لا تخلو الرحلة، مطلق الرحلة، من حديث عن العجيب والغريب ؛ ولا يخلو كلام الرحالة من الإعلان عن النية في الالتزام بالإخبار عنهما. والحق أن الأمر يتعلق، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الأول، بإبرام عقد ضمني يلزم الرحالة ـ الكاتب نفسه به أمام قارئه، عقد مؤداه الالتزام بالإخبار والإفادة، إخبار وإفادة رائدهما «الإمتاع والمؤانسة». ولعل الفرق بين رحلة وأخرى، بين زمان وآخر يقوم في مضامين الغريب والعجيب وفي دلالة الإفادة وفهم فائدة التحدث والإخبار. وفي «الرحلة الأوروبية»، في القرن التاسع عشر، مراعاة لهذه الشروط الضمنية، بل والصريحة. فهذا محمد بن عبد الله الصفار يكتب في مقدمة رحلته الباريسية :

---

(7) أنظر ملاحظات الباحثة الأمريكية :

Susan Gilson Miller, **Travels of a Moroccan Scholar in 1845-1846**, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, Oxford (1992).

«عزمت إذ ذاك بحول الله أن أسود هذه الأوراق بما نراه ونسمعه في هذه السفرة وما يتعلق بها مما رقّ أو راق. على أني حاطب ليل وساحب ذيل (...) إلا أنني جعلتها تذكرة لنفسي، لأخبر بذلك من سألني من أبناء جنسي». وهذا صاحب «**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**» يخبرنا أنه، إذ رجع من سفره : «وعلق بذهني بعض ما رأيت من عجائب تلك الجهة ظهر إليَّ أن أقيد في هذه الرسالة، اقتداء بمن تقدّمني من أولي النباهة والجلالة...»[8]. فأما المتعة المحض، فلم يعد لها من المكان ما كان يرومه ابن بطوطة مثلا. أما الحافز الفعلي، فهو ما أسلفنا القول فيه من «إرادة المعرفة». وإذن، فالسؤال العملي يغدو، عند قارئ ما دونه الرحالون المغاربة صوب دول أوروبا الغربية في القرن الماضي، هو معرفة «العجيب والغريب» المثير للدهشة والباعث على التسجيل و«التقييد» بطبيعة الأمر، كما أنه يكمن في الانتباه إلى الكيفية التي كان الحديث يتم بها.

لا شك في أن أكثر ما كان يدعو إلى العجيب ويستدعي الغرابة في مشاهدات مسافرينا المغاربة ومدوناتهم هو ما يرجع إلى التقنيات والاختراعات الحديثة، تلك التي رأى البعض منهم أنها تشبه أمور السحر والشعوذة «سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك»[9]. وأول ما يشاهد المسافر الخارج من أرض المغرب هو ما يراه «فجأة» في الباخرة كما هو الشأن في «البارومتر» مثلا : «فترى الواحد يخبرك بالتغير قبل ظهوره ويقول لك : غدا ينزل المطر مثلا، فينزل في الغد». فهو لا يملك إلا التصديق بما يراه عيانا ومشاهدة ولا يجد إلا أن يضيف إلى ما ذكره : «وقد شاهدت ذلك، قدرة الله صالحة لذلك»[10]. ثم تأتي الدهشة، ثانيا، من مشاهدة «وابور النار» والسفر فيه ومن مشاهدة القاطر وغليان المرجل : «ومنها محل أخبار السلك المسمى عندهم بطل إغراف، ومعناه بالعربية المستعجل للأخبار (...) وهذه الآلة مما يذهل ذهن العاقل ويستريب فيه السامع والعاقل»[11]. وتأتي، ثالثا، من مشاهدة عمل المطبعة : «بسرعة عملها تخرج في ساعة واحدة خمسين

---

(8) العمراوي، **تحفة الملك العزيز...**، ص. 5.

(9) محمد الطاهر الفاسي، **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**، تحقيق وتعليق محمد الفاسي... (سبقت الإشارة إليه)، ص. 19.

(10) الفاسي، **الرحلة الإبريزية...**، ص. 6.

(11) العمراوي، **تحفة الملك العزيز...**، ص. 59–62. يستغرق وصف القطار في رحلة العمراوي أزيد من ثلاث صفحات.

ألف ورقة»[12]، وتأتي رابعا وخامسا وسادسا من مشاهدات التقنيات والصناعات المتطورة، المغايرة لما ألف الرحالة مشاهدته في بلاده أو في غير بلاده من دول الإسلام، كما هو الشأن في القاهرة مثلا[13].

كانت التجارة وتنظيمها مما استدعى استغراب رحالينا المغاربة إلى أوروبا في القرن الماضي، وقارئ العمراوي والصفار يجد الكثير مما أثار الدهشة وحمل على التدوين والتسجيل. والغريب، في مشاهدة العمراوي، أن التجارة علم له قواعد مضبوطة لابد من معرفتها : «بلغنا أن لهم دارا يتعلمون فيها كيفية التجارة كما يتعلمون الكتابة والحساب وغير ذلك»[14]. ثم الغريب أن للتجارة وزيراً مخصوصاً عمله بها : «رفعوا أمرهم فيه لوزير التجارة، وهو وزير مستقل». والأمر كذلك، لأن «اعتناء دولتهم بأمور التجارة كبير (...) فكلما صلحت تجارتهم كثر الداخل على خزنتهم». والعجيب أن التجار ينظمون أمورهم على نحو يمكنهم من الإحاطة بشؤون التجارة والمال : «لهم دار يجتمع فيها التجار ساعة في كل يوم يتعاطون فيها أخبار السلع النافذة والكاسدة وأخبار السكك وكيفية رَوَجانها في البلدان». ثم إن وجود دار للتجارة لا يكفي في إشباع نهمهم إلى التجارة وترويج البضائع والسلع، بل إن «مما يستعينون به على أمور التجارة وغيرها الأوراقُ اليوميَّةُ التي يسمونها الكازيطات، ويسمونها أيضا الجرنالات»[15]. بل إنك تجد التاجر يتجه إلى التعاون والتآزر مع غريمه من أجل إحداث «جمعية تسمى الكنبنية، وهي أن جماعة من التجار أو غيرهم يجتمعون ويخرج كل واحد ما استطاع من المال ويشتركون في آستخراج المعادن وتصويب الطرق وبناء القناطر وعمل القوارب والفلائك في الأنهار والأودية..»[16]. والأغرب من ذلك كله أنهم لا يقنعون بكل أساليب الاحتيال على الربح وتوسيع أسبابه بتنويع أنواع

---

(12) العمراوي، **تحفة الملك العزيز...**، ص. 54.

(13) لا يخلو حديث العمراوي عن باريز ومشاهداته فيها من المقاربة بما سبقت له رؤيته في القاهرة : «وقد رأيت مصر القاهرة وسلكت أكثر طرقها ونظرت إليها من مكان عال في وسطها يستوعب النظر منه جلها، فقدرت أنها أكبر من مدينة فاس بأربع مرات. وأظن أن هذه أكبر من مصر بثلاث مرات، فتأتي على هذه أنها أكبر من فاس باثنتي عشر مرة» (**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز...**، ص. 28–29).

(14) **المرجع السابق**، ص. 72. ويكتب الصفار : «وعلم التجارة عندهم من جملة العلوم التي تدرس»، (الورقة رقم 83 من مخطوط رحلته).

(15) العمراوي، **تحفة الملك العزيز...**، ص. 75.

(16) الصفار، **مخطوط الرحلة...**، الورقة 92.

التجارة وفنونها ؛ بل إنهم يسلكون في الحيطة سبلا عجيبة، لأن «الفَلَس عندهم من المصائب العظيمة» كما يلاحظ ذلك العمراوي. أحد تلك السبل هو «البنكة» (= البنك)، «وهي أن يودع الرجل قدرا من المال عند من هو متصد لذلك، ويدفع له المودع عنده ربحه في كل سنة قدرا معلوما عندهم». وثاني تلك السبل «جمعية تسمى بما معناه الشركاء في الضمانة وهي المعروفة بالسكورو، وذلك بأن تلزم لمن يدفع لها قدرا معينا من المال كل سنة أنه إذا تلف له بيته أو حانوته أو ما فيها بحادثة قهرية كالحرق والهدم ونحو ذلك أو غرق له مركب في البحر أو أصابته جائحة، فإنها تغرم له كل ما ضاع له»[17].

تختلف اللغة، أحيانا، بين الصفار والعمراوي في الحديث عن مقتضيات العجب ومثارات الاستغراب، ويختلف المسار بينهما (فقد قصد كل منهما باريس) وبين الطاهر الفاسي (وقد زار بريطانيا في الصيف الذي توجه فيه صاحب «**تحفة الملك العزيز**» إلى فرنسا) ؛ ولكن الالتقاء بين الثلاثة يأتي كاملا حين الحديث عن النظام والترتيب في البلاد المشاهدة. يوجز الطاهر الفاسي آنطباعه فيقول عن الديار الإنجليزية، فيما كان يصف آستعراض الجيش أمام الملكة : «ورأينا ترتيبا عجيبا وأسلوبا غريبا»[18]. ولا يرى الصفار سببا لانتصار جيوشهم في المعارك إلا «نظامهم العجيب وضبطهم الغريب وآتباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم»[19]. ويستغرب العمراوي من «كثرة الأكداش»، ولكنه ينتبه إلى أن أهل باريز «يقسمون طريقهم على ثلاث قسمات منخفضة شيئا ما تمشي فيه الأكداش والكراريس والراكبون على الخيل (...) حتى لا يقع ازدحام ولا مصادمة، ولولا ذلك الترتيب لما قدروا على السلوك في بعض المواضع الضيقة»[20]. كما يأتي الالتقاء، إجماعا تاما، في حديث الرحالين المغاربة عن النظافة والعناية الكاملة بكل ما يلزم في ذلك. يسجل العمراوي، في حال حمله ــ ولا شك ــ على التعجب والاستغراب أن أهل باريز «في كل يوم يكنسون تلك الشوارع ويرشونها بالماء بآلات أعدوها لذلك»[21]. ويتحدث إدريس

---

(17) **المرجع السابق**، الورقة 82.

(18) الطاهر الفاسي، **الرحلة الإبريزية**...، ص. 15.

(19) الصفار، الورقة 116.

(20) العمراوي، **تحفة الملك العزيز**...، ص. 34.

(21) **نفس المرجع والصفحة**.

الجعايدي عن مشاهداته في بروكسيل، فيكتب هن أهل البلد أنه وجدهم «مشتغلين بكنس الطرق والرش أيضا»[22]. ويستغرب الجعايدي من ملاحظة أتت، فيما يبدو، من أحد مرافقيه : «وقيل لي ذات يوم إن الذباب لا يوجد في مدينة باريز، فقلت له : وهل يتركون له شيئا من القاذورات التي ينزل عليها ؟»[23].

مثارات العجب، الحاملة على الدهشة والاستغراب، والقادرة على التدليل على الطريق إلى معرفة الآخر وآكتشاف ما عنده من أسباب القوة والمنعة تدور جميعها ــ في نهاية القول ــ حول : النظافة، والترتيب، والاحتفال بالتجارة والاحتيال بالمعرفة في ممارستها؛ كما أنها ترجع، بطبيعة الحال، إلى ما كان من الاختراعات لا يحسبه المرء «إلا من طريق السحريات» كما يقول العمراوي[24]. ولكن كبير الأسباب، في الكشف عن القوة والمنعة، هو العلم : «والعالم عندهم هو من له قدرة على آستكشاف الأمور الدقيقة، وآستنباط فوائد جديدة، وإقامة الحجج السالمة من الطعن على ما أبداه ورد ما عارضه به من عداه»[25].

3. فضــاء الفـرجــة

شاهد أصحاب «الرحلة الأوروبية»، في القرن التاسع عشر، من أنواع الغرائب وأشكال العجائب ما جعل كل الأمكنة التي تنقلوا فيها فضاء واسعا للفرجة. لم تعد إقامة كل من الصفار والعمراوي في باريس أسابيع قليلة معدودة، ولم تزد مدة سفر الطاهر الفاسي على السبعين يوما (منذ خروجه من ميناء طنجة إلى حين عودته إليها من بريطانيا) ؛ ولكن الرحلة سواء أكانت صوب «الديار الإنجليزية» أم إلى «مملكة باريز»، مجال فسيح وفضاء رحب للتنقل والمشاهدة مع الدهشة والغرابة. ولكن أعين الرحالة المغربي لم تكن، على العموم، تستلذ مشاهد الفرجة الحق، تلك التي تحصل معها لذة الإبصار والسمع ولا يطلب فيها من المشاهدة إلا جوانب الإمتاع، أو لنقل ــ في سعي نحو التدقيق في القول ــ إنه كانت للمسافر المغربي إلى البلاد

(22) إدريس الجعايدي، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، مخطوط سبقت الإشارة إليه، ص. 222.

(23) الجعايدي، **إتحاف الأخيار...**، ص. 215.

(24) العمراوي، **تحفة الملك العزيز...**، ص. 62.

(25) **رحلة الصفار**، الورقة 137.

الأوروبية ضوابطه في المشاهدة، ومعاييره في التلذذ والتذوق الجمالي ؛ وكانت له، على وجه الخصوص، موجهاته ودوافعه في الانتقاء والاختيار.

ولا يبدو أن المسرح قد وقع من نفس الرحالة المغربي موقع الاستحسان أو أنه أثار عنده شهوة النظر ولذة المشاهدة. يذكر سفير الملك الحسن الأول أنه كان يقصد المسرح بدافع المجاملة واللياقة ليس غير: «وفي بعض الليالي السالفة لنا في باريز كان كبراء الدولة يتخذون لنا المواضع الخاصة المنتخبة بديار الفرجات عندهم، المسماة عندهم بديار الطياطرو؛ ويرون ذلك من وجوه المبرات بنا والإكرام لنا، فكنا نتوجه إليها مساعدة»[26]. ولا يجد صاحب «**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**» من نفسه رغبة لمشاهدة مسرحية أو حضور سهرة أوبرا ولا سماع غنائها : «وقد عرضوا علينا الذهاب لبعض الكمديات. فاعتذرنا، في واحدة فيها الغناء والرقص، بأن الغناء لا نفهمه وما لا نفهمه يثقل علينا سماعه، وبأنه يحرم في ديننا النظر إلى النساء التي يرقصن. وفي أخرى فيها المحاجات (= الحكايات) والأسئلة والأجوبة بأنها بغير لغتنا، فلا فائدة في حضورنا فيها»[27] بل إنه لا يخفي آستخفافه بها ولا يلطف من آحتقاره للمسرح وما يشاهده الناس فيه من «حكايات الأخبار» إلا ما يجده عند فقيه مسلم من التنبيه على فائدة المسرح : «وكنت أضحك من ذلك وأعده من جملة المزاح الذي لا يعبأ به ولا يؤبه له، وأنه ليس من الجد في شيء، حتى وقفت على كلام الشيخ رفاعة المصري في رحلته : حاصله أنها أمور جدية في صفة الهزل» [28]. وحين يلاحظ القارئ أن محمد الصفار قد توسع في رحلته في الإخبار عن «التياترو»، ويجد أنه يسهب في وصف السهرة المسرحية وفي الحديث عن الخشبة والديكور والملابس وعن الإعلان في الجرائد عن المسرحية ـ لا يجد ذلك القارئ أن الصفار يزيد في تعليقه على القول تارة إن «عندهم لذة تلك المحاورات والمناشدات أحسن من رؤية التصوير والأعاجيب»[29]، والقول تارة أخرى : «ويزعمون أن في ذلك تأديبا للنفوس وتهذيبا للأخلاق وراحة للقلب والبدن، ليعود إلى شغله بنشاط وقريحة» [30]. أما ما

---

(26) الجعايدي، **إتحاف الأخيار**...، ص. 208.

(27) العمراوي، **تحفة الملك العزيز**...، ص. 67.

(28) العمراوي، **تحفة الملك**...، ص. 65ـ66.

(29) **رحلة الصفار**، الورقتان 72ـ73.

(30) **المرجع السابق**، الورقتان 75ـ76.

يجده هو ذاته من شعور الإقبال أو الإعراض من مشاهدة فرجة المسرحية، فهو مما يحتمل تأويلا وغيره في الصفحات الكثيرة التي يستغرقها وصفه التوثيقي الدقيق.

لا يزيد الصفار شيئا على الوصف الدقيق في حديثه عن المنتزهات العامة في باريز، وفي تسجيل مشاهداته لما كان يراه ـ في الغالب الأعم، للمرة الأولى ـ من الحيوانات بأنواعها المختلفة، وبالتالي فإن القارئ لا يعثر عنده على شيء مما يفيده في معرفة رأي المسافر المغربي وحكمه على ولوع الفرنسي بالحدائق والمنتزهات واهتمامه باستجلاب الحيوانات وتخصيص حديقة لها. لكن الشأن شأن آخر عند العمراوي، ذلك أن له قولا صريحا فيما رآه في حدائق فيرساي، وقولا لا يقل صراحة ووضوحا عما شاهده في حديقة الحيوان. فأما عن فرساي، فهو يكتب : «وهم يقصدون هذا المحل في ذلك اليوم (= الأحد) لأنه يوم بطالة، مع عدم إعجابنا بشيء من ذلك، لأن الماء ببلادنا أكثر، واللعب به إنما هو من المزاح الذي لا طائل تحته» [31]. بل إنه يردد عدة مرات ذكر الندم والتعب : «فكان عندنا ذلك اليوم يوم تعب ومثلة، لا يوم فرجة. وقد ندمنا على مساعدتهم في الذهاب إليه». وأما عن حديقة الحيوان، فهو لا يخفي عجبه : «من كثرة ما يصرف على جلب هذه الحيوانات (...) مع ما هم عليه من البخل والاحتياط في الدفع»، بل إنه لا يستنكف من التشنيع على المنشغلين بها : «وأي فائدة أو عادة أو فخر في جمع الكلاب والخنازير والقردة والذئاب والحشرات ؟ وأي طائل تحت آدخار جيف منتنة لا تصلح لصالحة ؟» [32].

لا يستلذ المسافر من الفرجة إلا ما كان كفيلا بتحقيق إشباع جمالي، قوامه ما يقره «العماد الثقافي»، وما لم يكن يرى فيه «خدشا لمروءته» : من ذلك آمتناعه عن الذهاب إلى «محل آخر ذكروا لنا أن فيه أجسادا من أجساد الآدميين مشرحة يتعلم فيها الأطباء علم التشريح، تنزهنا عن رؤيتها فلم نذهب إليها» [33]. ومن ذلك آعتذاره حينا عن زيارة السيرك أو آعتذاره عن الحديث عنه، ربما آعتبارا منه أن في ذلك الحديث ما يشوب جديته في الكلام، أو يسيء إلى جدية ما يخبر عنه كما نلمس ذلك عند الجعايدي مثلا، ومنه مقاومته الرغبة في الاعتراف بما حصل له في المشاهدة من

---

(31) العمراوي، **تحفة الملك...**، ص. 64.

(32) العمراوي، **تحفة الملك...**، ص. 46.

(33) **المرجع السابق**، ص. 45.

متعة ولذة واكتفاؤه بتعقيب بسيط على وصف الألعاب البهلوانية : «ومرة يقدم رجليه، ومرة يقبض الحبل بيديه، ومرة يقبضه برجليه (...) ولم أر في تلك اللعبات أعجب من هذا وهو من المخاطرة بالنفس»(34). وبالتالي، فإن المسافر ـ المتفرج لا يجد من نفسه آستجابة بالقبول والانشراح إلا ما كان خاضعا لمعايير في الذوق والجمال يحملها معه فهي لا تفارقه، مثلما يكون حاملا معه لقيمه الأخرى في الاجتماع وفي تحديد معاني الغريب والمألوف. وفي ذلك كله تظل موجهات الرحلة وأهدافها المعلنة والخفية عاملا حاسما في الانتقاء والاختيار. لذلك فقد آستلذ الرحالة المغربي مشاهدة الاختراعات والصنائع، وأشاح بوجهه عن رؤية المسرح والمنتزهات وحديقة الحيوان؛ ولذلك كانت مشاهدة الجنود وحفلاتهم الاستعراضية جزءاً من الفرجة المحمودة أو المطلوبة فكانت وقفة «الرحلة الأوروبية» عندها وقفة إجبارية.

4. فرجـة الجيـش

تمتزج المشاعر كلها عند الرحالة المغربي وتضطرب فيما بينها حين مشاهدة «فرجة العسكر» : مشاعر الحزن والفرح، المتعة والألم، الدهشة والفهم... ذلك أن تلك المشاهد تنقل المسافر، دفعة واحدة، إلى حيث يستحضر هزيمته في مقابل انتصار الغير وتجعله يقف على أسباب التقدم مجتمعة حيث النظام، والنظافة، والعلوم، والعدل. ونحن قراء «الرحلة الأوروبية» لا نجد من الأمور شيئا أكثر طبيعية من ذلك الأمر، أمر تلك المشاعر المضطربة المتناقضة. فنحن نعلم أن أول آتصال للعربي، جملة، بـ«المدنيَّة الحديثة» (أي اكتشاف «الآخر» قويا منتصرا، متقدما في العلوم والفنون) كان آتصالا عن طريق الغزو وحضور الجيش بعدته ونظامه : ذاك ما يعبر عنه الجبرتي بوضوح كبير، وذلك ما نجد أصداء له بعد ذلك عند الطهطاوي في رحلته الباريسية. ونحن نحسب أن إشارتنا إلى معركة إيسلي وآكتشاف «غياب الجيش» بحسبانه، في الوقت ذاته، مؤسسة قارة ونظاما دقيقا صارما، نحسب أن تلك الإشارة تفي في توضيح ما نرومه من معنى. ولسنا في حاجة إلى التذكير، مرة ثانية، بما تحدثنا عنه في بداية هذا الفصل من الصلة بين سفارات أصحاب الرحلات التي نحن بصدد قراءتها وبين ما عرفه المغرب من هزيمة عسكرية قريبة. وأخيرا، فإنه ليس لنا أن نغفل أن كلا

---

(34) المرجع السابق، ص. 69.

من الصفار والعمراوي والفاسي (ثم الجعايدي بعد ذلك) كانوا من رجال «المخزن»، المطلعين على شؤون الدولة، وأن الثلاثة الأول كانوا شهودا على واقعة إيسلي من جهة أولى وعلى حرب تطوان من جهة ثانية ـ كما أن الأخير كان على بينة من رغبة الحسن الأول في إحداث إصلاحات هيكلية في مجال الجندية والتجهيز العسكري. وإذن، فإن «اكتشاف» الجيش الحديث، قصد الإخبار عنه، كان ـ ولا شك ـ داخلا في إعداد «الرحلة السفارية»، وبالتالي فإن القارئ يتوافر على كافة العناصر والمعطيات التي تمكنه من التقدير الكامل لكل المشاعر الملتهبة المتناقضة، التي كانت تتصارع في نفوس الصفار والعمراوي والفاسي والجعايدي.

لا يخلو موقف الصفار من «حساسية شديدة» في تأويل «الفرجة» التي نظمها الملك الفرنسي لوفد السفارة المغربية : «أمر لنا السلطان بسرد العساكر وآستدعانا للفرجة فيها مبالغة في إكرامنا والاعتناء بنا **ظاهرا**، لأنه لا يفعل ذلك إلا لمن هو عنده في حظوة، وزيادة في تبكيتنا والتنكيت علينا **باطنا**»[35]. هذا الشعور بالفرجة «الملغومة» قد أفسد على الصفار، فيما نقدِّر، متعة المشاهدة ولذة النظر إلى دقة النظام وروعته، ولكنه لم يحل بينه وبين تسخير حسه التوثيقي الحاد في الوصف والتدوين كما لا يملك القارئ إلا أن يرى ذلك ويعجب به. لكن غليان الباطن واضطراب المشاعر حين الوقوف على مظاهر قوة «الآخر»، مع تَمام المعرفة بأسباب ضعف «الذات» أكسب حديثه نبرة الأسى العميق. فهو لا يملك إلا أن يكتب، متذكرا نهاية الاستعراض وانتهاء الفرجة : «مضوا وتركوا قلوبنا تشتعل نارا لما رأينا من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم ووضعهم كل شيء في محله، مع ضعف الإسلام وآنحلال قوته واختلال أمر أهله. فما أحزمهم وما أشد آستعدادهم ! وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم ! وما أقدرهم على الحروب وما أقواهم على عدوهم ! لا بقلوب، ولا بشجاعة، ولا بغيرة دين ؛ إنما ذلك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب»[36].

لكن النظام العجيب والضبط الغريب لا يكفيان وحدهما في آمتلاك جيش عتيد، بل لا بد لذلك من شرط ضروري أكيد هو العدل وتطبيق القانون دون محاباة ولا تمييز بين الناس في ذلك : «إن صدرت من واحد منهم زلة أجروا عليه شريعتها،

---

(35) **رحلة الصفار**، الورقة 112. والتشديد منا.

(36) **المرجع السابق**، الورقة 116.

سواء كان رفيعاً أو وضيعاً. وإن ظهرت لأحد منهم مزية أرقوه درجتها، لا يطمع أحد منهم في غير ما هو له، ولا يخاف على ما في يده أن ينزع منه»[37]. هذه الملاحظة التي يبديها الصفار يأتي العمراوي، بعد خمسة عشر عاما، ليؤكدها ويشرحها بكيفية أخرى : «ويدركون المراتب عندهم بالمزايا : فمن ظهرت له مزية وهو عسكري استحق بها أن يكون مقدما، وإن كان مقدما آستحق أن يكون قائد مائة (...) ولا ترى أحداً منهم يدرك التقدم بغير المزية. ولا يخطر في خاطر أحد من الرؤساء أن يقدم أحدا في العسكر لكونه صديقه أو قريبه»[38]. لذلك لا يكون من الغريب أنهم «يبذلون مهجهم في المعارك ويلقون أنفسهم في المهالك»، كما يعلق الصفار على ما يعرفه من فعاليتهم في المعارك ودقتهم في الحروب[39]. كما أنه لا يكون من المدهش عند العمراوي «أن العسكر عندهم مثل الآلة في يد الصانع يفعل بها ما شاء، لا تخرج الكلمة من فيه حتى تمتثل. ولو أمرهم بقتل أنفسهم، لفعلوا»[40].

على أن «السفير المغربي» لا يغفل عن تنبيه قارئيه إلى أن النظام والعدل لا يؤتيان الثمرة المرجوة منهما في إعداد الجيش القوي الفعال، إلا متى تم ذلك بتوسط العلم والمعرفة : «وتعليم ذلك عندهم بالقراءة : فأولاد الرؤساء والكبراء يدفعون للمحل الذي يتعلمون فيه ما يتعلق بقواد المئين (...)، هناك يقرؤون الأحكام اللازمة للعسكر من لزوم الطاعة وامتثال ما يأمره به كبيره، ومن خالف يكون له كذا، ومن قتل يكون له كذا (...) فلا يخرج من تلك المدرسة حتى يكون عارفا بجميع الملازم والأحكام المرتبة على الجرائم»[41].

لا شيء في «الرحلة الأوروبية» يشعر الرحالة بحال «التأخر» التي ينتمي إليها، في مقابل واقع «التقدم» أكثر مما تشعر بها «فرجة العسكر». ذلك أنها تحمله على الإقرار بأن القوم في البلاد المشاهدة ـ «مع كفرهم وآنمحاء نور الإيمان من قلوبهم» ـ قد بلغوا من التفوق ما لا يجد معه إلا أن يقول : «وما راء كمن سمعا» ؛ ثم لا يملك إلا أن يتنهد في غصة وأسى : «اللهم أعد للإسلام عزته وجدد للدين

(37) نفس المرجع والورقة.
(38) العمراوي، تحفة الملك العزيز...، ص. 100.
(39) رحلة الصفار، الورقة 116.
(40) العمراوي، تحفة الملك...، ص. 100.
(41) العمراوي، تحفة الملك...، ص. 100.

نصرته بجاه النبي ﷺ»[42]، ولا يسعفه من التعليق على مشهد الاستعراض العسكري والمناورة الحربية المذهلة إلا أن يَدْعُوَ عليهم، تخفيفا من لوعته : «فمضت الملكة ومضينا لحال سبيلنا. والله يهلك القوم الكافرين وينصرنا عليهم آمين»[43].

5. صـــورة الآخـــر

في الفقرات المتقدمة تبينا المكونات الفاعلة في رسم صورة الآخر على نحو ما تظهر عليه في متن «الرحلة الأوروبية» في القرن التاسع عشر. ويتعين علينا أن نحاول آستكمال تلك الصورة بتجميع وتكثيف العناصر المكملة في إجلائها. وبعبارة أخرى نقول : إذا كانت الصفحات السابقة قد مكنتنا ـ فيما نأمل ـ من الوقوف على الشكل والحجم في صورة الآخر في كتابات الصفار والعمراوي والفاسي والجعايدي، فإن علينا أن نبحث الآن في ما يكون كفيلا بإكساب الصورة ما هي في حاجة إليه من اللون والضوء حتى تنجلي ملامحها وتظهر سماتها وعلاماتها المميزة.

الحق أن في الحضور القوي للحسّ التوثيقي عند أصحاب «الرحلة الأوروبية» في القرن الماضي، وميلهم الكثير إلى عقد المقارنات بين «ما عندهم وما عندنا» في الحديث عن العديد من صور الحياة اليومية، وأن في دقة ملاحظاتهم ما يسعفنا بإكساب ما نرى أن الصورة في حاجة إليه حتى الآن. كذلك يجد القارئ أن الملامح تغدو أكثر دقة ووضوحا في التعليقات الواضحة على المشاهدات في جزئياتها وتفاصيلها : فشتان بين ما كنا نجده عند المكناسي من ميل إلى التعميم والإيجاز وبين ما نقف عليه من آعتناء بالتفاصيل وآحتفال بالشروح والتوضيحات عند الصفار وأترابه من اللاحقين به. ومن ثم، فإن القارئ لا يجد مشقة كثيرة في آستجلاء الصورة بألوانها وأبعادها الكاملة.

ينتبه الصفار إلى شكل البناء، بناء الدور والمتاجر، فيأتي حديثه مقارنات مستمرة تقرب القارئ مما شاهده صاحب الرحلة في المدن الفرنسية : «وأما أشكال دورهم، فإنها مخالفة لشكلنا : فإن دورهم ليست بالساحة والفوقي والسفلي والبيوت والغرف كما عندنا، فإنهم يتركون ساحة الدار خارجة عنها مرفقا لوقوف نحو الكراريص

---

(42) **رحلة الصفار**،الورقة 116.

(43) الطاهر الفاسي، **الرحلة الإبريزية**...، ص. 17.

والدواب»[44]. ويذكر، في مكان آخر، أن الطابق الأرضي (أو السفلي كما يقول) يكون مخصصا للحياة الجماعية، في حين أن العلوي يشتمل على غرف النوم والمكاتب وما إلى ذلك. وتذكرنا ملاحظة الصفار: «يتركون ساحة الدار خارجة عنها» بما دونه رجال السوسيولوجيا الفرنسية عن شكل بناء الدور في المغرب، حين لاحظوا أن الفناء أو ساحة المنزل توجد في وسط المنزل وأن الغرف مفتوحة على الساحة الداخلية مشكلة بذلك «فضاء» اجتماعيا وعائليا يتلاءم مع تقاليد الاحتجاب واعتبار البيوت «عورة»، مؤكدة بذلك أن شكل البناء وتصور المنزل يعبر عن نظرة للحياة والوجود يعكس نمطا من العلاقات العائلية والاجتماعية. وبهذا الاعتبار، فإن ملاحظة الصفار الأخرى أن الغرف «لها طاقات كبار منها تضيء، تشرف على الأسواق والشوارع أو على محل فضاء» لا تقل إفادة في الإخبار عن نمط العيش وتصور الوجود. كذلك يجد قارئ «**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**» ما يجلي الصورة في توضيح آخر «مخازن يجعلونها تحت الأرض بقدر وسع الدار فيها يكون المطبخ ومحل خزن الحطب والفحم وغير ذلك من الأمور الخشنة» وفي آخر عندما يسجل أن النوافذ «التي في البيوت أطول من القامة، لها أبواب من عود وأخرى من زجاج يغلقونها ويفتحون أبواب العود فتدخل الضوء وتمنع البرد، لأن أكثر زمانهم بارد»[45]. فالوصف، كما نلاحظ، يقترن بالمقارنة من جهة وبالتفسير والتبرير من جهة أخرى.

لا تعوز الصفار دقة الملاحظة والتوضيح، عن طريق المقارنة، حين يأتي إلى ذكر المتاجر والدكاكين : فهو يذكر أولا أن المتاجر غالبا ما تكون في الدور الأرضي «موالية للأرض» والمساكن تكون فوقها، وأنها «ليست مرتفعة عن الأرض كحوانتينا»؛ ويذكر ثانيا أنها «على شكل واحد في زخرفتها وأبوابها وزجاجاتها فما يباع فيها الحرير والجوهر بمنزلة التي تبيع البقول والخضر»؛ ويذكر ثالثا أن الدكاكين «في النظافة سواء، فلا يوجد في حانوت اللحم دم ولا عظم ولا رائحة كريهة»؛ وينبه القارئ رابعا إلى أنه «لا اختصاص لسوق منها بشيء معين : فتجد حانوت اللحم والسمك مجاورة لحانوت البز والجواهر ونفيس السلع»[46].

لا يغفل الرحالة المغربي، في القرن التاسع عشر، عن تدوين ما يتذوقه أو يصله

(44) **رحلة الصفار**، الورقة رقم 64.

(45) العمراوي، **تحفة الملك العزيز...**، ص. 29–30.

(46) **رحلة الصفار**، الورقة 62.

من أنواع الأطعمة والأشربة وما يراه من «أدب المائدة» وأنماط السلوك المتعلقة بها. وإذا كانت الأبحاث الأنثربولوجية العديدة التي أجراها العالم الإثنولوجي الفرنسي كلود ليفي ـ ستروس تكشف عن السر القائم بين الثقافة والمطبخ، وتعلمنا أن التعرف على شعب معين وثقافة معلومة يمر، بالضرورة، عبر معرفة أطعمة ذلك الشعب والإطلاع على «آداب المائدة» في تلك الثقافة، فإن الصفار والعمراوي يبذلان في طريق تلك المعرفة جهودا طيبة لطيفة. وحيث إن «الغريب والعجيب» يظل رائد الرحالة في تسجيل ما يراه (فالمألوف لديه لا يثير فضوله ولا يستدعي عنده حاجة إلى التدوين)، فإنه يسهم في تعيين ملمح أو توضيح سمة من سمات صورة الغير المختلف ـ لأنه مخالف. كذلك يعجب العمراوي من طريق تنظيم الولائم ومن سلوك المدعوين فيها : «إذا كانت وليمة، واستدعي الناس، جعل أمام كل واحد زماما فيه جميع ما أعد لهم من المآكل والحلويات وغير ذلك والخادم يعرض الآنية على كل واحد : فمن اشتهى شيئا أكله، ومن لم يشتهه رده على الخادم وقال : «مرسي» ـ وهي بمعنى كثر الله خيركم. وهم لا يعزمون على أحد في الأكل، ولا يحلفون له، ويطيلون الجلوس على مائدة الأكل : فمنهم من يأكل ومنهم من يتحدث»[47]. وما أشد ما كره الرحالة المغربي ذلك وتذمر منه، والصفار يعبر عن ذلك صراحة ويعلل كراهيته في الوقت نفسه : «وكنا نكره مجيء وقت الأكل، لطول الجلوس ولا نفهم كلامهم ـ مع أن كثيرا من أطعمتهم لا توافقنا»[48]. ولكن ذلك لم يحل بين الموثق والمدقق وبين وصف الأطعمة المختلفة والانتباه إلى كيفية تقديمها، لا من حيث إن لكل طاعم ملعقة وسكيناً وصحناً وكأساً خاصة به، على نحو ما يرد عند الطهطاوي (وللطهطاوي ذكر كثير عند الصفار وعند العمراوي) بل إن الفقيه التطواني ينبه قارئه إلى أن : «لهم في الأطعمة ترتيب معلوم، فيقدمون أولا أنواع المطبوخات من لحم وغيره، ثم يتبعونها بأنواع المشويات من دجاج وغيره، ثم يختمون بالفواكه والحلاوات...»[49].

لم يكن اِنشغال السفير المغربي (إلى فرنسا، في القرن الماضي) بما يرجع إلى شؤون الحياة اليومية أقل أهمية مما يلفيه القارئ لديه من آحتفال بالأبنية والأطعمة

---

(47) العمراوي، تحفة الملك....، ص. 33.

(48) رحلة الصفار، الورقة 90.

(49) نفس المرجع والورقة.

والمتاجر والمتاحف وأماكن الفرجة المتنوعة. ومرة أخرى، نقول إن الميل التوثيقي القوي عند الفقيه التطواني وما كان لديه من دربة على الإحصاء والتدوين، بحكم خطة العدالة التي كان يمارسها، قد أفادنا كثيرا : لا في الإخبار عن أحوال فرنسا ونظمها، بل في التعرف على ما كانت عين الرحالة تلحظه من أمور الغرابة وتجد فيه شذوذا أو خروجا عن القاعدة التي كانت تلك العين متعودة عليها. كذلك يسجل الصفار أنه «ليس من عادتهم خلع النعال، إلا إن دخل فراش النوم» (ووجه الإثارة في ذلك عنده، دون شك، أن البسط والزرابي في بلده لا توطأ بالنعال حتى تظل أماكن صالحة للصلاة). ويكتب في صفة اللباس الأوروبي أنه لا يجعل الجلوس على الأرض أو على فراش واطئ أمرا سهلا عمليا : «ولا تطاوعهم لبستهم له، لضيق سروايلهم»[50]. وحيث إنّ الخروج في النزهة، في المألوف عند الصفار، يعني تهيئ الأطعمة المتنوعة ويكون مرادفا للاسترخاء والاستلقاء أوقاتا طويلة، فهو يكتب مندهشا : «ونزهتهم إنما هي أن يأخذ الرجل بيد صاحبه أو صاحبته ويقصدون موضعا من المواضع المشهورة عندهم يتماشون فيها وهم يتحدثون وينظرون. وليست نزهتهم بالأكل والشرب، بل ولا بالجلوس !»[51]. ولما كان الفقيه المغربي متعودا في بلده على الفصل بين الرجال والنساء في المجالس (فلكل من الجنسين مجلسه)، فهو ـ بطبيعة الأمر ـ يعجب من الجمع بينهم حول موائد الطعام ويعجب، أكثر من ذلك، من توجه الرجل الغريب إلى ربة البيت، أول ما يدخل، والبدء بالسلام عليها ومحادثتها، ولكنه ينبه قارئه مع ذلك إلى أن «تحدث النساء مع الرجال ليس عندهم عيبا ولا مخلا بالمروءة، بل ذلك هو المطلوب عندهم، لكن مع عفة وصيانة»[52].

بيد أن هذه النظرة الإيجابية إلى المرأة لم تكن ديدن الرحالين المغاربة، في القرن الماضي، بأجمعهم. فنحن نجد عند صاحب «**تحفة الملك العزيز**» نظرا مغايرا : فعنده أن «جلهن يتعاطين الفواحش»، والنساء الفرنسيات كما بدين له «مُطْلقات الأعنة في ميادين الفجر والفواحش من غير أن يقدر أحد على منعهن مما يردنه من ذلك». والرجال، على نحو ما شاهده من سلوكهم مع النساء، مغلوبون على أمرهم، إذ «طاعة النصارى لنسوانهم، ومبالغتهم في آتباع مرادهم أشهر من تذكر»؛ الأدهى والأمر من ذلك كله أن «الغيرة في أزواجهن نادرة جدا : فيرى الرجل زوجته آخذة

(50) نفس المرجع، الورقة 22.

(51) نفس المرجع، الورقة 65.

(52) نفس المرجع، الورقة 102.

بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملا فلا ينكر عليها، وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمنتزه أو فرجة»[53].

على أن ما كان العمراوي ينكره من سلوك «النصارى» وما كان يستبشعه من عاداتهم لم يكن ليسيء إلى ما وقر في نفسه من رأي حسن وما ارتسم في وعيه من صورة جيدة. فهو قد أعجب أشد الإعجاب من أن : «لهم تشوق لأخبار النواحي ومعرفة أحوال البلاد وأنواع التجارة والفلاحة والعمارة»، وهو لا يخفي تقديره الكبير لولعهم بالكتب وطلبها وترجمة الروائع من أداب الأمم المختلفة إلى اللغة الفرنسية : «ترجموا كتبا عديدة من كتب الإسلام باللغة الفرنصاوية مثل كتاب «**أدب الكاتب**» لابن قتيبة، و«**كتاب الأمثال**» للسمعاني و«**القاموس**»، وكتاب «**روض القرطاس**» وكتاب «**ألف ليلة وليلة**»، وقدّر أشد التقدير ـ وهو الأديب الشاعر ـ إقبالهم على اقتناء الكتب : «يتغالون في ثمنها ويشترطون جودة الخط وصحة الضبط»[54]. والسفير الأديب لا يتمالك نفسه من موقف التقدير والاحترام أمام أعمالهم في تخليد الانتصارات العظمى والأعمال الكبرى «عبرة للمتأخرين ليعملوا مثل عملهم»، بل إنهم يخلدون الهزائم الشنيعة التي منوا بها في أشكال تماثيل وصور تصف انكسار جيوشهم وهزيمتها : فهم بذلك، عند العمراوي، يدعون أبناءهم إلى أن «يأخذوا بثأر ما نيل منهم»[55]. ولكن القارئ لا يلحظ عند صاحب «**تحفة الملك العزيز**» ما يشي بانزعاج تجاه التماثيل والمجسمات، وذاك ما نعرف أن الفقهاء يتكرونه ويقضون بتحريمه وتجريم صاحبه، وقد يجوز لنا موقف العمراوي ذلك أن نعده استحسانا أو موافقة ـ وهو في الأحوال كلها مما يدخل في عِداد ما دوَّنه في رحلته من الأمور الإيجابية الدالة على الرفعة والتفوق.

الحق أن هذا التموج في الصورة التي يرسمها للآخر كل من العمراوي والصفار، وهذا الانتقال المستمر من تعداد المحاسن وتسجيل الأمور الإيجابية المحمودة إلى الوقوف بالذم الكثير وبالتشهير الشنيع على أنماط من السلوك ونظم من العيش لا تقرها عين الرحالة المغربي ولا تقبلها، هذا الانتقال المستمر من الإيجاب إلى السلب فإلى الإيجاب مرة أخرى هو ما يكسب «صورة الآخر» في الوعي العربي الإسلامي (على

(53) العمراوي، **تحفة الملك العزيز**...، ص. 70–71.

(54) العمراوي، **تحفة الملك**...، ص. 11–12.

(55) الطاهر الفاسي، **الرحلة الإبريزية**...، ص. 28.

نحو ما يحضر به ذلك الوعي في المغرب في القرن الماضي) ألوانها ويسلط عليها من الأضواء ما به تبرز ملامحها وتتبين معالمها. هي الإعجاب بالآخر، حيث يكون ممتلكا لأسباب القوة وأسسها (النظام، العدل، العلم،...)، وهي النفور من ذلك الآخر حين يبدو له أنه يخل بقواعد الشهامة والمروءة، وأنه يخلو من لباس الإيمان.

هي، في زبدة القول، صورة تجليها من وجه أول شهادة صاحب «**الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**»، إذ يقول معقبا على ما استحسنه من مشاهدات في الاختراعات والفنون : «الحاصل أنهم أتعبوا أنفسهم في إدراك المسائل النظريات، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولا زالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة». وهي، من وجه ثان، ما يعبر عنه معاصره في اليوم والأسبوع ذاتهما، إذ يكتب تارة : «أن أمورهم بلغت الغاية وتجاوزت النهاية وأنه في الحال يعقبها الانحلال وتأخذ في الانعكاس والاضمحلال»[56]. ويذكر تارة أخرى أن المشاهد يجد في كل ما يراه مدعاة للتسجيل : «ولكني قيدت منها ما وقفت عليه وحضر في حين التقييد، وإلا فأمورهم كلها عجب»[57]. ثم إذ يحار العمراوي فينهي كلامه في الرحلة قائلا في شبه اعتذار إلى القارئ : «على أنني إن أطنبت في بعض المحال بوصف حالهم، وشَقْشَقْتُ بمحالهم، واستحسنت بعض أفعالهم، فمقصودي أن أزين منها ما وافق الشرع وسلمه الطبع والعقل. ولعلهم قلدوا في بعض ذلك سلفنا الصالح الذين كانوا على السبيل الواضح»[58].

هذه العبارة، بلغتها القديمة، في جمعها البليغ بين «حالهم» وبين ذكر «سلفنا الصالح» وفي الحرج الذي يخامر كاتبها من وجوب الاعتراف للذات بعجزها عن بلوغ ما يمتلكه «الآخر»، وما كان سببا في قوته وتقدمه، هي ما نجد فيه تعبيرا بليغا عما كان يخالج نفوس أصحاب «الرحلة الأوروبية» من مشاعر جياشة ومتصارعة.

---

(56) العمراوي، **تحفة الملك...**، ص. 62.

(57) العمراوي، **تحفة الملك...**، ص. 41.

(58) نفس المرجع، ص. 109.

الفصل الرابـع

لحظة الدهشة واستعادة الوعي

«عجائب أوروبا كثيرة، وهي في الحقيقة ليست عجائب أوروبا بل عجائب العالم وغرائب اختراعات عقل البشر النبيه المتيقظ».

محمـد الحجـوي، **الرحلـة الأوروبيـة**

يرد نعت «الدهشة» كثيرا في كتابات المؤرخين المغاربة للتعبير عن الفترة التي كانوا شهودا عليها: فترة العقد الأخير من القرن الماضي والعقدين الأولين من القرن الأحداث وشدتها وسرعتها على نحو جعل المغرب في حال «القابلية للاستعمار» ؛ وهي العبارة الأكثر ملاءمة في تصوير ما شعروا به، مع ذلك، من الوله والحيرة وعدم التصديق حين آل الأمر إلى فقدان الاستقلال وحلول الحماية أو حال السيادة المقيدة. وأحد الشهود البارزين على هذه الفترة، بل ورجل من الفاعلين في تشكلها، وإن كان ذلك في دور صغير، هو الفقيه محمد ابن الحسن الحجوي (1874 ـ 1956).

يمثل نص «**الرحلة الأوروبية**»، لمؤلفه محمد الحجوي ـ لحظة الدهشة وآستعادة الوعي (حسب التصنيف الذي قدمناه في نهاية الفصل الأول) ـ أفضل ما يكون التمثيل، كما سنتبين لاحقا. ولكن النص يطرح في نظر مؤرخ الفكر جملة من الأسئلة ويثير عددا من القضايا المنهجية والمعرفية. نعلم أن الفقيه الحجوي صاحب الدعوة إلى التحديث، تحديث جوانب من الوجود الاجتماعي، وصاحب منحى في الاجتهاد في الدين وقول في التجديد، تجديد الفكر وكيفيات النظر؛ ونعلم أن **أوروبا** تحضر عنده في هذه المناحي جميعها. ونقرأ «**الرحلة الأوروبية**»، فنجد حديثا عنها فيه دعوة إلى الأخذ بما كان عندها متعلقا بجوانب التنظيم التجاري ومن إعلاء لشأن العلوم والفنون، وبالتالي فنحن نجد في الصورة التي يرسمها لأوروبا، ما يتوافق مع ما يمكن

اعتباره عنده مشروعا فكريا اجتماعيا اقتصاديا، أو مشروعا إصلاحيا ـ تجديديا. يتبين لنا الأمر الأول، في وضوح تام، بالرجوع إلى مجمل كتاباته ومدوناته ومذكراته[1] ولا نملك إلا تأكيد الأمر الثاني والموافقة عليه إذا ما نظرنا في «**الرحلة الأوروبية**» نظرة مقارنة مع ما رأيناه من «أدب الرحلة المغربية المعاصرة» من جانب أول وقارناه مع ما هو معروف من رأي عند معاصريه من أصحاب الرحلات العربية المعاصرة صوب أوروبا من جانب ثان. والحالان معا يحملان على طرح السؤال الآتي : ما العلاقة بين «المشروع الإصلاحي ـ التجديدي» عند الحجوي وبين ما رآه في أوروبا من مشاهدات، وما تبين له من تمعن في تلك المشاهدات ؟ وبعبارة أخرى، فإن القارئ لا يملك أن يدفع التساؤل على النحو الآتي : هل يمكن القول إن كل الآراء التجديدية، والنظرات الاجتهادية في الحياة الاجتماعية من وجهة الدين الإسلامي، وكل الأفكار التجديدية التي نعرفها للفقيه الحجوي، إنما هي ثمرة لما شاهده في أوروبا ؟ وحيث إن مؤرخ الفكر ما ينفك يتساءل عن الصلة، أو الصلات، التي تقوم بين «السابق» من المؤلفات و«اللاحق» بها في كتابة الفكر أو في صياغة ما يكون لديه من «مشروع» فإن السؤال المتقدم يحمله على إثارة إشكال منهجي آخر هو : ألا يمكن القول، بالأحرى، إن «نظرة» الفقيه الحجوي إلى أوروبا (كما تكشف عنها «**الرحلة الأوروبية**») نتيجة تصور سابق لها ؟ ألا يمكن القول، بالتالي، إن الحجوي كان يقوم بـ«قراءة» لأوروبا قراءة كانت موجهاتها ومحدداتها سابقة للـ«رحلة» ذاتها ؟

لا نريد في وقفتنا عند «اللحظة الثالثة» من لحظات الوعي بالذات وتمثل «الآخر»، على نحو ما تكشَّف عند قراءة نصوص الرحلة المغربية المعاصرة، أن نتنكب ما سلكناه من طريق، لا ولسنا نريد أن نخوض في مشكلات معرفية وقضايا منهجية يطرحها تاريخ الفكر وتفرضها طبيعة برنامجه ؛ ولكن الحق أن طبيعة هذه «اللحظة الثالثة» وما عرفته من اِنقلاب في النظرة إلى أوروبا وتحول في العلاقة الثنائية العرب/الغرب، وكذا ما تعنيه كتابة الحجوي وآراؤه في المغرب في الفترة التي أشرنا إليها، كل هذه الأمور تجعلنا، في لقاء يكاد يكون غير إرادي، عند جملة هذه المشكلات والقضايا. ولكننا سنعمل على الاكتفاء من اللقاء بالملامسة الخفيفة وآستخلاص ما يكون من المسائل منيرا لنا في فهم قضيتنا الأصلية : قضية «صورة

(1) آنظر الفصل الثالث (ضرورات العصر ومقاصد الشرع) من كتابنا : **الإجتهاد والتحديث : دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب**، مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992، مالطة، ص. 67 وما بعدها.

الآخر» في أدب الرحلة المغربية على النحو الذي ترتسم به تلك الصورة في اللحظة التي تمثلها رحلة الحجوي إلى أوروبا. غير أنه لابد لنا من تمهيد نقف فيه على ما يقربنا من زمان «**الرحلة الأوروبية**» وبواعثها، قبل أن ننظر في أوروبا الحجوي وأن نجتهد في آستخلاص الملامح الكبرى التي ترتسم للآخر في «**الرحلة الأوروبية**»، مستأنسين في ذلك بما كان متصلا بها من مدونات الفقيه ومن إحالاته.

1. آنقلاب الأحوال

كتب الحجوي عددا كثيرا من «التقاييد» التي يتحدث فيها عن آضطراب الأحوال السياسية في المغرب، ويصف فيها ما يرجع إلى اختلال شؤون الحياة الاجتماعية وفساد الشؤون الفكرية والعلمية. ولعلنا لن نجد في مختلف تلك الأحاديث أفضل مما يأتي به في هذه الفقرة التي يوردها في سيرته الذاتية :

> «بدأ آنقلاب الأحوال بالمغرب بثورة أبي حمارة التي سببت فقر مالية المغرب والسلف الأوروبي، ثم سقوط المالية بيد إدارة السلف وفناء حماة المغرب وأبطاله في الحروب الداخلية. وقد اختل النظام، وضاع الأمن، وفسدت الأخلاق، وضاعت الفضيلة والأمانة، وتكالبت الناس على الرياسات الوهمية وجمع الحطام. وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل جاهل، فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزيزية، وتتابعت المحن وأظلم جو المغرب. وفي أثناء ذلك وقعت معاهدة 8 أبريل **1904**، بين فرنسا والأنجليز، ثم مؤتمر الجزيرة الخضراء [= **1906**]. وبإثر المؤتمر بيسير، سقطت الدولة العزيزية وقامت الدولة الحفيظية [= **1908**]. ثم وقع إثر ذلك الاحتلال، ثم إعلان الحماية [= **1912**] (...) هذه إحدى عشرة سنة رأى المغرب فيها من الأهوال والشدائد ما يشيب له الرضيع وتندك له الجبال»[2].

والفقيه الحجوي لم يكن، وكما سبقت الإشارة، متفرجا وشاهدا سلبيا على السنوات العصيبة التي يتحدث عنها بل كان ممثلا فيها بحكم الوظائف المتعددة التي تقلب فيها («نائباً عن الملك» في منطقة المغرب الشرقي إبان «فتنة بوحمارة»، نائبا عن وزيري المالية والجيش، مكلفا بسفارة إلى الجزائر للتفاوض مع السلطات الفرنسية...). ثم إن الحجوي، الموظف المخزني، كان من شهود الفترة في مستوى آخر، حاسم في تكوين شخصيته وفي تشكيل ما نعتبر أنه كان «مشروعا تجديديا ـ تحديثيا» لديه :

---

(2) محمد الحجوي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، المطبعة الجديدة (دون تاريخ)، فاس، الربع الرابع، ص. 205-206.

ذاك هو مستوى التجارة والدراية بها. ذلك أن الرجل كان ينتسب إلى أسرة معروفة باشتغالها بالتجارة في فاس وخارجها، وأبوه كان من تلك الزمرة من التجار المغاربة التي عرفت طريق أوروبا منذ نهاية القرن المنصرم، والحجوي يخبرنا أن أباه قد زار بريطانيا عدة مرات، بل إنه أقام في إحدى تلك المرات سنوات ستة في مدينة منشستر. أضف إلى ذلك أن صاحبنا قد امتهن بدوره التجارة وتمرس عليها وهو بعد شاب يافع، حديث العهد بالتخرج من جامعة القرويين. هذا العنصر الآخر هو ما يشكل بعدا ثالثا، أساسيا، من أبعاد شخصية الحجوي وما يكسب شهوده لفترة مطلع القرن طابعا ينضاف إلى بعدي التاجر والموظف المخزني : ذاك هو طابع الحجوي الفقيه المجتهد، العالم الذي كان له في الإفتاء في شؤون المعاملات والمستجدات والتقنية نصيب نحسب أنا قد أبنا عن البعض منه في كتابنا «**الاجتهاد والتحديث**».

هذه الاعتبارات كلها، أو هذه الأبعاد الثلاثة المتفاعلة والمتصارعة في شخصية الحجوي (التاجر ــ الموظف المخزني ــ الفقيه المجتهد) تكسب شهادة الرجل على الفترة التي تعنينا (فهي ما يلقي الأضواء على لحظة الدهشة واستعادة الوعي) قيمة مزدوجة : فهي، من جهة أولى، لا تخلو من فائدة الإعلام التاريخي ورسم شريط الأحداث والوقائع في عقد حاسم من تاريخ المغرب المعاصر، هو العقد الذي عرف البلد فيه الانتقال من حال السيادة إلى حال «الحماية» أو السيادة المغتصبة. وهي، من جهة ثانية، تمدنا بعناصر مفيدة في النظر إلى المغرب وفي التصور الضمني لأوروبا في فكر الحجوي ووجدانه ليلة الذهاب إليها «رحالة» يدون مشاهداته ويسجل انطباعاته ويكون لنا «مخبرا» عن طبيعة وعي الذات وإدراك الآخر.

لا يقدم الحجوي لقارئه، في الفقرة المأخوذة من كتابه، سردا مختصرا ومركزا للأحداث الكبرى التي عاشها المغرب في العقد الأول من القرن العشرين بقدر ما يعرض عليه «قراءة» لتلك الأحداث، قراءة لا تكاد الأبعاد الثلاثة من شخصية الحجوي تحتجب فيها، أو لنقل إنها تظهر في جوانب منها وتكون ضمنية يسهل التدليل عليها وإزاحة النقاب عنها. تتوخى «قراءة» السنوات العصيبَة تشخيص أعراض الأدواء التي أدت إلى «انقلاب الأحوال بالمغرب»، فتجد أنها ثلاثة رئيسية : **ضياع الأمن** (= شيوع الفتن والثورات الداخلية في مناطق من شمال المغرب، وشرقه وجنوبه)، **اختلال النظام** (ليس نتيجة ــ أو سببا ــ لضياع الأمن، بل اختلال مصدره الجهل وركود سوق العلم)، **فساد الأخلاق** (= انتشار العادات السيئة، مثل

الإسراف في النفقات في الأعراس والمآتم، ظهور طبقة «المحميين» وما كان عنها من قيم وعادات اجتماعية مخالفة لما ألفه المجتمع الإسلامي في المغرب). ومنطق القراءة ذاتها يحمل على القول بأن سبل الإصلاح تكمن في محاولة تطويق هذه الأسباب الثلاثة وإزالة دواعيها. وهذه، عند القارئ المطلع على ما كتبه الفقيه الحجوي بين الحربين العظمين خاصة، تقوم على الاجتهاد (= التجديد في أمور الدين) كما تقوم على التحديث (= تحديث شؤون التجارة، وتطوير أحوال الاقتصاد). وهكذا، فإن في وسع القارئ أن يتبين ملامح المشروع الإصلاحي، برمته، في عناصر تلك «القراءة» وفي موجهاتها؛ كما أن في وسع القارئ أن يستشف علامات من صورة أوروبا، ذلك الغيرُ المخالفُ في الملة والعقيدة والمتفوق الغازي بقوة علمه ونظمه الصناعية والتجارية قبل أن يكون غازيا بقوة جيوشه وعساكره. ولكنا لا نريد أن نستعجل نتائج لا نحسب أن القارئ المتنبه لنص «**الرحلة الأوروبية**» سيكون مخالفا لنا في استخلاصها، ولا أن الناظر في ما جريات الأمور السابقة لوقوعها والمواكبة لها سيكون معارضا لنا في القول فيها. وإن علينا، الآن، أن نعرض للتمهيد الثاني الذي سبقت منا الإشارة إليه، ذاك المتعلق بنص المخطوطة وفحواها.

2. «الرحلة الأوروبية» : أوروبا المعاينة

تبين «**الرحلة الأوروبية**» عن الأبعاد الثلاثة في شخصية محمد بن الحسن الحجوي أفضل ما تكون الإبانة. فللموظف المخزني حضوره : فهو عضو في الوفد الرسمي الذي توجه مبعوثا من الملك المغربي مولاي يوسف لحضور احتفالات العيد الوطني الفرنسي، ولحضور احتفالات انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. والحجوي يقول عن صفته في الوفد : «تسعة أعضاء، العبد الحقير أحدهم بصفة كونه نائبا عن فاس عاصمة العلم وعن المغرب الشرقي». صحيح أنه لم يعد، في وقت البعثة، يشغل منصبا رسميا بصفة مباشرة ولكنه سيرجع، بعد أقل من سنتين، لشغل منصب وزير المعارف الذي كان يشغله. ولكن صفة الموظف المخزني لم تفارقه في الشطر الرسمي من الرحلة أبدا، وهو لم ينفك عن إبداء ملاحظات على العلاقة التي تقوم بين الموظفين. ومن ذلك انتقاداته المقنعة، واللاذعة في الوقت ذاته، لرئيس الوفد الصدر الأعظم (= الوزير الأول). وللفقيه، العالم المجتهد، حضوره القوي في «**الرحلة الأوروبية**» : فقد اجتمع به التجار المغاربة القاطنون في منشستر، واستفتوه في جملة

أمور ترجع إلى فقه العبادات. والفقيه لم يكتف بالإجابة على ما طرح عليه من أسئلة، ولكنه يثبت نص الأسئلة والأجوبة معا، وقارئ «**الرحلة**» يجد أنها تستغرق من المخطوط حيزا يقرب العشرة في المائة بل إن الفقيه يثبتها مبوبة بحسب موضوعاتها. ثم إنه يفرد لها فصلا مستقلا ويجعل لها عنوانا بارزا هكذا : «مسائل فقهية»، وقد نميل إلى الظن أن الفقيه لم يَنِ عن الرجوع إلى تلك المسائل مرات عديدة بعد أوبته من سفره بدليل ما تشتمل عليه الأجوبة من تدقيق ومن توثيق يتجاوز، فيما نحسب، ما تملك الذاكرة وحدها أن تستحضره في نصه ودقة مراجعه. وأخيرا، فليس الحجوي، التاجر الخبير بفنون التجارة وأساليبها، أقل حضورا من الفقيه والموظَّف المخزني. وقد نضع جانبا ملاحظات الخبير المتمرس، وهو يشاهد ويدون ما يشاهده من أنواع المعروضات التجارية ومن كيفيات التعامل التجاري؛ ولكنا لا نملك أن نجد ما يؤكد حضور التاجر عند ما نقرأ له في ذكر سفره إلى بريطانيا بعد انتهاء المهمة الرسمية التي حضر من أجلها : «إن الوفد لما انحل اختار كل من رجاله أن يذهب إلى جهة (...). أما أنا، فإني اخترت أن أذهب إلى لندرة ومنشستر، لما أسمع عنهما من العجائب، وللنظر في شؤون تجارية وزيارة بعض المعامل». ثم عندما يخبرنا، في نهاية الرحلة: «فما وجدنا ما نشتري للتجارة، لا في فرانسا ولا في إنكلاتيرة، وإنما بعض الديار قاولتنا بتوجيه شيء من البضاعة بعد ستة أشهر ونحوها».

هذه الأبعاد الثلاثة في شخصية محمد الحجوي (الموظف المخزني ـ التاجر ـ الفقيه) هي ما يكون القاعدة الأساسية التي تستند إليها الرحلة، وهي ما يؤسس منطقها الذاتي، وهي ما يفسر موجهات المشاهدة في الرحلة وما يرسم الشبكة التي تتم «القراءة» من خلالها. يعرف الفقيه أن «الرحلة» تكون من أجل طلب المعرفة ولقاء العلماء والتماس «الإجازة» منهم وهو يفيض في فهرسته[3] في شرح قيمة السفر ومغزاه في ذلك، ولكن الفقيه ـ التاجر يقدر قيمة «الرحلة» في تطوير المعرفة التجارية أيضا حق قدرها. لذلك فهو يقول في محاضرة عن «مستقبل تجارة المغاربة»، ألقاها في مطلع العشرينات : «فكما أن العلم ينمو بالرحلة، كذلك التجارة؛ بل التجارة في

(3) محمد الحجوي، **مختصر العروة الوثقى**، مطبعة الثقافة، سلا، 1938. و«الفهرسة» في عرف العلماء المغاربة هي ما يذكر فيه الشيخ أساتذته وشيوخه، ويترجم لهم. ومن ذكره لهم ومن الاحتجاج بما يمتلكه كل شيخ منهم من معرفة ودراية وما يحفظه عنهم من مرويات وآثار، يستمد العالم «سلطته العلمية» ـ تلك التي يصبح بموجبها قادرا على «إجازة» الطالب والإعتراف له ببلوغ مرتبة «العالمية». (أنظر حديثه عن «رجال لم يشتهروا بالعلم ولكن لهم فضل على أقرانهم»، ص. 18-21).

هذا الوقت أشد حاجة إلى الرحلة لاستطلاع أحوال عالم التجارة وتغيير أساليبها وملاقاة رجالها والتعرف بهم، وليس من رأى كمن سمع. فإن أوروبا وأمريكا تتقدم دائما وتحدث فيها فبارك ومصنوعات وعجائب»[4]. لذلك فهو يحفز التجار إلى السفر وركوب الرحلة قصد الإفادة وهو يدعو أولئك التجار، وهو التاجر ـ وزير المعارف، إلى قراءة ما «تكلمنا فيه في رحلتنا الأوروبية»[5]. ولا تخطئ عينه ـ بطبيعة الحال ـ التنبُه إلى سلوك الموظفين وأخلاقهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض، جاعلا من الحديث عن ذلك السلوك سبيلا إلى نقد سُلوك الموظفين من أهل وطنه وذكر ما لا يستحسنه من أخلاقهمْ. وأخيرا، فإن «العقل الفقهي» لا يكون في الرحلة غافيا ولا منصرفا عن النظر في مناحي الوجود الاقتصادي والاجتماعي، بل إنه يقظ متحفز للتدخل وإيجاد الأجوبة الملائمة للأوضاع الجديدة، طبيعية عادية كانت تلك الأوضاع أم شاذة.

تحضر الأبعاد الثلاثة، مجتمعة متفاعلة، وقد كان لها تشخيصها لحال الضعف والانحطاط التي آل إليها البلد الذي تنتمي إليه، على نحو ما رأينا في الجزء المتقدم من هذا الفصل، كما تحضر وهي تنتقل في أنحاء البلاد الأوروبية وقد كانت كل من فرنسا وبريطانيا خلاصة لتلك البلاد وتعبيرا أمينا عنها في تنوعها وغناها فيما هو قدوة ومثل من جهة، وفيما يلزم آجتنابه وطرحه جانبا من جهة أخرى. وكل بعد من الأبعاد الثلاثة كان، بالضرورة، مستلزما لتصور لأوروبا سابق على الذهاب إليها. وبعبارة أخرى، فإن محمد الحجوي، إذ قصد أوروبا، في رحلته الأولى إليها، لم يكن «خاوي الوفاض» من كل معرفة لها، وسيكون من السذاجة في الفكر أن يوافق القارئ على وجود مسافر ذهنه، في معرفة أوروبا، صفحة بيضاء لم يخط فيها حرف واحد وأن المشاهدة والرؤية هي التي أخذت تملأ تلك الصفحة وتراكم المعرفة عنها. الحق أن ما يلزم اعتقاده هو الرأي المخالف لذلك تماما ؛ ذلك أن الحجوي كان ممتلئ الذهن بصورة ما لأوروبا، صورة ساهم كل من التاجر والموظف المخزني والفقيه المجتهد في تشكيل ملمح من ملامحها البارزة. هي الصورة السلبية، أو المغايرة مغايرة مطلقة، لما يجد صاحب **«الرحلة الأوروبية»** أن بلاده كانت عليه. إذا كانت **«الرحلة**

(4) أثبتنا نص المحاصرة في ملاحق كتابنا «**الإجتهاد والتحديث**» (المذكور آنفا). آنظر، في قول الحجوي، الصفحة 161 من الكتاب المذكور.

(5) **المرجع السابق**، ص. 163.

الأوروبية» تكشف عن الأسباب الخفية في تفوق أوروبا وتقدمها، على نحو ما يراه الفقيه ـ التاجر ـ الموظف المخزني، فإنها كانت، بموجب ما تقوم به من معاينة لأوروبا وملاحظة مباشرة لها، تستوفي عمل القراءة التي يقوم بها الحجوي لأسباب ضعف المغرب «وآنقلاب الأحوال» فيه. أوروبا هي البلاد التي يجتمع فيها ما يصنع التفوق والقوة عند الحجوي وما يرسي دعامتها على أسس ثابتة، وأعني : **النظام والعلم والتجارة**.

3. أوروبا بلاد النظام

يجد الحجوي في أوروبا من أسباب التفوق والتقدم كل ما يحسب أنه يفتقده في وطنه. فهو إذن يقرأ فيها مظاهر القوة بقدر ما «يقرأ» فيها أسباب ضعف المغرب وتأخره : فكأنما «الرحلة» عنده نظر في مرآة تطالعه فيها صورته الحق. وأول ما يقرؤه، بل الحرف الأكبر البارز في تلك القراءة، هو : **النظام**. وقُرَّاء الحجوي يعلمون كيف انشغل بمسألة النظام في كتاباته (محاضرات وتقاييد وتآليف متنوعة) آنشغالا كثيرا. فهو عنده مفتاح التقدم وسبب النجاح في الأمور كلها. وفي العشرينات، إذ كان وزيرا للمعارف، صرف همه الأكبر إلى القرويين منتقدا نمط الدارسة فيها مجتهدا في إرساء «مجلس تحسيني»، يكون الغرض منه إحداث «النظام في القرويين». وفي العشرينات كذلك (1928) ستنشر له محاضرة طويلة تحت عنوان : «النظام في الإسلام»، هي أحد أكثر كتاباته دلالة على فكره وتعبيرا عما نرى عنده من مشروع إصلاحي. والفكرة العامة في المحاضرة، هي أن الإسلام لم يَسُدْ أهله أيام الحضارة الذهبية، ولم يَعْلُ مقدارهم، إلا لأنهم عرفوا النظام في كل شيء وتمسكوا به ؛ كما أن انحطاطهم وتأخرهم اليوم نتيجة لإضاعتهم لأسس ذلك النظام وتفريطهم فيه. والنظام، عند الحجوي، ليس نقيض الفوضى وعدم استتباب الأمن فحسب، كما أنه لا يعني غياب الفكر الذي يعمل بالترتيب والتنظيم وجعل الأمور في الأمكنة الصالحة فحسب، بل النظام تصور كامل لنمط من العيش وأسلوب من الوجود.

أعجب بباريز، خاصة، أشد ما يكون الإعجاب ؛ لا بل إنه سحر بها سحرا أكسب حديثه عنها بهاء ورونقا ليس مما نعهده في كتابات الفقهاء. وفي ذلك كله ترد كلمة النظام ومشتقاتها كثيرا. فباريز «معدن المدنية العصرية والنظامات الأوروبية». وأهل باريز، أرباب الذوق الرفيع وأهل الأناقة والكياسة، «أعانهم على هذا

وذاك آقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علومهم، وكمال **النظام** في الأعمال والأحكام وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف **بالنظام** في كل شيء شيء»، ومتى كنت متجولاً، فإنك تلفى «شوارع باريز وطرقها غاية في النظافة **والنظام**»[6]. ويقارن صاحب «**الرحلة الأوروبية**» بين باريز ولندن، فيجد أن الثانية تقل عن الأولى رونقا وبهاء في كل شيء: في الشوارع والمنتزهات، بل وفي أخلاق الناس ومعاملتهم لمن كان غريبا عنهم، جاهلا بلسانهم، ولكنه لا يجد بُدّاً من الإشادة بالتزامهم للنظام في حياتهم اليومية كلها مثل السير في الطرقات : «ولِتمَام **نظام** البليس وكمال طاعة الناس له واحترامهم لأوامره، فإنه يقف في ملتقى الطرق ولا يتكلم، وإنما يرفع يده فيقف الصادر والوارد دفعة واحدة لا يتقدم أحد بقدم، حتى كأن بيده كهرباء توقف الجميع. وهذا في لندن أكثر منه في باريز»[7].

يمكن القول، إجمالا، إن هذا «النظام» الذي أعجب به الفقيه الحجوي الإعجابَ كُلَّه، ورأى في وجوده العلامة الكبرى الدالة على التقدم والتفوق في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبلاد أوروبا هو نسق من الوجود تجتمع فيه جملة عناصر ومكونات. لو شئنا أن نكتفي بالنظر فيما اقتبسناه من أمثلة وشواهد قليلة، ثم لو رجعنا بعد ذلك إلى ما كتبه، خارجا عن «**الرحلة الأوروبية**»، لتبيَّنَّا أن النظام يعني الترتيب والنظافة من جهة أولى، ويعني الالتزام بقواعد المعرفة العلمية من جهة ثانية، ويعني مراعاة العدالة واحترام القوانين من جهة ثالثة. وبالتالي فهو من الفقيه الحجوي محاولة- للتعبير، بمفهوم واحد بسيط، عن حال شامل من التقدم وآرتفاع الشأن.

4. أوروبا وطن العلم

لم يرتفع شأن أوروبا الحجوي ولم يعلو ذكرها وتظهر قوية جلية للعيان إلا لأن لأهْلِها شغفا بالعلم وسعيا من أجل إرساء دعائمه : «فكل مدينة أو قرية أوروبية ترى فيها المدارس مشيدة، ونوادي العلم عامرة، وقد نظمت لذلك جمعيات في كل مدينة أو قرية، زيادة على الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات»[8]. ولا يقتصر

---

(6) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية**، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط (ح 115) الورقة 32. هذا، وقد ألحقنا المخطوطة، في نشرة اجتهدنا في تحقيقها وتسهيل قراءتها، في ملاحق هذا الكتاب.

(7) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية**، سبقت الإشارة إليه...، الورقة 108.

(8) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية**، الورقة 33.

الأمر على بناء المدارس، سواءً أمِن قبل الخواص فهي تعلم بأجر، أم من قبل الدولة فهي بعدمه؛ بل إن التعليم إجباري عام : «فكل صبي بلغ سن التعليم لابد أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الابتدائي». ثم إنه لا يكفي أن يكون المرء متعلما لمبادئ الكتابة والحساب، بل لابد له من متابعة تعليمه إما من أجل نوال شهادة واكتساب علم ومعرفة عاليين وإما من أجل تعلم صناعة إذا كان فقيرا. وهذه الأخيرة لا تدرك إلا بالعلم، أي بالدرس في مدارس الصناعات والفنون. والنتيجة أنك ضرورةً : «ترى قدرا من العلم آشترك فيه الذكر والأنثى والغني والفقير». فالعلم سر التقدم والقوة، والجهل سَبَبُ التأخر والضعف. لا غرابة في الأمر ولا حاجة إلى إعمال الفكر لإقراره والموافقة عليه، ويكفي الفقيه أن ينظر في حال أهل بلده : «بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابة ولا أدبا ولا حسابا، ولا، ولا... كأهل المغرب الأقصى مثلا»[9].

ولكن الشغف بالعلم لا يكون آعتناء بالتعليم فحسب، بل إنه آحتفاء بالمجالس والمحافل العلمية، ذاك ما كان بالأمس سببا في آرتفاع الإسلام وتفوق أهله حيث كان أهل العلم موضع تجلة وتقدير، والعلماء مكان آحترام وإجلال : «وما تم سلطان الجهل على العلم في بلاد الإسلام إلا بانقطاع الوصلة بين طبقات الأمة فلا يلتقي جاهل بعالم إلا في قارعة الطريق، وطرق المدن المغربية ضيقة تضيق عن إمكان المفاهمة فلا تتحاك الأنظار». إن ما كان سببا في تفوق المسلمين بالأمس هو ما يصنع قوة أوروبا وتفوقها اليوم. ذلك ما يقوله الفقيه الحجوي ويؤكده في مشاهداته في رحلته، وذاك ما يثبته في فهرسته التي يجيز بها طلبته فيأذن بارتقائهم إلى سلك العلماء : «وغير خفي عن أحد أن منتديات أوروبا هي السبب الأكبر في رقي أفكار أهلها. وبالمنتديات يبتدئ الرقي الفكري في كل الأمم، قبل المدارس، بل هي بذرة المدارس. وبتلك المسامرات والمحاضرات التي تكون بتلك المنتديات زخرت أوروبا بالعلوم وعمت الحركة العلمية سائر الطبقات»[10].

ثم إنه لا شيء أدل على العلم من الكتابة والتأليف، والفقيه لا يخفي انبهاره بما شاهده في الخزانة الوطنية في باريز، إذ يدخل إحدى غرف الخزانة ويرى أنها : «تعدل

(9) نفس المرجع والورقة.
(10) محمد الحجوي، **مختصر العروة الوثقى**، سبقت الإشارة إليه، ص. 19.

بمكتبة القرويين ومراكش معا إلا أنها مطبعية»، ويقال له إن الغرفة تحوي ما كتبه علماء أمريكا وحدهم: «فقلت في نفسي: هذه أمة جاءت في الزمن الأخير ألف علماؤها هذا العدد من الكتب وما استقلت إلا منذ نحو مائة وخمسين سنة. فما أعظم مدارك البشر إذا كان عائشا في جو صاف يستنشق هواء الحرية المطلق!»[11]. وكل ما رآه قد هاله وحمله على تقدير أمة لها كل هذه العناية بالكتب والمؤلفات :«وكيف لا يدهش الإنسان إذا رأى ما ينيف على ثلاثة ملايين من الكتب المطبعية وما أناف عن مائة ألف كتاب خطية، وقالوا : إن العدد أكثر من ذلك ؟!»[12]. ثم كيفَ لا يدهش المرء، من جهة أخرى، وهو يرى تلك الصورة الأخرى الدالة على ضعف العناية بالكتاب، بل ورأى الضيق به والتبرم منه، تلك الصورة التي يجليها سلوك صحبه من بعض أعضاء الوفد، إذ : «ملّوا كثيرا وضجروا من كثرة ما رأوا وأرادوا الخروج». لم يضجر المؤلف ولا القيم على المكتبة، ولكن «لا أمل في ارتقاء من به داء الملل. فالملل آفتنا العظمى وسبب من أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا»[13]. وطن العلم حيث التقدم والرقي، وغربته خارجها. ذاك هو الدرس الأعظم.

5. أوروبا دار التجارة

يتساءل الموظف المخزني، وزير المعارف المغربي، محمد الحجوي في محاضرة ألقاها في محفل التجار المغاربة : «فلأي شيء تقدموا وتأخرتم ؟». ويأتي جوابه عن هذا السؤال الذي يذكرنا بالهم الواحد المشترك لكل المفكرين النهضويين العرب، دقيقا واضحا ومباشرا : «تقدموا لأنه قدمهم العلم بالتجارة وأخركم الجهل بها» [14]. والضمير، في الجواب، يعود على الأوروبيين بطبيعة الحال : «هم» متقدمون، و«نحن» متأخرون. والحجوي، التاجر النابه، ابن التاجر الذي عرف بريطانيا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تاجرا متعاملا معها يستقبل سلعها

---

(11) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية**، الورقة 60–61.

(12) **المرجع السابق**.

(13) **المرجع السابق**.

(14) محمد الحجوي، **مستقبل تجارة المغاربة**. (أنظر سعيد بنسعيد العلوي، **الإجتهاد والتحديث**... (سبقت الإشارة إليه)، ص. 164).

ومنتوجاتها، وعرفها مرتحلا إليها، متبضعا منها ومقيما فيها مددا من الزمان ــ هذا الحجوي تعلم كيف يربط بين تقدم أوروبا وحسن إجادة أبنائها لشؤون التجارة فيها. هذا الرجل نفسه، ابن مدينة فاس عاصمة المغرب حتى نهاية العقد الأول من القرن الحالي، كان على بينة ودراية من سوء إدارة تجار المغرب لأمورهم التجارية، وكان قد وقر في ذهنه ــ على وجه الخصوص ــ وجود الارتباط بين السبب في فساد سوق العلم من جهة أولى وبين شيوع الفوضى وانعدام النظام من جهة ثانية. وإذن فقد كان له تصوره لأوروبا «التجارة» السابق على ذهابه إليها «رحالةً» يخبرنا عما يراه ويدونه في «**رحلته الأوروبية**».

يتنقل محمد الحجوي، الفقيه التاجر أو التاجر الفقيه بالأحرى، في باريز ومارسيليا ولندن ومنشستر ويشاهد، ملاحظا ينشد التعلم والاستفادة، ثم يدون ملتمسا الدرس العملي الذي يريده لنفسه ويريده للتجار المغاربة. ويريده لهذه الفئة، لأنه ينظر في شؤون المغرب، كما يعلمها؛ فيرى أنها المعول في تحقيق النهضة وفي سلوك سبيل التقدم والترقي للبلد. ذلك أن «طائفة التجار بالأخص لها معرفة بالجغرافية والسياسة والتاريخ وغيرها بسبب رحلتهم إلى أوروبا والشرق وأمريكا وغيرها (...) بل تجد منزل كل تاجر نابه منتدى من منتديات الأدب والسياسة، فتجد فيه جرائد ومجلات الشرق والغرب، وكل كتاب حدث في الاجتماع أو الاقتصاد أو غيرهما»(15). وما يفيده من الدرس العملي، فيثبته في «**الرحلة الأوروبية**» هو أن التجارة، أولا وقبل كل شيء، تخضع لقوانين وضوابط صارمة : أولها العلم المتلقى في المدارس المتخصصة في تعليم قوانين التجارة وقواعدها الحقيقية (من محاسبة وإمساك للدفاتر، وآستعلام عن أحوال السوق في الجرائد والمجلات المتخصصة، وتقص للأخبار...)؛ ثم معرفة أن التجارة ثانيا تقتضي من صاحبها النظام في معانيه الكاملة، من النظافة وحسن الأناقة، وتوافر الحس الترتيبي : «يبهت طرفك في نضارة المحل وزخرفته وجمال منظره، ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها : كل جنس مع جنسه ونوع من نوعه (...) وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا ظريفا ذا كسوة جميلة ووجه بشوش وأخلاق كريمة وتربية حسنة وصبر وحذق، فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصا أو غاليا». وما يفيده الدرس العملي ثالثا، وما كان المغاربة في حاجة إليه أكثر من غيره كما لا يفتر

---

(15) محمد الحجوي، **مختصر العروة الوثقى** (سبقت الإشارة إليه). ص. 19.

الحجوي عن تأكيده، هو التشبع بالمبدإ البسيط الذي يقضي بأن «القليل في الكثير كثير». وما أدرك الأوروبيون فائدته العظيمة، وما فاق فيه الإنجليز غيرهم فيه، هو «صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل ليباع العدد الكثير»[16].

عندما يعاين المرء أوروبا التجارة، فإنه يعاين أوروبا القوة والتقدم، يعاين «التعاضد المتين» بين العلم، والنظام، والتجارة. ذاك مغزى «**الرحلة الأوروبية**»، وتلك فائدة «استطلاع أحوال التجارة الأوروبية والأمريكانية»[17]، وذلك هو المعنى الخفي في «الرحلة إلى أوروبا وأمريكا مع المعرفة بلسان القوم»[18].

6. مثُل أوروبا : بين المقبول والمرفوض

في «**الرحلة الأوروبية**» ما لا يسع القارئ إلا أن يقول معه بحصول نقلة في النظر إلى أوروبا وآرتسام صورتها في وعي المثقف العربي المسلم في المغرب. وفي الإشارات المتقدمة إلى الحيثيات التاريخية والمعطيات السياسية والاجتماعية ما يفسر هذا الواقع ويكسبه طابع المنطق والمعقولية. والفقيه محمد الحجوي هو ــ لا شك ــ نموذج واضح لما يمكن آعتباره تمثلا للإيجاب في الصورة التي ترتسم لأوروبا في أدب الرحلة المغربية المعاصرة : فهو ــ كما حاولنا أن نظهر ذلك ــ قد سافر إليها وهو يقدر مسبقا أنه سيقرأ فيها كل ما يفتقده في المغرب من الأسباب التي يكون عنها التقدم والرقي في الأزمنة المعاصرة. لا! بل إن الحجوي، الموظف المخزني ــ التاجر النابه، كان في أتم الاستعداد وأحسنه لقبول التسليم بواقع فرنسا «الحامية» : فهو يذكرها الذكر الحسن كله وهو يستلذ ترديد شعارها الثلاثي (الإخاء ــ الحرية ــ المساواة) حين يذكر باريز «معدن المدنية العصرية (...) والحرية المنظمة والأخوة المحكمة والمساواة الملزمة». وهو، كما رأينا، يدعو إلى جعل الأوروبيين مثلا وقدوة وهو يحبذ السفر إليها، بل إنه يرى أنه مما لا يكون الواجب واجبا إلا به (كما يقول الأصوليون) عند التجار؛ ومن ثم فهو يكاد يحملهم على السفر إليها حملا. ولكن الفقيه الحجوي لا يريد لأوروبا أن تكون ؛ قدوة ولا مثلا يحتذى في الأمور التي ترجع إلى ما ينكره الدين ولا يقره ما ألفه من آداب الحشمة والوقار. أوروبا «الأخرى»، تلك التي يرفضها الحجوي الفقيه

---

(16) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية...**، الورقة 33.

(17) محمد الحجوي، **مستقبل تجارة المغاربة**. (**الإجتهاد والتحديث...**، سبقت الإشارة إليه، ص. 163).

(18) المرجع السابق، ص. 161.

وينفر منها ضميره الديني هي التي تكون فيها باريز «كعبة الطائفين للتهتك لا التنسك، وركن التفرج والتفسخ لا التبرك، ومرسح التفنن في الأزياء الكثيرة والزخارف الوفيرة والرفه البارع والتهتك بدون وازع وترتيل آيات الملذات بالتجويد والمد والإشباع»[19]. تلك التي يَنعدم فيها الحياء وتخدش المروءة ويكثر عدم التمسك بأهداب الدين، ولاسيما النساء : «فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا سفاد الحيوانات في الطرق جهرا. فهذا شيء أفسد الأخلاق ولا تستحسنه ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع»[20].

شيء غير ذلك لا يرى الحجوي أن عقلا يقول به أو شرع، وذاك الشيء يسوء، هذه المرة، التاجر ـ الموظف المخزني. ذاك هو «سريان الأفكار البولشفكية للطبقة السفلى من العامة»، فعنه كانت شرور وآثام كثيرة وهو يجتث قاعدة الوجود البشري من قرارها، تلك التي تقوم على وجود النظام ووجود التفاوت في الأرزاق والأوضاع بين المخلوقات الإنسانية وتقضي أنه «لا حياة لأمة تكون صعاليكها كالبلشفيك تؤسس مبادئها على السلب والنهب، وبدعوى التسوية في الحقوق»[21]. والحجوي التاجر لا يرى في «سريان الأفكار البولشفيكية» سوى إحداث الخلخلة المدمرة في نظام الوجود الاجتماعي السليم، وأساسه وجود التجارة القائمة على أسس العلم والنظم المقررة شرعا وعقلا. وقارئ «**الرحلة الأوروبية**» يرى صاحبها يجتهد في تفسير تدهور الاقتصاد وخلو المتاجر من السلع والبضائع، فلا يرى سببا لذلك سوى ما أصاب العمال من سوء الالتقاء بالأفكار «البولشفيكية» : فعن ذلك تكون دورة فساد : «يريدون مساواة العملة مع أصحاب المعامل في الأرباح فيعتصبون ويمتنعون عن العمل : يدعون غلاء المعيشة، فيلبي أصحاب المعامل طلبهم ويزيدونهم في الأجور وينقصون من ساعات العمل. لكن أصحاب المعامل يزيدون ما زادوه للعملة على أثمان البضائع فيتفاحش ارتفاعها»[22].

يدق الوصف عند صاحب «**الرحلة الأوروبية**» في أحاديثه المسهبة عما استحسنه من العادات والتقاليد، ويتوسع في القول المقارن بين الفرنسيين والإنجليز،

---

(19) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية**، الورقة 34.

(20) **المرجع السابق**، الورقة 59.

(21) محمد الحجوي، **مستقبل تجارة المغاربة (الإجتهاد والتحديث...**، ص. 155).

(22) محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية...**، الورقة 150.

ويعين في المقارنة مساحات مضيئة، شاسعة أحيانا، لما يصح آعتباره قدوة يحسن احتذاؤها، ولكن الأمور في القراءة تصير إلى وجوب الاختيار الحاسم بين صورة لأوروبا وأخرى. صورة أولى هي تلك التي يصح القول إن الهدف الخفي من الرحلة، ذاك الذيَ تكون به كشفا عن أسباب الرقي والتقدم، يجليها على نحو يتلاءم مع ما يصح آعتباره «مشروعا إصلاحيا حجويا». وصورة ثانية لأوروبا، هي التي لا تخدم ذلك المشروع (ذاك هو الشأن في أوروبا التي عرفت «سريان الأفكار البولشفكية») من جهة أولى، وهي تلك التي يرفضها الوعي الديني ويطرحها أرضا ما يحمله من سلم للمعايير والقيم الأخلاقية دون أن يكون ذلك الرفض ولا ذاك الطرح متعارضين مع أوروبا النافعة أو المفيدة. أما ما كان خارج الصورتين، فهو ـ في لغة الفقيه ـ مما لا يحاسب على تركه ولا يجازى على فعله.

خاتمـــة

ما القول، في خاتمة المطاف، في الصورة التي ترتسم للآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة ؟ أهي صورة قارة في عمقها وثابتة في أساسها، فهي ذات ثوابت يمكننا تعيينها بالرصد والملاحظة ولها منطقها الواحد الذي يحكمها ويوجهها من داخلها فلا يكون التغير فيها سوى خطإ في الإدراك وخلل في الرؤية ؟ أم إن تلك الصورة، بالأحرى، متبدلة متحولة لم يكن لها أن تظل في منأى عن تغيرات الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت محيطة بها، ولم يكن في وسعها أن تدعي الجمود على حال واحد والامتناع عن الحركة، والحال أن تأثيرات تطور تقني تحيط بها وشرائط تبدل سيكولوجي – ثقافي تحف بها ؟

الحق أن قراءة متن «الرحلة الأوروبية» تحمل المرء على التنقل في رحلة أخرى، رحلة من طبيعة مغايرة، هي تلك التي يقطعها الوعي بالذات أو تقطعها الذات، في لحظات حصول الوعي لها بذاتها. ونحسب أن الانتقال في مطالعة ذلك المتن ابتداء من «**البدر السافر**» و«**الإكسير**» إلى «**إتحاف الأخيار**»، مرورا بنصوص رحلات كل من الصفار والعمراوي والطاهر الفاسي، وانتهاء بالحَجوي في «**الرحلة الأوروبية**» – آنتقال يؤكد لنا وجود الِارتباط العِلي المباشر بين حصول الوعي بالذات، وكيفية تجليه أو ظهوره، وبين إدراك «الآخر» : ذاك الذي تقضي الذات بمغايرته لها واختلافه عنها. وفي المائة والأربعين سنة التي تفصل بين ركوب المكناسي الباخرة واتجاهه إلى الضفة الأخرى من البحر الأبيض من أجل «**آفتكاك الأسير**» وبين سفر الحجوي إلى فرنسا عضوا في وفد رسمي لحضور «آحتفالات النصر»، بين التاريخين حدث من التحول ما لا يمكن قياسه بالحساب الِاعتيادي لتبدل الأزمنة والتواريخ. ذاك قرن ونصف القرن حاسم في تاريخ كل من العرب والغرب، زمان نوعي مغاير عاشته كل من «الذات» و«الغير». هو زمان الِانتقال من حال المشابهة

والاِقتراب إلى حال الاِختلاف والاِبتعاد. المشابهة في أنماط الوجود المادي، التقني والعسكري، ومهما بدا منه من آختلاف، فإن أمره يسير، وذاك ما كانت عليه كل من أوروبا، عموما، والمغرب حتى نهاية القرن الثامن عشر. ولست أجد، تعبيرا عن الشعور بتلك المشابهة وذاك الاقتراب في الوسائل بين الخصوم، أفضل من لهجة الخطاب التي خاطب بها الملك المغربي محمد بن عبد الله معاصره كارلوس الثالث، ملك إسبانيا : «فما للتغافل من الجهتين وجه يعتبر ولا أمر ينتظر، والحرب سجال في المبارزة والنزال». والحق أنها ظلت كذلك (أو إن المغاربة كانوا، على كل حال، يحسبونها كذلك) إلى حين آحتلال الجزائر ثم حصول هزيمة إيسلي، بضعة عشر عاما بعد ذلك الاِحتلال. مع منتصف القرن التاسع عشر سيعرف التاريخ إيقاعا سريعا، منطقيا طبيعيا عند دول الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط، غريبا محيرا عند أهل الضفة الجنوبية. وقارئ الرحلات المغربية صوب أوروبا يصادف، في أشكال تعبيرية متباينة حينا ومتقاربة بل ومتطابقة حينا آخر، ذاك الحديث «النهضوي» الحزين الممتلئ مرارة وأسى عن «تقدمهم» و«تأخرنا»، «قوتهم» و«ضعفنا». لم يعد الغير، في أدب هذه الفترة (ابتداء من الصفار إذن) هو «النصارى دمرهم الله»، بل إنه يصبح الغير صاحب الاِختراعات والاِكتشافات المذهلة. ولكنه لا يكون هذا فحسب، بل إنه يغدو مع ذلك: متصفا بالعدل ومراعاة القوانين : فلا مكان في بلاده للظلم والظلمة، ولا رفعة ولا تفوق إلا لمن كان أهل آستحقاق ومكرمة.

تُعَلِّمُ الرحلة المغربية المعاصرة على لحظات تحول الوعي بالذات وإدراك الآخر والاِنتقال في ذلك من حال إلى أخرى. وهي إذ تفعل ذلك، فهي تؤرخ، من موقع نوعي متميز، للفكر العربي الإسلامي في المغرب وتخبر عن مكونات الثقافة ومكنونات الذات.

الملاحق



مختارات من رحلة محمد إبن عثمان المكناسي

البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر

مخطوط في الخزانة العامة بالرباط



I

«وقد استدعانا الطاغية ذات يوم لرؤية فرجة يستعملها يسمونها الوبرة[1]، وهي التي يسميها الصبنيول الكمدية[2]، فبعث إلينا مع أحد خاصته يعلمنا بذلك. وبعث مفتاحين لمقعدين من الدار التي يكون بها ذلك اللعب. وبين العشاءين ورد رسول الطاغية وقال : إن الطاغية يريد أن يتوجه إلى رؤية الفرجة ويجب أن تتقدم أمامه. فركبنا الأكداش وتوجهنا.

فلما وصلنا الدار تلقانا أهلها بالباب بشمع كثير بأيديهم وتقدم أمامنا كبيرهم حتى أوصلنا إلى المقاعد المعينة لنا فوجدناها مفروشة مشرفة على دار كبيرة مستديرة مسقفة كلها، والمقاعد مشرفات عليها على سبع طبقات بصفوف متناسبات متناسقات. وبراح[3] الدار جعلوا فيه كراسي على صفوف، والدار معمورة مغمورة بالنصارى سفليها وعلويها والجميع بالكراء، فللمقاعد المشرفات كراء معلوم، والكراسي التي بالبراح كذلك، وقد أوقدوا فيها من الشمع على عدد طبقاتها ميئين عديدة في ترتيب عجيب. وفي إحدى زوايا الدار براح متسع مرتفع عن الأرض بنحو نصف قامة مفروش بالخشب، هو موضع اللعب والفرجة وقد أرخوا عليه ساترا حائلا بينه وبين من في الدار. فما جلسنا إلا هنيئة حتى ارتجت الدار رجالا ونساء وقالوا : الطاغية قد أقبل. فقاموا إجلالا، فأشرف من مقعده ورجع الناس إلى أماكنهم.

ثم أخذ أهل الموسيقى في آستعمالها، ورفع ذلك الساتر وظهرت دار مشيدة طويلة مديدة لها مقاعد وقبب ومساطب ورتب، وخرج أناس من زواياها نساء ورجالا قد لبسوا فاخر الثياب. وتقدمت فتاة فافتتحت الغناء مع رجل مناوبة، فأتوا بالإعجاب والإغراب. ثم أرخى ذلك الساتر، وبقوا هنيئة وصفر صافر، فرفع أيضا

(1) L'opéra.

(2) La Comédie, la comédia.

(3) «**براح الدار**»: وتنطق محرفة في اللسان المغربي الدارج هكذا : «مراح» ـ تعني وسط الدار أي الفناء الموجود بها. نقرأ في «**المعجم الوسيط**» : «البراح : المتسع من الأرض، لا زرع فيه ولا شجر».

وظهرت دار أخرى على شكل آخر وخرج أناس آخرون فلعبوا وغنوا ورقصوا نساء ورجالا وبقوا كذلك : كلما لعبوا أرخوا ذلك الساتر فيصفر الصافر ويرفع، فيكشف عن أشكال وبناءات مغايرات لما تقدم. وكل ذلك، إنما هو تخيلات، ما عدى الأدميين فهم حقيقة. ولو ترى إذ يصنعون البحر ويستعملون الحرب فتأتي المراكب في البحر والخيل مغيرة في البر لرأيت العجب المبين.

وقد ترددنا إلى هذه الديار مرارا، حيث كان يتوجه إليها الطاغية ويبعث إلينا. وكلما مررنا إليها هيأ لنا الأشربة والحلاوي على سبيل الإكرام.

والعمل في تلك الدار واحد، إلا ما كان من اللعب فيختلف باختلاف أصحابه.

الأوراق 141 ـ 144.

II

«ومن حضارة هذه المدينة أننا دخلنا ذات يوم إلى دار كبيرة ذات قبب ومخازن عديدة يسمونها البنك. ولها مال موقوف عليها، وعليها أمناء ووكلاء. فمن أراد أن يستسلف مالا فليأت بالرهن ويضعه في الدار المذكورة ويأخذ المال. فإن كان من عشرة مثاقيل فأقل، فليأت بالرهن الذي قيمته عشرة مثاقيل، ولا يلزمه شيء. وحين يرد الدراهم، يأخذ الرهن. وإن كان أكثر من ذلك، فإنه يلزمه عليه إعطاء خمسة عن كل مائة في السنة ويدفع الرهن الذي تكون قيمته ومقدار ما أخذ من المال بفائدته الواجبة فيه عن عامين. فإن أتى بالمال في خلال المدة، فبها ونعمت ؛ وإن مضت سنتان ولم يأت بالمال، فإن الرهن يباع ويقبض المال وفائدته. فإن فضل له شيء، يدفع إلى ربه».

«ولما وصلناها، تلقانا كبيرها بالباب وأدخلنا وأرانا قبة قبة، ففي بعض قببها السلاح فقط، وبعضها فيه أواني الفضة، وبعضها فيها الحلي من الذهب ؛ وكل نوع على حدته».

«وفتح خزانة صغيرة فيها أنواع الأحجار النفيس المنضد في الخواتم والأقراط وغير ذلك من زمرد وروبي ويمنط[1]، والجميع هنالك مرهون ؛ وكل حاجة مكتوب في بطاقة معها إسم صاحبها».

«ثم مر بنا إلى ناحية أخرى من الدار وفتح قببها، فإذا فيها أنواع الملبوس من الملف[2] والحرير والفرش والبسط ما ملأ تلك القبب إلى سقفها، والجميع أيضا مرهون».

---

(1) تحريف للكلمة الفرنسية : «Diamant» (الجوهرة الكريمة).

(2) **المِلف** (بفتح الميم وتسكين الألف، في النطق المغربي الدارج للكلمة) : ثوب صوفي ناعم.
يرى محمد القاسي (في تعليقاته على نشرته لكتاب «**الإكسير في فكاك الأسير**» لمحمد بن عثمان المكناسي) أن «أصل الكلمة من أمالفي (Amalfi)، وهي مدينة إيطالية».

«وفي هذه الدار من الكتاب والقائمين بأمورها والخدمة مائتان، وفيها رجلان : أحدهما عارف بأنواع الملبوس ومقدار قيمه، وآخر عارف بالفضة والذهب والأحجار والسلاح وتفاوت قيمها. فإذا أتى أحد بحاجة يرهنها، فإذا كانت من الملبوس، فالعارف بذلك ينظرها ويقدر قيمتها باعتبار الفائدة ويعطيه مقدار ذلك. وإن كان الرهن من الذهب والفضة والأحجار والسلاح ينظره العارف الآخر ويقدر قيمته باعتبار الفائدة. فإذا مضت سنتان ولم يظهر المرتهن، فإن رهنه يباع عليه؛ فإن فضل له شيء، يأخذه المرتهن؛ وإن لم يوف الرهن، فما رهن فيه فإن أحد العارفين يكمل ما نقص. ومن أراد أن يضع ماله على وجه الأمانة والصون بالدار المذكورة، فإنه يضعه ولا يلزمه عليه شيء ويعطونه خطوط أيديهم[3]. فإن فلانا وضع بالدار المذكورة مالاً قدره كذا على وجه الصون والحفظ. وحين يريد أخذه يدفع الكاغيد ويأخذه».

«وقد سألتهم كم بهذه الدار من المال الذي هو بصدد القرض فقيل مليون ونصف. وبهذه المدينة سبع ديار مثل هذه».

«وقد أخبرني بعضهم أنه لما أحدثت هذه الديار كان مالها ضعيفا، فكانوا إذا رأوا من يتنازع في مال أو عقار وغير ذلك فإنهم ينتزعونه من يد المتنازعين وتستغله الدار. فإذا كان مالا، تعطيه للناس بالفائدة وتأخذ ربحه. وإذا كان عقارا، تأخذ غلته حتى يثبت لأحد الخصمين ويعطونه رأس ماله فقط حتى كثُر بذلك مالها وتركوا هذا الأمر».

الأوراق 151 ـ 151

(3) **خطوط أيديهم** (جمع : «خط اليد») = ما خطته اليمين. وهو تعبير مغربي، في اللسان الدارج، يفيد آعتراف المعني بالأمر بما قرأه وموافقته عليه بالتوقيع عليه.

III

«ومما رأينا بهذه المدينة دار الطاغية التي بناها والده كارلوس الطاغية بإسبانيا، أسسها في بسيط من الأرض مرتفع مشرف على نابل من جهة الشمال تظهر منه المدينة كلها على كبرها. فتلقانا كبيرها وأدخلنا إياها وأرانا جميع قببها».

«وفيها خزانة من الكتب، مجموع فيها كتب المِلَل كلها من المسلمين والنصارى واليهود. فقلت لهم : ما تصنعون بكتب القومِ الذين لا تعرفون لغتهم ولا شرائطهم ؟ فقالوا : قصدنا أن تكون الخزانة جامعة، وإذا أتى أحد من رجال البلاد نريهم ذلك. فهم يفتخرون بهذا كثيرا».

«وقد أرانا كبير الدار المذكورة خزانة كبيرة موضوع فيها الغرائب. فأغرب ما رأينا في ذلك حجر واحد صغير، أصغر من الألف، فيه ثلاث صور من الخيل : أحدهما أدهم، والآخر أحمر، والثالث أبيض. ثم أخذ يرينا من مِثال هذه الغرائب إلى أن جن الليل».

«واتفقنا على الرجوع مرة أخرى لنشفي الغليل في تلك العجائب، فلم يتفق ذلك بسبب ما كنا بصدده من الأشغال».

«وأما الاسبطار[1] الذي يأوي إليه المرضى والضعفاء والمساكين والقيام بحقوقهم رجالا ونساء، من فراش وأكل وشرب وكسوة وعلاج، فهو أمر مشهور في بلاد النصارى كلها فلا نطيل بذكره لشهرته».

«وقد رأيت موضعا كبيرا متسعا جدا يقولون له كنب سنط (Campo Santo) محفور فيه ثلاثمائة وست وستون حفرة، عل عدد أيام السنة، وكل حفرة متسعة من داخلها مبنية بناء متقنا وبابها ضيق متساويا مع الأرض. ولكل حفرة غطاء من الحجر على قدر فيها محكما. وقد أداروا بهذا الموضع سورا عاليا وله خدمة يظلون به. وهذا الموضع معد عندهم لدفن الأموات الغرباء، مثل الذين بالاسبطار. ففي كل

(1) عبارة مغربية دارجة تعني المستشفى.

يوم يفتح الخدمة الموكلون به حفرة من الحفر ينزعون عنها الحجر الموضوع على فيها بسلاسل وحركات ويظل مفتوحا. فكل من مات في ذلك اليوم يرمونه فيه ويغلقونه ولا يفتح إلى السنة المقبلة. ومن الغد يفتحون الحفرة الموالية لها، وهكذا على سائر أيام السنة، قبحهم الله».

«وأما الديار المعدة للأكل والشرب، فكذلك أمرها مشهور في بلاد النصارى كلها حتى في الطرقات. فكل ما يريد المسافر يجده فيها، من الأكل والشرب والفراش. فإذا أراد أن يقيم يومين أو ثلاثة، أو عمره كله، يأكل ما يشاء ويتحكم كيف يشاء ويؤدي ما هو معلوم».

«وقد سمعت في هذه المدينة نادرة، وهي أن كل من يبيت بالديار المذكورات من المسافرين فإن صاحب الدار يزممهم(2) ويدفع الزمام إلى حاكم البلد بعد أن يفحص عن كل واحد من أين أتى. وقد وقع من حكام المدن اتفاق على أن من جنا جناية وفر فإن حاكم البلد الذي وقع فيه ذلك يكتب كتبه إلى جميع البلدان بأنه وقع كذا، وأن صاحب الدعوى إسمه كذا وصفته كذا. ومعلوم أن هؤلاء المسافرين لا يجدون أين يأكلون ولا يشربون إلا في هذه الديار، فحين يأتي الخبر إلى حاكم المدينة بشيء من ذلك ينظر في الديار المذكورات. وكثيرا ما يجدهم في تلك الديار».

«الحاصل، هذه المدينة من عجائب الدنيا : لا تنقضي عجائبها ولو أقام الإنسان سنين فيها لا يحصى عجائبها ولا يستوفيها. وأما ما بها من الخيرات فحدث عن البحر ولا حرج : فالفواكه موجودة فيها في غير إبانها، حتى تجتمع فاكهة السنتين».

الأوراق 209 ـ 213

---

(2) تعبير مغربي دارج يعني التسجيل والضبط كتابة. نقرأ في «**المعجم الوسيط**» : زمّمه : زمّه. يقال : زمَّمَ الجمل : شدّ عليه الزمام. فهي، في اللسان المغربي الدارج، تفيد إذن معنى التشديد والتأكيد.

محمد الحجوي

الرحلة الأوروبيـــة



توجد مخطوطة «**الرحلة الأوروبية**»، في قسم الوثائق والمخطوطات في الخزانة العامة بالرباط ــ ضمن «مجموع» يضم مجموعة كبيرة من تقاييد ومؤلفات محمد إبن الحسن الحجوي وتحمل الرقم التسلسلي 115 ح.

مجموع أوراق المخطوطة 154 ورقة مكتوبة بخط مغربي، جيد الرسم بصفة عامة، راجعها المؤلف وحَمَّل طرة الأوراق إضافات وتنقيحات كثيرة، بل متداخلة ؛ مما يجعل قراءتها تعسر على من لم يكن متمرسا بقراءة المخطوطات المغربية ومتمكنا من معرفة الرسم المغربي وضوابطه في الإملاء (النقط، التعشير، الوقف...).

جعل الحجوي لمؤلفه عناوين فرعية، أثبتها في نصها وصورتها، كما ذيل النص، في بعض الأحيان، بهوامش أورد فيها تعليقات وشروحا قليلة. حافظت على تلك الهوامش وأدرجتها في الترتيب التسلسلي لما أضفته من هوامش، اقتضتها ضرورة تقريب النص من القارئ قدر الإمكان.

تحاشيت إحداث أي تغيير أو تحوير في النص الأصلي : حرصا على الأمانة العلمية أولا، وتقديرا مني لوجوب المحافظة على إيحاءات النص ثانيا («فرانسا» عوض فرنسا، «النجليز» عوض الإنجليز، «البليس» عوض البوليس، إلخ.).

لا أريد، أخيرا، أن أترك النص بين يدي القارئ دون أن أتوجه بتحية الشكر والتقدير للموظفين العاملين في قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرابط على ما أفتأ أجده منهم من حسن مساعدة وكريم معاملة. كما أتوجه بالتحية ذاتها إلى كافة الزملاء الذين أفدت من مساعداتهم واستشاراتهم أثناء انكبابي على إعداد المخطوطة للنشر.

سعيد بنسعيد العلوي.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله.

حمدا لمن أمر بالسير والنظر في ممالك الأرض وأحوال البشر، من بدو ومن حضر، من مضى منهم ومن حضر ليكون ذلك عبرة لمن اعتبر. والصلاة والسلام على صفوة مضر وعلى ءاله وصحبه الذين رحلوا لتهذيب شعوب الأمر بمحاسن الدين، فنالوا من ذلك كل وطر.

أما بعد، فإني رحلت إلى فرنسا وإنكلترا في هذه السنة، 1337 موافقه 1919، بأمر مولوي يوسفي دام نصره وعز أمره ورأيت أن أقيد ما شاهدت في رحلتي هذه، لإفادة أهل المغرب الذين لم يرحلوا ولم يعرفوا شيئا من أحوال أوروبا. ولم أرد أن أضخم رحلتي هذه بالتكلم على جغرافيات البلاد وتاريخها القديم والحديث، فإن لكل من العلمين كتبا معلومة يستغنى بها عن النقل منها. وقد تجافيت عن الإكثار، فقلما سلم مهذار، بل اقتصرت في الغالب على ما شاهدت واختصرت كثيرا ما عاينت لكون غيري بسط القول في ذلك. والتوسط في التأليف من أحسن المسالك، والله المسؤول أن يحفظنا من عثرات اللسان وهفوات البيان والبنان. ثم أعتذر بعدم معرفتي للغة القوم الذين أتكلم عن أحوالهم، وعندي يقين أني ما وصفت إلا ما ظهر لي من أحوالهم وتركت كثيرا مما ينبغي ذكره مما لا يتوصل إليه إلا بمعرفة لسانهم. ومع ذلك لا تخلو رحلتي هذه من فائدة، لاسيما لعلمائنا الذين لم يرحلوا لتلك الديار ويتصورونها بصورة لا تنطبق على الحقيقة عند الاختبار ــ وهو المسؤول في الإعانة والتوفيق لأقوم طريق.

في الساعة 5 عشية الأربعاء ثالث شوال سنة 1337، موافق 2 يوليوز سنة 1919، صدر لي أمر جلالة مولاي السلطان بالسفر إلى باريز لحضور عيدي الجمهورية وصلح النصر اللذين سيكونان في يوم واحد، وهو 14 يوليوز الجاري، صحبة وفد مغربي من نخبة المغاربة، رئيسه الوزير الأكبر السيد الحاج محمد المقري ومعه تسعة أعضاء، العبد الحقير أحدهم بصفة كوني نائبا عن فاس عاصمة العلم وعن المغرب الشرقي، وباقي الأعضاء هم : الحاجب السلطاني الفقيه العلامة الشهير

سيدي التهامي عبابو، وزير الأملاك المخزنية السيد الحاج عمر التازي، ورئيس التشريفات الملوكية السيد الحاج عبد القادر ابن غبريط، وباشا مراكش السيد الحاج التهامي المزواري الأجلاوي، وقائد الرحامنة بها السيد العيادي الرحماني، وباشا طنجة السيد الحاج عبد السلام إبن عبد الصادق، وباشا العاصمة الإدارية السيد عبد الرحمن بركَاش، وباشا الجديدة السيد علال قاسمي الدكالي[1]. فأجبت بالامتثال وأمرت السفر غدا فاعتذرت بكثرة الأشغال فطلبت مهلة بطريق المقول السلكي فأمهلت ليوم الجمعة. فتوجهت على بركة الله ومعونته يوم الجمعة خامس شوال ساعة 6 صباحا على متن أتومبيل خاص إلى الرباط فمررت على مكناس، فعين الجمعة، فالقنيطرة، فسلا، فالرباط. وقد وصلته في الساعة 11,5 وأفطرت هنالك، وأمرت بالسفر للدار البيضاء لمرافقة أعضاء الوفد الذين يسافرون معي عن طريق بوردو بحرا إلى فرنسا وهم : باشا الحمراء، وقائد الرحامنة، وباشا الجديدة ـ وباقي الوفد توجه على طريق طنجة فإصبانيا برا إلى بوردو، وهناك تجتمع هيأة الوفد ويتوجه رسميا إلى باريز مجتمعا. فبت ليلة السبت في الدار البيضاء عند عاملها السيد عبد اللطيف التازي وكان وصولي لها في الساعة 6 عشية الجمعة.

ركوب البحر

وفي الساعة 11 نهار السبت ركبنا جميعا متن الباخرة فجيج[2]، إحدى بواخر الشركة تراز أتلنتيك، آشترته الشركة المذكورة أخيرا من شركة الباكيطات النجليزية[3]. وحين ركوبنا كان البحر الأطلانطيكي متهيجا فوصلنا بمشقة عظيمة من قارب أطومبيلي إلى سلم الوابور الذي كان راسيا بعيدا من المرفإ الصناعي الذي أسس في المرسى المذكور لكونه لا تدخله المراكب الكبار لهذه الباخرة، ولذلك احتجنا إلى عناء شديد في الوصول لدرج السلم بوصولنا لها أيقنا بالنجاة والحمد لله. ولما استوينا على

---

(1) لأغلب الشخصيات المذكورة ذكر كثير في تاريخ المغرب المعاصر، في مطلع القرن العشرين (المقري، الجلاوي، بن غبريط، اعبابو.. وغيرهم). لم نشأ أن نثقل على القارئ بذكر ترجماتهم وأخبارهم، ولم نشأ أن نخوض في تفاصيل التاريخ الحديث للمغرب في العقدين الأولين من القرن الحالي. لذلك فنحن نكتفي بهذا التنبيه.

(2) **فجيج** : اسم مدينة مغربية في المغرب الشرقي، تقع على مقربة من الحدود المغربية الجزائرية.

(3) **تراز أتلنتيك** (Transatlantique) ؛ **الباكيطات**، مفرده **باكيط** (Paquet).

ظهره ذكرنا نعمة الله بالسلامة وقلنا ﴿الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾، ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾[4].

وودعنا في الديوانة باشا الدار البيضاء وأقبل لوداعنا من الرباط جناب المقيم[5]، فصعد المركب على ما كان من هياج البحر لكون هيجان البحر يعجبه لا يؤثر عليه بل ينشط لممارسته إياه قائلا : إني مسرور بحضوركم في احتفال الجمهورية الفرنساوية بالنصر والصلح. وعرفنا بأسماء الأعضاء الذين سيذهبون على طريق إصبانيا، وأننا نجتمع بهم في مرسى بوردو وأنه كلف ترجمانه الخاص السيد محمد نهليل مع موسيو المير، خليفة مستشار الدولة المغربية بلقينا في بوردو، ومرافقتنا. وقدم لنا طبيبا عسكريا برتبة قبطان، وترجمانا عسكريا أيضا برتبة فسيان[6]، وهو ترجمان محكمة أكَادير ليكونا لنا رفيقين بحرا وفي بوردو. وأنسنا بعباراته الأنيسة الأنيقة برهة من الزمن ثم ودعنا ورجع إلى بره.

وفي الساعة 12 تحركت المركب حركة السعادة والسلامة، فلم ننشب أن غاب عنا وطننا المحبوب ودخلنا لجة المحيط، ﴿والله من ورائهم محيط﴾. ثم إن المركب كانت في غاية الامتلاء بالركاب بسبب كثرة من ذهب من المغرب لحضور الاحتفال بالنصر وقلة المراكب المتسببة عن الحرب حتى إن بعض خدمنا لم يجد فراشا فكان ينام على الأرض.

وبعد الخروج من المرسى، وخذت المركب سيرها حثيثا نحو الديار الفرنساوية وكان البحر لم يزل في اضطراب فأثر ميد البحر علي تأثيرا مضرا على عادته معي ومع كل صفراوي ولم يفدني معه التجلد ولا ما استعملته من المقيئ لعلي أتخلص من غوائل الصفراء فكنت مهما أخرجت منها شيئا إلا وحرك ميد البحر غيره. وبقيت أعالج داء الميد من غير طعام ولا شراب إلا ما يسد الرمق ذلك اليوم والذي بعده. نعم، في اليوم الثالث بعد ذهاب خلط الصفراء تماما حصل لي انتعاش ووجدت بعض الراحة من دوران الرأس وغثيان القلب، فتناولت ماء مثلجا سكن به قلبي نوعا وتناولت بعض الطعام ولكن أضر بي الزكام، وهو أهون مما كنت أعالج من داء الميد. على أن البحر

---

(4) **سورة الزخرف** (الآية 13) ؛ **سورة هود** (الآية 41).

(5) يقصد المقيم العام الفرنسي الأشهر **Lyautey (Louis Hubert)** (1854–1934) في المغرب في الفترة 1912–1925.

(6) **فسْيان** (بتسكين الفاء والسين معا) : تحريف، في اللسان المغربي الدارج للكلمة الفرنسية **Officier**.

كان في اليوم الثالث أشد منه في اليوم الأول، ومع ذلك لم يؤثر البحر علي. وفي اليوم الثاني قبله كان البحر أحسن منه في الثالث ومع ذلك كنت مريضا، فدلني على أن مرض البحر هو من الأخلاط الباطنة التي مهما ذهبت ذهب ولو هاج البحر، ومهما بقيت بقي ولو سكن.

وصف وادي بوردو الجميل المنظر

ولما كان يوم الثلاثاء، أواسط النهار، رأينا ما أفرح قلوبنا وأزال عنا الأكدار وهو ظهور البر. فبدا لنا مصب نهر بوردو في البحر الأطلانطيكي وصرنا كلما نصت المركب في سيرها قربت منا مناظر البر الجميلة. ولا تظن أنها ظهرت لنا جميلة في أعيننا إذ ذاك لشوقنا للبر وأنها ليست جميلة في الواقع، بل أحقق لك أن ميد البحر ذهب عني وصفا ذهني وفكري فيمكنك أن تعتمد على قولي هذه المرة. فأحقق ذلك أن الشاطىء الذي نراه هو شاطىء جميل للغاية، بل لا يكاد يوجد أجمل منه، فهو شاطىء ممتد طويلا ناشرا جناحين أخضرين على عرض البحر. ريشه أشجار الغابات اليانعة المتناغية في الجو، المنتظمة الترتيب المتقاربة في العلو، تبدو رؤوسها دقيقة متناسقة يتميز بعض عن بعض مهما صعدت النظر في ملتقاها مع السراب. فإذا صوبت النظر إلى أسفلها تراها اشتبكت واتصلت، فكأنما هي بردة من يانع يسحب، وخضرتها بالأرض الخضراء اتصلت، وكأنما هي رفرف أخضر على حاشية البحر الأهدر بين وادي الغارون الذي شق البر والبحر معا في آن واحد فهو في البر أبيض بين أخضرين وفي البحر أبيض بين أزرقين، فالأزرقان متماثلان والأخضران متشابهان متقربان ﴿مرج البحر يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾[7]. ولما دنونا من القنال خرج منه مركب صغير ليقود مركبنا الكبير، لما في دخول الوادي من الخطر ومزالق الزلل فصار الصغير إماما والكبير مأموما لما عند ذلك الصغير من زيادة العلم. فعلمنا أن الرياسة ليست بكبر سن ولا بِعِظَمَةِ جثة، وإنما يستحقها من له مزيد علم ومعرفة. فتقدم الصغير وتلاه الكبير يقتفي أثره ممتثلا أمره لا يخرج عن خطه المرسوم ورمزه المفهوم ــ ولله در القائل[8] :

تعلم فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كمن هو جاهل

(7) سورة الرحمٰن (الآية 18).

(8) لم أقف على اسم الشاعر.

فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا ضمت عليه المحافل
ولا ترض من عيش بدون ولا يكن نصيبك إرثا قدمته الأوائل

مع أن اتساع مصب الوادي لا يقل عن إثنى عشر كيلو مطرا وطوله إلى المدينة يقدر بمائة كيلوميطر. وعند دخول الوادي نقصت المركب من قوة سرعتها وسارت الهوينا وكان ذلك أجمل بنا وأشهى لنفوسنا فكنا نمتع النظر يمينا ويسارا في مناظر بلغت النهاية في الحسن والجمال الطبيعي والصناعي، بل ما رأيت أكمل ولا أجمل من هذا المنظر، إذ بعد خروجنا من البحر ودخولنا في الوادي صرنا بين ساحلين جميلين متماثلين في أن كلا منهما ذو أشجار باسقة وأغصان متناسقة على أرض خضراء لا ترى فيها غبراء : ننقل طرفنا من منظر ماء الوادي الذي كان هادئا صافيا إلى أرض خضراء مكسوة بحلة النباتات الجميلة الخميلة، ومنها نصعد النظر في الشجر النابت فوقها، المجانس لونه للونها. فلون الأرض ربيعي، ولون الشجر يانع ضارب إلى السواد، ومهما بعدت الأرض عن الماء واتسعت إلا وارتفعت وعلت فعلاها الشجر، فكانت رؤوس الشجر عند منقطع النظر مطاولة للجو محاولة بلوغ السماء ذات ترصيف وتهصنيف وبين تلك الأيك، والغصون التي تذهب مناظرها بالأتراح والشجون وتجلب الأفراح للقلب المحزون أبنية أنيقة ودور بين الأغصان الوريقة منبثة بين تلك الأحراج الغناء كلآلئ أو درر ألماس نثرت على خميلة خضراء أو نجوم تلمع في السماء في ليلة قمراء. وكم هناك على ضفة الوادي من جزيرة خضراء لكن لم يقع فيها مؤتمر دولي ولا عهد قولي، غير فعلي[9]، ولكنها جزيرة حقيقة محاطة بالوادي إحاطة السوار بالمعصم والمنطقة بالخصر المكلثم. وفي داخل منطقة الماء منطقة من الأشجار ذات ثمار وغير ثمار حتى كأن الجزيرة حديقة أو آنية زهر وربيع في وسطه سريج[10] ماء غريقة ووسط الجزيرة شجيرات العنب ذات صفوف منظمة وفلاحة

---

(9) في كلامه تورية : فهو يقصد مدينة «الجزيرة الخضراء» (Algésiras). في تاريخ المغرب المعاصر تقترن بالمؤتمر الذي انعقد فيها سنة 1906، حيث فرضت الدُّول الأوروبية (المتنافسة على استعمار المغرب) شروطا ثقيلة مجحفة كانت هي البداية الفعلية لإستعمار المغرب. توقيع عقد الحماية (30 مارس 1912) نتيجة طبيعية، حتمية، لسياسة إمبريالية كان المغرب مستهدفا لها منذ ثمانينات القرن الماضي. قوله : «عهد قولي لا فعلي»، يتضمن الإشارة إلى ما لم تلتزم به الدول المجتمعة في إسبانيا (مؤتمر الجزيرة الخضراء) تجاه المغرب.

(10) **سريج** : تحريف في اللسان المغربي الدارج لكلمة **صهريج**. والملاحظ من قراءة النص، بل من قراءة كتابة الحجوي عموما، أن مؤلف **«الرحلة الأوروبية»** كان يؤثر إيراد المصطلح المغربي الدارج حرصا على الدقة في التعبير كلما تعلق الأمر بلفظة أو عبارة من اللسان المغربي الدارج (مع امتلاكه لمقدرة لغوية هائلة).

مقومة ظهرت فيها فلاحة العنب بأكمل مظاهرها وأعانتها الأرض بخصوبتها وجمال طبيعتها وحسن موقعها ومجاورة الوادي يوافقها ويرفعها رطوبته ووفرة المياه الدافقة وفصاحة ألسن الطير الناطقة وإن لم تكن ناطقة. وما أحق تلك الجزر أن تسمى جزر الذهب، وكل جزيرة لا تخلو من دار ظريفة الشكل وحديقة عديمة المثل فما أقدر خالق الإنسان وموفقه إلى إبداع ما يكل عن وصفه اللسان.

لعمر الله إن منظر هذا الوادي يسحر الألباب ويوجب الإعجاب، ما رأيت مثله فيما وصلت إليه من الأقطار الإفريقية. فلو ضرب لي في الشعر بنصيب ورميت في ميدانه بسهم مصيب لتركت وصف وادي الجواهر[11] وأبي رقراق[12] ونظمت لهذا ما يزين الأطواق ويعمر الأوراق ويستحسن في الأذواق، فالمجال هنا واسع للشاعر والناثر لا كما وقع لمن وصف الواديين المذكورين. ضاق به المجال فترك المقصود من وصف المكان وخرج لوصف السكان، فمنظره هذا آخذ بالأبصار يستوقف لمشاهدته المستعجلين من السفار فمبدأه بالنسبة للداخل، وهو منتهاه، وسيع فسيح وما دام المركب يقترب بنا من المراسي والوادي تتقارب حافتاه ويجتمع فخذاه ويضيق عرضه على آمتداد طوله فكان شكله قريبا من المثلث، وإن لم يكن قائم الزوايا، وفيه من المراكب الراسية عدد كثير، كبير وصغير، شراعي وبخاري، يمينا ويسارا، من مصبه إلى المدينة وكل حافتيه تقريبا كمدينة لعمارتها بالأبنية والدور والبساتين. وبالجملة، فلقد أنسانا جمال هذا الوادي وحسن موقعه وتعدد مناظره الجميلة كل ما تقدم من ميد البحر ومعاناة دوار الرأس وغثيان القلب وكرب الغربة وكيف لا يُنسى الأتراح والهموم بسيط من الماء الصافي الذي لا موج فيه ولا لُجة، براء من ارتجاج عانه الذوق السليم ومجد محاط بكل ما يستحسنه الطرف ويهواه الناظر ويتسلى برؤيته كل ناظر من خضرة الأرض التي تنبسط تارة وترتفع أخرى وبانبساطها وارتفاعها تعنو أغصان الشجر وترتفع ولكن البعض أقصر من البعض، متناسقة متوازية كالمصلين في المساجد الجامعة راكعين قائمين. وناهيك بهذه اللذة العظيمة الممزوجة بلذة بشارة وصولنا لمأمن البحر وأمننا من سطوات البحر الخضم وثقتنا برؤيتنا البر معاينة وثبات قدم مركبنا ودخول عامل النصب بعد تلاعب عوامل الخفض والرفع به. فلقد وَجِدنا من ملاذ المسرات بذلك وجِدْاناً لا نقدر على وصفه، ولو بلغ قلمي من الطلاقة ولساني

---

(11) **وادي الجواهر** : هو وادي فاس الشهير (ملاحظة للمؤلف).

(12) **وادي أبي رقراق** : هو الوادي الفاصل بين سلا والرباط (ملاحظة للمؤلف).

من الفصاحة ما عسى أن يصل، إذ لا سبيل لاستيفاء وصف الوجدانيات التي لم توضع لها أوضاع لغوية توفيها حقها في البيان وتكشف عما يثلج في الجنان. فلقد تهللت الوجوه واستنارت بعد العبوس؛ وسبحان من يتدارك عبيده بعد البوس.

وظلت أبصارنا متمتعة بتلك المناظر الباهية، وعمن سواها لاهية، مدة خمس ساعات أقصر من مرور طيف خيال أو خطور خاطر بالبال وليتها قدم له صفر أو صفران ولاكن ساعات المسرة دقائق أو ثوان، ما فيها مهلة ولا توان. وبينما نحن كذلك إذا بعامل الجزم قد دخل على مركبنا فأحدث السكون، إذ وصلت لموقفها الأهُون وسامتت الرصيف المدعُو في اللغة الدارجة بالمون. ولما سامتت رصيف شركة تراز اتلنتيك وقابلت مخزنها على نهر الغارون جعلت تمشي على جنبها الهوينا، بكل حذر، حتى وصلت إلى الرصيف. وهناك نزلت السكينة على السفينة، واستوت على جُودي حوض تكون به أمينة، ونصب عليها مجاز خشبي منها إلى البر.

وأول من صعد إلى المركب الجنرال بوردو، حاكم المدينة، وأركان حربه قدم للسلام على الوفد نيابة عن وزير الحربية الفرنساوية فرحب بنا غاية الترحيب وهنأنا بسلامة الوصول ومعه موسيو لومير، نائب مستشار الدولة المغربية، فعرف الجنرال بكل واحد منا وهو الذي صحبنا إلى المحل الذي أعدته الدولة لنزولنا وهو فندق بايون[13] الذي لا أجمل منه فيما رأينا بمدينة بوردو. ونزل الجنرال معنا من المركب إلى أن أركبنا أوتومبيلات التي أعدت لنقلنا لمحل النزول. وكان وصولنا لمرسي بوردو في الساعة السابعة عشية الثلاثاء سابع شوال، ثامن يوليوز، وهنا تبدلت عنا الساعة المغربية لأن ساعة فرنسا بل وانكلترا تتقدم على ساعتنا الآن بساعة واحدة ونصف، فالساعة السابعة هنا هي بحساب المغرب الخامسة ونصف تقريبا : فنصف ساعة كان معْلوما من قديم وزيدت ساعة في هذه الحرب العظمى اختلسوها من الليل وزادوها في النهار لقصد الاقتصاد في الضوء وغيره.

وصف مرسى بوردو

وهي مرسى تجارية فرنسوية من المراسي العظيمة التي هي نقطة اتصال بين فرنسا وإفريقيا وأمريكا وأوروبا بحرا، وهي من حيث كثرة الحركة التجارية في الدرجة الثانية بعد مرسيليا. وواديها هو مرساها الطبيعي الذي يحمل الألوف المؤلفة من

(13) لم أقف على اسم الفندق، ربما كان هو Bayon.

المراكب آمنة من تيار البحر: فهي مرسى طبيعي آمن وهو الذي صير بوردو ذا أهمية كبرى بين المدن الفرنسوية. نعم المراكب الكبرى لا تدخله ولا تخرج منه إلا عند المد دون الجزر، لأن عمق الوادي عند الجزر غير كاف لسيرها على عظمه. وهذا الوادي هو المسمى وادي الغارون[14] من الأودية الشهيرة في العالم بكبره فهو أشبه ببحر منه بواد إذ يصب فيه نهر الدردون[15]فينشأ من آجتماعهما نهر الجيروند[16] وهو خليج بوردو، وقد صنعوا على حافتيه رصيفين عظيمين عن اليمين واليسار على طول نحو تسعة كيلوميطرا. وهذه الأرصفة تتسع لأزيد من ألف سفينة تقف حذوها للوسق والوضع دون آحتياج إلى زوارق بل تخرج البضائع من المركب إلى الخزين فترى هناك أصواف وجلود الجمهورية الفضية[17]، وسكر وقهوة البرازيل، وكاكاو فينزويلا، ونحاس شيلي، وقطن الولايات المتحدة مع الكاز والتبغ، وفحم إنجلترة، وفحم روسيا، ورخام وزيت إيطاليا، ومعادن إصبانيا، وليمون البرتغال، وحبوب المغرب وحيواناته وفوسفاطه وبقية محصولاته، ومحصولات السينغال وغيره من الممالك الإفريقية والأوروبية والأمريكية. وأكثر ما رأينا فيها المعدات الحربية الأمريكية والذخائر والمؤن التي أتت بها الولايات المتحدة للاشتراك مع فرنسا وحلفائها في الحرب الأوروبية العظيمة حتى أنها صنعت أرصفتها على حافة الوادي وبنت المخازن وجعلت مرسى عظيمة خصوصية لذلك ومدت الخطوط الحديدية والتلغراف والتليفون ومهدت الطرق الصناعية، حديدية وغيرها، من بوردو إلى ساحة القتال بحيث كانت المواصلة من أمريكا بحرا وبرا في غاية السهولة والنظام، وستأتي الإشارة إليه.

ودون هذه الأمور الحربية فإن مرسى بوردو تزيد على ثلاثة ملايين طن بضائع توضع فيها كل سنة وتحمل منها. وفي واديها عدة منائر تضيء الطريق للسفن الداخلة والخارجة من الوادي وأعظمها منارة كوردڤان[18] البالغ ارتفاعها سبعين ميطرا تبلغ أنوارها الممتدة مسافة ثلاثين كيلومطرا.

---

(14) La Garonne.

(15) La Dordogne.

(16) La Gironde.

(17) لعله يقصد الأرجنتين.

(18) منار كوردوڤان : الأصح أنها كوردوان (Phare de Cardouan). من المآثر التاريخية المعروفة في مدينة بوردو. شيدها لويس الطيب (Louis le Débonnaire) في القرن التاسع وأعيد بناؤها عدة مرات في القرن الرابع عشر (1362–1370) وفي القرن السابع عشر (1610)، ثم كانت المرة الأخيرة في القرن التاسع عشر (1788–1789).

المراكب آمنة من تيار البحر: فهي مرسى طبيعي آمن وهو الذي صير بوردو ذا أهمية كبرى بين المدن الفرنسوية. نعم المراكب الكبرى لا تدخله ولا تخرج منه إلا عند المد دون الجزر، لأن عمق الوادي عند الجزر غير كاف لسيرها على عظمه. وهذا الوادي هو المسمى وادي الغارون[14] من الأودية الشهيرة في العالم بكبره فهو أشبه ببحر منه بواد إذ يصب فيه نهر الدردون[15]فينشأ من آجتماعهما نهر الجيروند[16] وهو خليج بوردو، وقد صنعوا على حافتيه رصيفين عظيمين عن اليمين واليسار على طول نحو تسعة كيلوميطرا. وهذه الأرصفة تتسع لأزيد من ألف سفينة تقف حذوها للوسق والوضع دون آحتياج إلى زوارق بل تخرج البضائع من المركب إلى الخزين فترى هناك أصواف وجلود الجمهورية الفضية[17]، وسكر وقهوة البرازيل، وكاكاو فينزويلا، ونحاس شيلي، وقطن الولايات المتحدة مع الكاز والتبغ، وفحم إنجلترة، وفحم روسيا، ورخام وزيت إيطاليا، ومعادن إصبانيا، وليمون البرتغال، وحبوب المغرب وحيواناته وفوسفاطه وبقية محصولاته، ومحصولات السينغال وغيره من الممالك الإفريقية والأوروبية والأمريكية. وأكثر ما رأينا فيها المعدات الحربية الأمريكية والذخائر والمؤن التي أتت بها الولايات المتحدة للاشتراك مع فرنسا وحلفائها في الحرب الأوروبية العظيمة حتى أنها صنعت أرصفتها على حافة الوادي وبنت المخازن وجعلت مرسى عظيمة خصوصية لذلك ومدت الخطوط الحديدية والتلغراف والتليفون ومهدت الطرق الصناعية، حديدية وغيرها، من بوردو إلى ساحة القتال بحيث كانت المواصلة من أمريكا بحرا وبرا في غاية السهولة والنظام، وستأتي الإشارة إليه.

ودون هذه الأمور الحربية فإن مرسى بوردو تزيد على ثلاثة ملايين طن بضائع توضع فيها كل سنة وتحمل منها. وفي واديها عدة منائر تضيء الطريق للسفن الداخلة والخارجة من الوادي وأعظمها منارة كوردڤان[18] البالغ ارتفاعها سبعين ميطرا تبلغ أنوارها الممتدة مسافة ثلاثين كيلومطرا.

---

(14) La Garonne.

(15) La Dordogne.

(16) La Gironde.

(17) لعله يقصد الأرجنتين.

(18) **منار كوردوڤان** : الأصح أنها كوردوان (Phare de Cardouan). من المآثر التاريخية المعروفة في مدينة بوردو. شيدها لويس الطيب (Louis le Débonnaire) في القرن التاسع وأعيد بناؤها عدة مرات في القرن الرابع عشر (1362–1370) وفي القرن السابع عشر (1610)، ثم كانت المرة الأخيرة في القرن التاسع عشر (1788–1789).

عجائب الدنيا وغرائب أعمال البشر، أعظم من قنطرة إسكندر الثالث التي على وادي لاسين في باريز، لأن هذا الوادي أعظم من وادي لاسين بكثير، اللهم إلا ما كان من قنطرة قسمطينة في أرض الجزائر فيظهر لي أنها أعظم من هذه فيما أظن. وقد تأسست هذه القنطرة قبل اليوم بنحو ثلاثين سنة وبإزائها القنطرة الأخرى الحديدية أكثر منها ارتفاعا وأقل آتساعا تمر عليها السكة الحديد. ولما توسطنا القنطرة الأولى رأينا منظرا من أحسن المناظر وهو متسع من الماء أسفل منا، وجنات العنب يمينا ويسارا مما يأخذ باللب ويستهوي حاسة البصر فترى الوادي على آتساعه محفوفا بزرابي خضراء جميلة منمقة بالأزهار والأشجار، تحفها الأشجار العالية ذات الظل الممدود والماء العذب المورود. بينها أبنيةٌ لطيفة الشكل كلها غرر في جبين هاتيك الأرض الجميلة التي وجدناها كأنها أرض المغرب في شهر مارس وهناك سرب من البقر الضليع سائمة وأجسامها نائمة بكثرة وما حولها من أنواع النبات الخصيب والجو الرطيب. ومررنا في طريقنا هذه على عساكر الأمريكان وخزائن ذخائرهم التي لا تزال البواخر ترد الكثير منها إلى أمريكا الشمالية من مدافع هائلة وآلات الجر والحمل والسكك الحديد الممتدة من هناك إلى مواقع القتال. ومن العجب أنهم يردون كل شيء إلى بلدهم وما باعوا شيئا ولو من أثاث بيوتهم التي لا فائدة في ردها بخلاف النجليز، فقد باع في فرنسا كثيرا من المؤن ولوازم الحرب كالصوف بل حتى الخيل باع منها شيئا كثيرا ولا زال يبيع. وهناك يتصور الإنسان قوة أمريكا وما بلغت إليه الثروة والاستعداد. وكذلك رأينا شيئا كثيرا من خزائنهم وذخائرهم في الطريق بين بوردو وباريز. ففي مدة قرن ونصف تبلغ أمة حديثة الاستقلال هذه العظمة ؟ إن ذاك لشيء عجيب ! وما كان استقلال هذه الدولة إلا سنة 1776 مسيحية. فهنا يتحقق العاقل مغزى قوله تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم ويات بخلق جديد﴾[20].

ورأينا هناك بقربهم قنطرة برية طويلة عالية شاهقة ممتدة على البر من شاطئ الوادي إلى محطة السكة الحديدية الداخلة إلى أرض فرنسا، وتلك القنطرة من أسلاك مكهربة تجري فيها جفان حديدية معلقة في عجلات صغيرة مماسة للسلك الكهربائي وقوة الكهرباء تدفع العجلات التي علقت فيها الجفان، وتلك الجفان تملأ فحما حجريا من المراكب البحرية وتذهب من الوادي إلى المحطة الحديد محمولة في الفضاء. فإذا سامتت المركبة المعلقة قطار السكة الحديد انكفأت فيه مسرعة فانهار ما فيها من

(20) سورة فاطر (الآية 16).

الفحم بداخل القطار، وكل جفنة فرغت رجعت على غير طريقها بسرعة إلى المركب الحامل للفحم في الوادي فتمتلئ وتذهب ثانيا وهكذا. فهذا عمل ليس بهين، ولو أريد أن تستخدم له الأيدي لخدمت فيه المئات من الناس، لكن بواسطة هذه القنطرة وقوة الكهرباء توفرت الأعمال والأموال ووقعت السرعة في بلوغ الآمال. وهذه القنطرة محمولة على جادة الطريق المارة من المدينة إلى قنطرة الوادي وتمر تحتها المشاة والركبان فلا يسقط شيء من تلك الجفان عليهم ولا مما هو محمول فيها، بل جعلوا تحت الجفان شبكة حديد احتياطا فوق أن يسقط شيء منها على المارة. فإذا كنت مارا هناك ترى صفاً من الجفان الحديدية مملوءا فحما حجريا مارا فوق رأسك من الوادي إلى المحطة الحديدية : لا جار له ولا دافع إلا قوة كهرباء السلك، وصفاً فارغا راجعا كذلك وأنت في غاية الاطمئنان من سقوط شيء منها. وإن القوة لله وحده.

زيارة حكام بوردو والمجلس البلدي ومتحفه

وفي اليوم الثاني من دخولنا، وهو يوم الأربعاء، زرنا الجنرال حاكم المدينة العسكري ومنه توجهنا لزيارة البلدية فزرنا شيخ المدينة، وكان غائبا عنها، فقام نائبه مقامه وقابلنا مقابلة لطف وأدب مثل مقابلة الجنرال أيضا ـ وهذا خلق عمومي في الفرنساويين ولكنه يزداد لطفا وإيناسا في أكبرهم رتبة على قدر زيادة ترقيهم. فتجد شيخ المدينة مثلا أزْيَدَ أدبا ولطفا ممن تحته في الرتبة إذ لا يرشح للمناصب الكبار عندهم إلا الكبار وليس المراد الكبار الجثة أو العمامة أو، أو، بل الكبار قلبا وعلما وأخلاقا. ولقد أدخلنا هذا الرجل لمحل اجتماع المجلس البلدي وأرانا كيفية جلوس الأعضاء في مقاعدهم. وأُجْمِعُ لك وصف هذا المجلس بأن نقول إنه على قدر عظمة المدينة ورفاهيتها وحرية أفكار أهلها وارتقائهم : فلا تَقِسْه ببلدية فاس مثلا. ثم أدخلنا لمتحف البلدية في جوار المجلس وهو متحف مهم في بيتين أحدهما يدخل منه الآخر وكل منهما عبارة عن قبة كبيرة مربعة في استطالة طولها نحو العشرين ميطرا فأكثر وعرضها نحو النصف من طولها، عالية البناء جميلة الزخرفة. وأما التُّحف التي فيها فجلها عبارة عن مجموعة تصاوير كثيرة غالبها صور أناس من إسبانيا كانوا قبل مائتي سنة. ورأيت لباس نسائهم يقرب من لباس نساء الجزائر، فعلمت أن غالب زي نساء الجزائر أتاها من الأندلس. وكل ذاك مرسوم بيد رسام اصبنيولي كان حاضرا معنا يرينا ذلك، والمقصود تمثيل الذوق الإسبنيولي في التصوير الملون الذي يطابق طقس أرضهم الصافية الأديم من السحاب بخلاف جو فرانسا الذي يكون مغيما

غالباً فلا يكون فيه التصوير مماثلا لإسبانيا. ورأينا هناك من جملة التحف جلوس ملك إسبانيا من أنفس المقاعد، مدهون بدهن صيره كأنه معدني لا خشبي وبعض أثاث بيته وصورته وصورة زوجته وقرابته. هذا في القبة الأولى. أما في القبة الثانية، وهي أعجب من الأولى، ففيها مثل ذلك الصور في عمل النسخ على طريق أهل الصين.

وبعد الزيارة رجعنا لنزلنا، فجاء الجنرال ورد الزيارة، ثم بعده رئيس البلدية وحاكم البلدية. وفي هذه الليلة قدم بقيةُ أعضاء وفدنا عن طريق إسبانيا ونزلوا في فندق بوردو، وهو من المنازل المهمة في المدينة أكبر بناء وأضخم من النزل الذي كنا فيه ولكن من حيث حسن الشكل وظرافة الزخرفة الأول ألطف، لأنه أحدث بعده : فهو من آخر طرز هناك.

واجتمعنا بهم صبيحة الغد، وركبنا جميعا وزرنا بعض أحياء المدينة ومتعنا النظر في بعض ضواحيها المزينة بأنواع الفلاحة الراقية، وفيها الحيوانات الراتعة وخصوصا نوع البقر. فالبقر هنا أعظم وأضخم من بقر المغرب بكثير، ويقولون إنه من نسل بقر سويسرا الشهير في العالم، فالبقرة هنا تعدل بأربعة وأكثر من بقر المغرب لعظم جثتها وكمال جسمها وربما استعملوها في جر الأثقال وفي الغالب يحرثون عليها فهي التي تجر آلة الحرث والحالة هذه وهي في غاية السمن كأنها لا تعمل شيئا من كثرة المرعى، لكثرة الأمطار والمياه وحسن المقابلة ورقي فن الفلاحة وفن تربية الحيوان، فإننا ما دمنا في بوردو والمطر يتعاهدنا رذاذا وديمة. فكيف لا تكون الحيوانات سمينة، ضليعة، بأغلى قيمة ولو جرت الأثقال العظيمة ؟!

توجه الوفد إلى باريز

ويوم الجمعة 11 يوليوز توجه الوفد بهيئته الرسمية إلى باريز، عاصمة الجمهورية الفرانسوية. فركبنا القطار من محطة بوردو الحديدية في الساعة الثامنة صباحا وتوجهنا، والعناية الإلهية تقدمنا بخير وسلام، فمررنا بأرض جميلة متنوعة المناظر آهلة عامرة بأنواع العمائر والسكان والقرى والمدن. فمررنا على مدينة روا[21] التي فيها قصور ملوك فرانسا كانوا ينزلون بها للاستراحة من الصيد في تلك الغابات الغناء التي بين بوردو

(21) Rouen.

وباريز. فإنا منذ خرجنا من بوردو ونحن نرى أشجار الغاب حافة بنا عن اليمين والشمال وبينها المزارع، والفلاحات، والأودية، والمياه، والمنازل، والدور، والقصور، والضياع، والقرى، والدساكر[22]. فلا تلتفت يمينا ولا يسارا إلا وترى شيئا من ذلك إما كلا أو بعضا ولا ترى شبرا من أرض مهملا. والفلاحة العصرية راقية وآلاتها العصرية كثيرة، ولا ترى قرية إلا وطرقها منظمة ولا ترى غابة إلا وهي صينة، ولا ترى واديا إلا وعليه القناطر، ولا ترى طريقا إلا وهي صالحة إلى أن وصلنا إلى باريز في الساعة التاسعة مساء.

ووجدنا في محطتها بعض الضباط الفرانسويين نائبا عن وزير الحرب والموسيو بومارشي، الكاتب بوزارة الخارجية نائبا عن وزيرها، وترجمان المقيم العام مسيو نهليل الذي كلف برفقتنا. فسلموا علينا مهنئين هاشين، باشين مظهرين أكمل آعتناء وأحسن اقتبال، وقدموا المركبات فركبنا وذهبنا إلى محل نزولنا في كران أوتيل، أي أعظم فندق، ولما دخلنا هذه المدينة أخذت الدهشة بأبصارنا وقلوبنا لما شاهدنا من جمالها الباهر.

وصف باريز

هي عاصمة افرانسا، بل عاصمة العلوم العصرية والآداب الأوروبية، والأخلاق الجميلة، والأموال الجليلة، والظرافة، واللطافة، والكياسة والسياسة. بل أنموذج الكياسة، وموقف السياسة، ومسعى التجارة والكسب، ومسعر الهيجاء والحرب. معدن المدينة العصرية والنظامات الأوروبية، والحرية المنظمة والأخوة المحكمة والمساواة الملزمة، والاختراعات البديعة، والشوارع الوسيعة وطرق المواصلة الممهدة والمركبات التي تقرب من عدد النجوم المنجدة، والجمال الفاتن في المنازل والمساكن وما في داخل المساكن، وكل ما تقع عليه عينك فيها فهو مستحسن وبالطبع آخذ وفاتن. وبالجملة فهي حلية معاصم العواصم، وأجمل مدينة قطعت إليها أكباد الرواسم. فسبحان من جمع لها الجمال وتجلى عليها بالجمال الدنيوي الظاهر في كل شيء يراه الناظر: فأهلها ذوو ذوق لطيف مصيب، لا يميلون في أزيائهم ولباسهم ومنازلهم داخلها وخارجها إلا لجميل فلا يقع طرفك ولا يلمح ناظرك إلا الجمال في وجوه السكان وأخلاقهم ولباسهم ودورهم وحوانيتهم ومواضع الأكل والشرب والنوم والطرق. حتى المركبات

(22) **الدساكر** (ج دسكرة) : «القرية العظيمة» (**المعجم الوسيط**).

جميلة لطيفة مموهة بأدهان متنوعة ذات ألوان تأخذ بالأبصار، مجرورة بالأفراس أو النار. بل عربات النقل نظيفة والحيوانات التي تجرها لا ترى فيها عجفاء، ولا عرجاء، ولا عوراء، ولا متسخة، ولا بشيعة بل لا ترى في الشوارع التي تمر بها شيئا من المحمولات بشيعا أو قبيحا. فإذا كان بشيعا ستروه بأكياس مثلا، فلا تقع عينك إلا على جميل.

قال بعض الرحالين: أجمعت آراء العالم قاطبة أنها أول مدائن الأرض زهاء وبهاء، وما رأى الناس منذ قامت الحضارة لها نظيرا في جمال شوارعها ومبانيها ومتاحفها وحاناتها ومنتزهاتها. ويدل لهذا أنها مطمع أنظار القاصدين من أوروبا، وآسيا وإفريقيا، وأمريكا. فأصحاب المدائن العظمى الراقية يأتونها للتنزه والتفرج والتقليد على مدنيتها الساحرة ينقلون عنها طرائق التمدن الحديث، ويتغنون بها في كل حديث وعلى قبح الغربة التي أجمع أهل العقول أنها كربة تتمنى ملوك الأرض ومترفوها أن يكونوا غرباء في باريز، فهي مأوى المتنعمين والضالة المنشودة للمترفين. غير أنها كعبة الطائفين للتهتك لا التنسك، وركن التفرج والتفسح لا التبرك، ومسرح التفنن في الأزياء الكثيرة والزخارف الوفيرة والرفه البارع والتهتك بدون وازع وترتيل آيات الملذات بالتجويد والمد والإشباع وإيقاع المثالث والمثاني والأخذ بالقلوب والأسماع.

فإذا وصلت إلى مواضع التجارة ومخازن البضائع، فهناك يبهت طرفك في نضارة المحل وزخرفته وجمال منظره ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها : كل جنس مع جنسه ونوع مع نوعه، زد على هذا أن بضائع باريز هي من أحسن البضائع وأحدث المخترعات. وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا، ظريفا، ذا كسوة جميلة، ووجه بشوش، وأخلاق كريمة، وتربية حسنة وصبر وحذق فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصا أو غاليا. وهكذا إذا دخلت إلى محل الأكل والشراب، أو محل اللهو، أو محل الجد، أو محل السياسة، أو محل العلم إلا وترى الكل جميلا مجمل الهيأة : جميل الخلق والخلق، فكل يوم يمر عليك في باريز تظن فيه أن سكانه في أعظم عيد لهم. فسبحان من تجلى عليهم بكل جمال دنيوي، فلا ترى عبوسا، بل كل من يقع عليه ناظرك تراه جذلا ضاحكا إلا الجو : فإنه كثيرا ما يكون هناك عبوسا أو باكيا. لكن الأرض ضاحكة لبكائه، فشكل أرضه مخالف لشكل سمائه ولا تظهر الشمس وكمال الصحو في النهار كله بل إذا أصحت صباحا أغيمت عشية وبالعكس غالبا.

وإنها لأول المدائن العظمى معارف وفنونا جميلة، بل يحق لها أن تعد مدرسة للفنون الجميلة في العالم، وإنها لأعظم المدائن مدارس ومستشفيات ومتاحف ونواد علوم، ومطابع، وقاعات صناعات، وملاهي مراسح وحانات. فهي بؤرة اللطف والرشاقة ومطمح الذوق السليم العالي والاختراع المثمر للمعالي. ولقد أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علومهم، وكما النظام في الأعمال والأحكام وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء شيء وإتقان كل عمل ياتونه، وعلو الهمة في الترفه وحب الجمال والتظاهر بالكمال والهيام بالعلوم والمعارف. وأساس ذلك كله هو العلم، فالتعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء فكل صبي بلغ سن التعلم لابد أن يدخل المدرسة ويتعلم التعلم الابتدائي : القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب، والتاريخ، والجغرافيا، والأدب. ثم من كان غنيا وأراد التعلم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا وليس له داعية للعلم فلابد أن يعرف صناعة من الصناعات. ولذلك ترى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى، والغني والفقير. بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالبُ أفرادها كتابة ولا أدبا ولا حسابا، ولا، ولا... كأهل المغرب الأقصى مثلا. ثم هذا الذي قررنا ليس خاصا بأهل باريز، بل عموم فرانسا يوجد فيها هذا القدر من التعلم، بل عموم أوروبا تقريبا. فكل مدينة أو قرية أوروبية ترى فيها المدارس مشيدة، ونوادي العلم عامرة وقد نظمت لذلك جمعيات في كل مدينة أو قرية زيادة عن الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات، فهم لا يتكلون على الحكومة في كل شيء شيء مثلنا، ولاسيما في العلم الذي هو أهم ما يهم. ولذلك سادت غيرها من القارات، إلا ما كان من أمريكا الشمالية، لكن أهل باريز أزيد علما وأدبا من غيرهم للطف طباعهم ولما فيهم من القابلية الزائدة عما في غيرهم. ولهذا استبحر العمران في باريز وازداد عدد سكانه وكثرت قصاده من الآفاق البعيدة.

باريز على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندن، وهي في عرض[23]. تبعد عن خط الإستواء، وأطول أيامها ست عشرة ساعة وست دقائق، وأقصرها ثمان ساعات وعشر دقائق. ومساحتها الآن تبلغ **7802** هكتارا أبوابها **60** بابا، وتسعة أنفاق للسكة الحديد، وعدد محطاتها سبع كما في «**كشف المخبّا**». ومحيط دائرته يبلغ **36**

(23) فراغ في النص، بيد أنه سيذكر (لاحقا) أن خط عرض باريس هو 95 : 49. والإهتمام بمعرفة خط العرض يفسر الإنشغال بمعرفة مواقيت الصلاة.

كيلو ميطرا، طولها من الشرق للغرب 12 كيلو ميطرا، عرضها من الشمال للجنوب 7 كيلو ميطر. وعدد سكانه نحو ثلاثة ملايين نسمة، وفيها نحو ثمانية آلاف حديقة وساحة لراحة السكان والنزهة العمومية. وعدد دوره ومنازله ومخازن التجارة يعد بعشرات الألوف. وفي البلد على وادي لاسين سبع وعشرون قنطرة، معلقة وغير معلقة، مختلفة الأشكال بين قناطر حجرية وحديدية أحسنها وأبدعها قنطرة إسكندر الثالث : بنيت على قوس واحد قريبة من دار الندوة[24].

عدد المصابيح إلتي تنار بها الطرق 53888 أو تزيد، بين جاز[25] وكهرباء. وعدد العربات السيارة[26] وعدد البوليس[26] وعدد مراكز البوصطى والتلغراف والتليفون[26]. وعدد مياطر طرقه الكبرى المسماة بلفوار[27] يزيد على 4300، وأضيق طريق فيه لا يقل عن[28] وأوسعه[28] وأوسطه[28]. والطرق الكبرى التي تسمى بلفوار جلها فيها سكك الترامواي وكثير منها لا يعمل فيها ذلك، بل اكتفوا بأطومبيلات كبرى يحمل الواحد ستين رجلا تسير دائما لتوصل الناس من جهة إلى جهة ـ دون عدد عديد من الأتومبيلات الصغرى التي تحمل الواحد، أو الاثنين، أو الستة، أو الأربعة. ولا زال هناك شيء من العربات تجره الخيل أو البغال، ولكنه قليل بالنسبة للأتومبيلات. ومع هذا كله جعلوا شوارع أخرى تحت الأرض متسعة تسير فيها عربات بالكهرباء بل قطارات، كل قطار يحتوي على خمس عربات وأكثر وأقل كل عربة تحمل ما يقرب من مائة شخص فينزلون إلى هذه الشوارع بدرج تحت الأرض يركبون فيها توصلهم من جهة إلى جهة مع كثرة طرق المواصلة وسهولة أسباب النقل والمراسلة ـ بها وصلت باريز إلى هذه الدرجة من العمران والسكان.

فما يقال عن بغداد إنه بلغ عدد نفوسها مليونين فأكثر، في دولة العباسيين، ليس ببعيد. لكن حيث لم تكن فيها هذه المواصلة الموجودة الآن، فإنما كانت بمنزلة مدن متجاورة : لا يصل هذا عند ذاك إلا لحاجة مؤكدة، وبعد مدة. أمّا باريز

---

(24) ربما قصد بذلك مجلس الشيوخ (Sénat).

(25) يطلق المغاربة كلمة **الجاز** (وينطق الجيم بحرف G) للتعبير عن الزيت المشتق من البترول، وتوقد به المصابيح.

(26) فراغ في النص (مما لم يتمكن من ضبطه فيما يبدو).

(27) Boulevard.

(28) فراغ في النص.

فالمواصلة ممكنة في أي ساعة بين أبعد أطرافها، بل تكلم صاحبك في أي محل كان وأنت على فراشك بواسطة التلفون. وهكذا في لندن وغيرها من المدائن العظيمة.

حاصله أن شوارع باريز وطرقها غاية في النظافة والنظام لا تلحق ولا يرى الإنسان في قطر أو مدينة أحسن ولا أجمل، ولا أوسع، ولا أنظف، ولا ألطف، ولا أكمل من تلك الطرق. فهنا يقال ليس في الإمكان أبدع مما كان، لولا ما تراه على جداراتها من السواد المتسبب عن كثرة الدخان، لكثرة الوقود للدفء أيام الشتاء لشدة البرد، وينزل عليه الثلج فيلزق السواد فوق جداراتها فينقص من جمال منظرها وتذهب بهجة بياضها الناصع فيصير لونها كدرا مكدرا.

فإذا انتقلنا من شوارعها إلى منظر الدور، وهي في الحقيقة قصور، ومخازنها ورحابها فهناك يدهش اللب وتحصل الحيرة. فلا تظن أن تشييد القصور وتنجيد المصانع قاصر على الملوك بل هو موجود لعموم الأمة : فغالب دور باريز هي قصور شاهقة وفيها أيضا قصور للملوك الماضين عظيمة لا نظير لها : كقصر اللوفر، والتروكاديرو، وقصور فرساي وغيرها وغيرها ـ وهي شيء عظيم آية في البناء في كل ربع، لا يكاد يوجد لها نظير في غيرها من العالم. وحيث إن غيري ممن رحل لباريز وصف هاتيك القصور وأفاض القول فيها، فلنكتف بهذه الإشارة فإن الوصف في هذا المقام تقصير كما يقول الفقهاء في الوكالة : .إذا طالت قصرت. ففي غالب الشوارع والطرق ترى أمثال تلك المصانع، فغالب فنادق المسافرين التي تسمى أوتيل هي قصور عظيمة، بل وكذلك مخازن التجارة قصور، ومكتبات الكتب قصور، ووزارات باريز كل وزارة قصر عظيم، ودائرة البلدية قصر عظيم وناهيك به وهكذا. ولنقص عليك حديث محل نزولنا، فمنه تفهم إجمال إشارتنا.

وصف نزلنا، وهو المسمى كَران أوتيل

أنزلتنا الدولة في نزل آسمه كَران أوتيل، وتعربيه النزل العظيم، هذا النزل هو في شارع ملهى الأوبرا، الذي هو في وسط البلد تقريبا، من أجمل الشوارع وأوسعها وأحسنها. وهو بناء ضخم عال ذو سبع طبقات كما هي غالب أبنية باريز. طبقته السفلى التي هي على وجه الأرض، دعني من التي تحت الأرض فتلك مستودع لا اعتبار به، لكن التي على وجه الأرض، لما كانت في محل مقصود للتجارة تحيط به الشوارع الكبيرة الشهيرة من كل جانب. وكونها في دائرة هذا النزل الشهير في الأرض

التي يقصده السواح والتجار من أقطار العالم لذلك جعلوا ما دار بالأوتيل حوانيت يكريها صاحب الأوتيل للتجار ينزلون فيها رَوَامِزَ بضائعهم لأجل تشهيرها بكراء ثمين. وكل حانوت يعدل آتساعها بضعة من حوانيت فاس ومع ذلك فإنما هي محل الروامز والعرابين (المشاتر)[29] يتعهدها صاحبها بالتنظيف. ومن لم يجد حانوتاً هناك جعل خزانة زجاجية واكترى موضعا من صاحب الأوتيل وضعها فيه، في بابه أو في داخله، وما اكتفوا بذلك بل وأجروا منه سواري الأوتيل وجداراته لكتابة الإعلانات فيه كتابة ذهبية في رخام غاية في الإتحاف : فقد تزينت الجدارات وصار لها دخل وغلة من تلك الإعلانات. ثم في بابه محل لوقوف العربات يسع أربع عربات على شكل نصف دائرة. فإذا دخلت باب النزل، وجدت حانوتا لبيع الجرائد والكتب التي من جملتها كتاب «**دليل باريز**». فإذا كان عندك هذا الدليل، كانت لك معرفة تامة بأحوال باريز وعجائبها. فإذا دخلت دهليز الفندق، وجدت صرافا يقبل منك السكة التي أتيت بها من بلدك ويبدلها لك بالسكة التي تريد، ولابد من الربا. وهذا المحل هو صندوق الفندق : يقبض الواجبات من النازلين ويدفع رواتب المستخدمين فيه. وعن يسارك تجد محل البريد والتلغراف والتلفون فإن كانت لك رسالة، برقية أو غير برقية، لم تحتج في تبليغها إلى البريد أن تخرج من الأوتيل بل كل ذلك داخل الأوتيل ومن غير زيادة، إلا على سبيل الإكرام. وعن اليمين غرفة كبيرة فيها عدد من الكراسي والموائد للكتابة والكاغد والدواة والأقلام، تكتب ما تشاء، وهناك مكلف بذلك وبتنظيفه وتقديم الكاغد لكل من يريده بدون شيء : كل ذلك داخل في أداء كراء البيت والأكل. وهناك محل تعلم منه أسوام البورصة وأثمان البضائع وأوراق الدول. وهناك ناد يجتمع فيه أهل السياسة. بهذا حصلت شهرة عظيمة لهذا الفندق طبقت العالم. ثم إذا وصلت دهليز الباب وجدت المدارج الأولى التي يصعد منها للطبقات العليا وبجنبها آلتان رافعتان خافضتان، يقال لهما السنسور[30] يصعد فيهما بقوة مائية (؟) إلى سائر الطبقات وكل واحد منها عليها مكلف : مهما أردت الصعود أو الهبوط دققت الناقوس فآتاك راكبا آلته حينا، في أي طبقة كنت، فأخذك ومن معك وما معك من أدوات السفر مثلا وأصعدك أو أنزلك إلى حيث تريد من غير شيء، إلا ما

---

(29) **المشاتر** (جمع مشترة) : عبارة متداولة في أوساط التجار المغاربة، تعني العينة من البضاعة المعروضة للبيع أو المتوافرة في مخزن أو متجر كبير (هي، فيما يبدو، تحريف لعبارة «مشتراة»).

(30) تحريف في النطق للكلمة التي تعني المصعد (Ascenseur).

تعطيه برضاك، ومثل تلك الدرج أيضا وتينك الآلتين بعينهما في داخل الأوتيل فلا يحتاج من كان داخله للخروج لبابه ولا من كان في الباب أن يدخل، وذلك لكبره وسعة أرجائه.

فإذا دخلت من اسطوان الأوتيل وجدت عن يمينك قاعة عظيمة عليها قبة زجاجية ملونة فيها مصابيح ملونة على شكل السماء ونُجومها. وفي ذلك البراح[31] أرائك ومتكئات ومقاعد لينة وموائد للجلوس والاستراحة والتحدث والمؤانسة وشرب ما تريد بثمنه. وهناك محل الموسيقى تكون كل عشية إلى المساء، في ساعة الأكل وبعده، وفيها محابق أشجار[32] نضرة كأنك في رياض. سماؤه زجاج ملون. وعن يمين الداخل لهذه القاعة بيت الأكل، وهو بيت عظيم كبير يسع العدد العديد من الناس وهو يفضي إلى قبة كبرى شامخة معدة لجلوس الآكلين أيضا. فبيت الأكل هو بين قبتين عظيمتين، إحداهما للراحة والثانية للأكل أيضا. وعلى الأقل إن البيت والقبة يسعان خمسمائة آكل. وقد حضر للأكل هناك، يوم 14 يوليوز، أضعاف ذلك : تناوبوا محل الجلوس في الساعة الأولى والثانية. وفي محل الاستراحة محل آخر للأكل، مفتوح إلى الشارع، ومحل آخر للمشروبات مفتوح للشارع، وهو القهوة التي تقدمت الإشارة إليها.

فإذا صعدت إلى الطبقات العليا وجدت هناك بيوت النوم التي تعد ألف ومائتي بيت كامل المرافق. ففي كثير من البيوت يوجد قاعة الانتظار أولا، قبل الدخول لمحل النوم، ثم تدخل لبيت النوم فتجد فيه سريرا أو سريرين للنوم ومقاعد للاستراحة لينة ومقاعد مائدة الكتابة وخزانة لوضع الثياب، وبيت الخلاء، ومحل الاستنجاء، ومحل غسل اليد والوجه والرأس، ومغطساً للغسل. حاصله، البيت من الدرجة الأولى كأنه دار أحد الأغنياء تام المرافق، غير المطبخ. ومن الدرجة الثانية ينقص منها قاعة الانتظار. والثالثة ينقص منها محل الغسل مثلا.

وفي إسطوان الفندق الخارجي حلاقون : فكل من شاء الحلق والتزيين غير محتاج للخروج عن دائرة الفندق، بل في كل طبقة من طبقاته عدد من الحلاقين يحلقون بأجرة ويبلغ عددهم أربعين حلاقا.

(31) **براح المنزل** : يعني، في اللسان المغربي الدارج، باحته أو فناءه. هذا والكلمة عربية تماما. نقرأ في «**المعجم الوسيط**» : «البراح : المتسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر».

(32) «**محابق**» : في اللسان المغربي الدارج، تعني : الأصص أو الآنية الكبرى لغراسة النباتات والورود.

ثم الطبقة الأولى من الفندق تقسم على قسمين : كل قسم له مكلفون في بيت إدارة خاص تربطه معه بيوت النوم خيوط تليفونية، إذ كل بيت للنوم فيه التليفون تتكلم مع الإدارات الصغرى في الطبقات العليا وخيط آخر تتكلم فيه مع الإدارة العامة في باب الأوتيل وتكلم به من تشاء داخل باريز وخارجها وأنت على فراش نومك. فهذا ما بلغت إليه الرفاهية في باريز. فإذا علمت هذا وتأملته، قس عليه دور الأغنياء والموظفين الكبار وإدارات السياسة وغيرها فتعلم مبلغ الحضارة في أوروبا. ولكن تعلم أن البيت في هذا الفندق من الدرجة الأولى يدفع في كرائه، مع ثمن الأكل في أوقات ثلاثة مائتا فرنك، ومن الثانية مائة فرنك، ومن الثالثة (وهي الدنية) خمسون فرنكا في كل ليلة لا أقل منها _ زيادة عن ما يعطي للخدمة وهي شيء لازم أيضا على حسب مدة الجلوس، وعلى الأقل عشرة في المائة من المدفوع.

وكل محلاته تنار بالكهرباء : ففي البيت الذي كنت نازلا فيه إثنا عشر مصباحا كهربائية، منها ما يعادل مائة شمعة، ومنها ما يعادل خمسين. ولو رأيت عدد المصابيح التي في محل الاستراحة والانتظار، ومحال الأكل والشرب والكتابة لقضيت العجب، حتى إنه جعل معملا خاصا به للكهرباء. وكل بيت من بيوته فيه الماء البارد والحار الجاري، مهما أردته من أي طبقة من الطبقات. وكل بيت فيه دفتر أسماء المشتركين في التليفون بباريز : فمهما دخلت بيتك علمت جميع دور التجارة والسياسة والصناعة وغيرها في باريز. ومهما عرفت اللغة الفرنسية إلا وتوصلت إلى قضاء جل أغراضك بأيسر وسيلة، تجارة أو غيرها، وأنت على فراشك. وهذا الدفتر مجلد ضخم، كنصف القاموس.

ثم هذا الأوتيل بني منذ ما ينيف على الستين سنة لتعلم تاريخ هذه الحضارة في باريز، وليس هو أعلى ما يوجد بل هناك ما هو أرقى وأحسن. وقد فصلنا القول تفصيلا في هذه الجزئية لتستنسخ منها أحوال عموم باريز وحضارته بحسب القياس والتنظير.

وإني لم أستوعب ما في هذا الفندق آستيعابا لما عسى أن يحصل للقارئ من الملل.

وفي صبيحة يوم قدومنا لباريز زار رئيس الوفد من تتعيَّن عليه زيارته، كوزيري الخارجية والحربية، ورئيس البلدية. وهذا شيء فهمته، لا سمعته ولا رأيته، إذ لم يكن

الرئيس يتنزل مع الأعضاء لإخبارهم ولا هم يحرصون على سؤاله. هذه هي الآداب العمومية بين الموظفين المغاربة، وما أحقنا أن يتألف بعضنا بعضا.

الاحتفال بعيدي النصر والجمهورية

وفي يوم الاثنين 14 يوليوز كان الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنساوية المتضمن لعيد صلح النصر، وهاك البيان.

إننا وجدنا المدينة لابسة ثوبا من الزينة قشيبا، والأعلام الفرنساوية مع أعلام دول التحالف قد زينت بها الشوارع والدور والمنازل، حتى قناطر وادي لاسين. وجعل في محل الاحتفال ومحلّ مرور العساكر التي تستعرض سواري خشبية عالية في الجو، مطلية بالأبيض مذهبة وعليها الرايات وشارة العيد وهو حرفان (R.F.) مقتضبان من **الجمهورية الإفرانساوية** وفي أعلاه مصابيح كهربائية. ورسموا على قاعدة بعض السواري السابقة أسماء المعارك الكبرى التي وقعت بين الجيش الفرنساوي والأعداء، كمعركة المارن، وإفيان، وفردان، وليل وغيرها[33]. كما نصبوا في وسط قوس النصر تمثالا خشبيا تذكاريا لشهداء الحرب الكبرى العالمية.

ثم إن البارسيين باتوا ساهرين في الرقص والطرب والقصف ليلة الاثنين، لم ينم جل من سكن باريز. ولما طلع الفجر انقطع سير الترامواي والأتومبيلات من الشوارع التي سيكون الاحتفال فيها أو بقربها، ولم يبق إلا المشاة من الناس للتفرج، وقد اكتظت الطرق بالناس المنتظرين للفرجة. فلقد رأيت من نافذة بيتي، التي كانت تقابل ميدان الأوبرا، أن الناس ابتدؤوا يجتمعون للتفرج في باب الأوبرا عند الفجر والحالة أنهم باتوا ساهرين. فقد رأيت الرجل يتعلق في سارية المصباح الحديدية في الساعة الخامسة صباحا وبقي هناك معلقا مدة نحو أربع ساعات. ومنهم من جلس على درج الأوبرا الحجرية، ومنهم من جلس على السطوح في الشمس، وكان اليوم شمسيا صاحيا ما رأيت مثله في الصحو والصفاء منذ دخلت باريز إلى أن ودعتها.

وبقي الناس يجتمعون إلى أن كانت الساعة السابعة صباحا، فركبنا الأوتومبيلات، في حال أن من لم يكن مدعوا رسميا لا يجوز له الركوب إذ ذاك. ثم

(33) الإشارة إلى الحرب العالمية الأولى وإلى المعارك التي وقعت بين فرنسا وألمانيا.

توجهنا إلى محل الاحتفال، عند قوس النصر، حيث أعدت هناك مقاعد الجلوس لمن كان له حيثية سياسية، والمقاعد قد صفت من قوس النصر يمينا وشمالا على شارع الصانزليزي[34]. وقد أنزلوا هناك عددا كبيرا من المدافع والسلاح الذي غنمته افرانسا من ألمانيا في هذه الحرب العظمى فكانت هناك تلولا وأكواما أمام قوس النصر، في شارع الصانزليزي وساحة كنكورد[35] وغيرها. وقد أعدوا لرئيس الجمهورية الفرنساوية مجلسا عن يمين الداخل لباريز من القوس على الشارع المذكور ومعه الوزراء والحجاب في مقعد متميز عن الناس مكسو بالملف الأحمر والقطيفة ويصعد إليه بدرج. وعن يمينه مجلس النواب والأعيان وقبالته، وعلى الضفة اليسرى للشارع المذكور، زوجته وبعض الموظفين الكبار. وعن يسار زوجته محل جلوسنا، وعن يسارنا وحذونا التونسيون وإزاءنا الجزائريون، وأسفلنا كثير من الجنرالات الفرنساوية التي يقرب عددهم من الثلاثين، ثم بعدنا أصحاب الحيثيات والوظائف وهكذا. وحيث التزمت أن لا أخبرك إلا بما رأيت فلنقتصر على هذا القدر.

ولما وصلنا لمحل جلوسنا، وجلس كل واحد منا في محله المعد له على مقاعد مغشاة بالقطيفة، يعني (الموبر)، أقبل رئيس الوزارة وزير الحرب، مسيو كليمانصو، في عربة أوطومبيلية فهتف الشعب له هتافا شديدا : فليحي كليمانصو! ثم أقبل رئيس الجمهورية في عربة ليس فيها كبير زخرفة، ولكنها من أحسن وألطف ما هناك، يجرها فرسان أحمران لم يكن هناك في المحفل مثلهما حسنا ولا ما يشبههما، وهو لابس أثوابا عادية ليس فيها تمييز ولا بهرجة ولا زخرفة. ولما أقْبل هتف له الشعب : فليحي بوانكاريه! وعند وصوله لمحل جلوسه تقدم بعربته إلى قوس النصر وغاب عني، فلم أدر ما فعل، وأخبروني أنه حيا تمثال تذكار موتى الحرب السابق ذكره. ثم رجع ونزل من العربة عند محل جلوسه فوقف عنده وهو يحيي الناس، وقبعته في يده لم يضعها على رأسه. وبفور وصوله بدأت أعمال الموكب، وهو استعراض عساكر الحلفاء وعددها نحو ثلاثين ألفا، ومرورها تحت قوس النصر بناء على عادة الرومان. إن الجنود المنتصرين كانوا يبنون لها قوسا تمر تحته فيبقى لها فخرا، فقلدهم في ذلك نابليون الأول وبنى هذا القوس فبقي العمل على ذلك إلى الآن.

---

(34) شارع الشان إيليزيه (Les Champs-Elysées).

(35) Place de la Concorde.

فأقبل أولا المرشال فوش، قائد عموم عساكر الدول المتحالفة، راكبا جواده وبيده عصا المرشالية وعن يساره المرشال جوفر كذلك مارين تحت قوس النصر. وعند مسامتتهما رئيس الجمهورية حياه كل منهما بعصاه فحياهما مشيرا له بقبعته وهتف الشعب هتافا شديدا : فليحي فوش، مصفقين بالأكف حتى اصطكت الآذان من شدة الأصوات إلى أن خرج إلى حد الهوس. ومهما مرا على أحد وحياهما لأنهما مشيران بعصاهما للتحية والكل يهتف لفوش، ثم لجوفر وبعدهما أركان الحرب الفرنساوية، فالحرس الجمهوري ثم جرحى الحرب ومعهم جريحان محمولان على نعشين، وبعدهم بقية من حضر في حرب السبعين من عسكريين ومدنيين(36)، ثم عساكر دول التحالف. أولهم عساكر أمريكا، فأولهم الجنرال الأمريكي، فأركان حربه، فالخيالة والمشاة مع موسيقى الأميريكان والرايات الأمريكية. وكانت العساكر الأمريكية في بزة ونظام عجيب وكل ما عليهم ولديهم جديد يلمع، وكانوا أبهج العساكر مطلقا لجدة ثيابهم وآلتهم وكل ما معهم لا يرى في ذلك إلا ما كان تلك الساعة أول آستعماله. ثم النجليزيون على ذلك النسق. ثم البلجيك. ثم إيطاليا، وكان جنرالهم راكبا جوادا أحمر لم يكن له نظير في خيل الاستعراض. ثم الجابون(37)، ورئيسهم شاب صغير السن أظنه من الأسرة المالكة، وعساكرهم أقل ممن تقدم. ثم اليونان. ثم الصرب واليوكَسلاف. ثم البلونيون. ثم عساكر افرانسا على اختلاف أنواعها : من مشاة، وطبجية، وخيالة. ثم عساكر مستعمراتها.

وقد كان في الاستعراض نحو الخمسين من جنرالات افرانسا، منهم قواد الفرق المتقدمة، ومنهم أركان الحرب دون الجنرالات الذين كانوا متفرجين كما تقدمت الإشارة إليهم. وحضر أيضا الاستعراض عساكر البحرية وكل الأنواع من الطبجية والمدافع والهندسة وغيرهم. وحضر من مدافع الطنك أربعة : وهي أتومبيل مجرور بعجلات السلاسل يمشي في السهل والجبل، قريب من صورة السلحفاة مدرع كله بأنواع من المعادن لا تتأثر من القنابل، سريع الحركة، يحمل مدافع سريعة الطلق بعيدة المرمى تدمر وتحرق. وهذا من الاختراعات الحديثة التي لم يهتد الألمان إليها، وآخترعها رجل يعمل الساعات، إنجليزي. قالوا : وهي من أسباب اندحار الألمان الأخير.

---

(36) يقصد حروب سنوات 1870 في التنازع على منطقة الألزاس ـ اللورين بين فرنسا وألمانيا.

(37) يعني اليابان. كذلك ينطقها المغاربة محرفة عن النطق الفرنسي لها (le Japon). والمراد، طبعا، أهل اليابان.

وبالجملة فإن عساكر افرانسا كانت أكثر بكثير من غيرها وقد استعرضت جميع أنواعها، وكلها تامة العَدد والعُدد. ومن جملة من حضر الاستعراض منها في جملة المستعمرات عساكر المغرب، وحضر منهم الخيالة على خيل بلق ببرانيس حمر وهتفوا لهم هتافا شديدا لما عرفوه عنهم من الشجاعة الباهضة في المعارك التي خاضوا غمارها، وهتفوا للجنرال كوروا والجنرال مانجان، قائدي عساكر المغرب، هتافا شديدا يقرب من هتاف فوش لشهرتهما بما لهما من التدابير الحربية في هذه الحرب. وجل الخيل التي استعرضت، لونُها الحمرة؛ إلا ما كان من خيل المغاربة. وكل المستعرَضين (بالفتح) اخترقوا باريز في بزتهم وهيأتهم والموسقى تصدح بأنغامها الشجية ذاهبين على شارع الصانزليزي الشهير إلى شارع الأوبرا، إلى ميدان كنكورد حيث وجدوا الماريشال فوش في انتظارهم أمام قصر البلدية. وهناك انتهى آستعراضهم.

وعند تمام الاستعراض نهض رئيس الجمهورية وركب عربته، فصدحت الموسيقى بالسلام عليه وهتف له الشعب فذهب من حيث أتى إلى قصر البلدية وتبعه الوزراء وأولهم رئيس الوزارة ووزير الحرب موسيو كليمانصو فهتفوا له هتافا شديدا. ولما وصل قصر البلدية وجد المارشال فوش وعساكر الاستعراض في انتظاره، فعلقت هناك الأوسمة لمن استحقها وألقيت الخطب المهمة المتعلقة بالنصر الذي حازته فرانسا على كل أعدائها وأثنوا على الجنود والأبطال ودعوا لموتاهم وتوادعوا. وانفض الجمع وصوب كل واحد صوب نزله.

وكان يوما عظيما وموسما فخيما بَعُد العهد بمثله وطارت به صحف الأنباء في جميع الدنيا، وأظهرت فيه الأمة الفرنساوية وحلفاؤها من الابتهاج والفرح فوق ما يعبر عنه. وبقيت باريز لابسة أثواب الزينة سبعة أيام والأضواء تنير المدينة بجميع أطرافها فوق ما يتصوره الوهم، وكل مخزن من مخازن التجارة العظمى أو ملهى أو قصر من قصور باريز إلا وترى فيه من علائم الأفراح بالزينة والأضواء الكهربائية ما ينسيك ما رأيت في غيره حتى تقول : هذا نهاية ما يدرك.

وفي اليوم بعده ذهبنا لزيارة مقبرة جرحى الحرب من عساكر الإسلام والمسجد الذي بني قربها للصلاة عليهم. ففي الساعة 9 نهارا ذهبنا فوجدنا هناك الوفد التونسي، رئيسه شيخ مدينة تونس الجنرال السيد خليل بوحاجب نجل علامة تونس وشيخ المالكية وباش مفتيهم الشيخ سالم بوحاجب، وأعضاؤه عامل سوسة الخطيب المصقع السيد عبد الجليل الزاوش، وعامل بنزرت السيد السقا، وعامل

صفاقص السيد الصنادلي. ثم الوفد الجزائري المتركب من إثني عشر عضوا : أربعة من أغوات عمالة الجزائر، وأربعة من عمالة قسمطينة، وأربعة من أغوات عمالة وهران. ووجدنا هناك المفتي المغراني الجزائري المكلّف بالمقبرة وغسل الموتى والصلاة عليهم، وشيخ القرية التي فيها المقبرة، ونواب من وزارة الحربية والخارجية. فتقدم شيخ القرية وخطب خطبة طويلة مكتوبة بالفرنساوي مجد فيها أعمال العساكر المغربية والجزائرية والتونسية في الحرب وأبّن موتاهم وشهد لهم بالثبات في الحرب والصبر على مصائبه ونوه بدفاعهم العظيم عن افرانسا، دفاع الأبطال، مما لم يعهد مثله في التاريخ وشهد به العالم كله وحسدها على ذلك أعداؤها. وأطنب في الثناء على أمراء المسلمين، وخصوصا السلطان مولاي يوسف والباي سيدي محمد الناصر وحكام الإيالات الثلاث وإن كان أعان افرانسا في مواقفها الحرجة حتى انتصرت الانتصار المطلوب. ثم تقدم أحد وزراء افرانسا، نائبا عن وزير الخارجية، وهو مسيو دوبليتي وألقى خطابا في المعنى أيضا أملاه من ورقة بيده ولكن من سوء الحظ أنه لم يكن عند رئيسنا ولا عند واحد منا علم بتلك الخطب من قبل ولا إشعار بذلك لنستعد للجواب، ولا فهمنا الخطاب جيدا. فأشار إلي الرئيس أن أجيب الخطيبين نيابة عنه آرتجالا، وذلك بعدما أجاب من ناب عن رئيس الوفد الجزائري بخطاب كان أعده بورقة أيضا بيده. فقلت : يا سعادة الوزير، ويا جناب المير، ويا أيها السادة الحاضرون! إني بالنيابة عن رئيس وفدنا، جناب الصدر الأعظم، أقدم خالص الشكر للخطيبين فيما أظهراه من العواطف نحو العساكر المغربية والجزائرية والتونسية وما أثنيا به عليهم من الشهامة العربية، والشجاعة الإفريقية المعهودة لهم في التاريخ. وإن ما حصل من أولئك الأبطال البواسل في الدفاع عن الوطن الفرنساوي من الشجاعة التي اعترف بها العالم أجمع قد قضوا به واجبا عليهم أمرهم به السلطان مولاي يوسف، وباي تونس، أيدهما الله. ولقد كتبوا في التاريخ سطرا مجيدا بدمائهم الغزيرة. وإن الدولة الفرنساوية يجب علينا أن نشكر فضلها على آعتنائها بأولادها [كذا]، حيث عرفت حقهم وخصصت لهم هذه التربة لدفنهم بها وحافظت على شعائر الدين في الغسل والكفن والصلاة عليهم، وذلك مما يحقق آمالنا أنها لا تزال على ذلك في المستقبل تحافظ على شعائر أولادهم وآبائهم وإخوانهم الباقين بعدهم ويحقق آمالنا أيضا أنهم يجنون معها ثمرة النصر كما أحرقتهم نيران الحرب فتسعى في ترقية بلادهم ومصالحهم، وتهذبهم وتجتهد في تعليمهم. وإن أعصابنا كانت تهتز لرؤيتهم لو قدر الله ورجعوا سالمين، وحيث لم نرهم

فقد وقفنا على قبورهم. فلندع لهم في ختام خطابنا هذا بالمغفرة والرضوان. ثم بعد هذا تقدم رئيس الوفد التونسي وسرد خطابا آخر في المعنى بالفرنساوي مكتوبا، وبعده أتى المغراني وتلا أبياتا في الثناء على أولائك الأموات وتمجيدهم لم تحضرني ولا أرى فائدة في إثباتها.

وطفنا في القبور، فوجدنا مقبرة واسعة عظيمة كانت مقبرة من قبل الحرب فيها عدد من الفرنساويين مدفونين، على قبورهم الرخام المنقوش بأسمائهم وتواريخ موتهم على عادتهم. وقبور أولئك العساكر الإسلامية على نسق قبور المسلمين في مطرح الأجلة بفاس أو باب عجيسة، من غير بناء. سوى أن كل قبر عند رأسه خشبة مكتوب في رأسها بالعربية : هذا قبر المرحوم... فقط. وتحته بالفرنساوي آسمه وفرقته العسكرية وما علم من قصته. ووجدنا عند قبور المسلمين قبة طولها نحو المِطْرَيْن وعرضها كذلك وعلوها يقرب من ذلك، فسألنا عمن دفن فيها فقال المفتي : ولم يدفن فيها أحد وإنما المسيو جونار حاكم الجزائر أمر ببنائها تذكارا لهم.

ثم خرجنا من المقبرة، وذهبنا للمسجد الإسلامي فوجدناه مسجدا ظريفا لطيفا على هيأة المساجد الإسلامية مبنيا من خشب في وسط حديقة. له صومعة، عليها الراية الفرنساوية، وبإزاء أرض المحراب زربية رباطية قال المغراني : وجهها هدية للمسجد السلطان مولاي يوسف نصره الله. وبقية المسجد كله مفروش بخمس حصائر سنوسية من عند والي الجزائر المتقدم. وثريا قديمة، وجهها المقيم العام بتونس. وعلى جدران المسجد بعض زرابي وأثواب أهداها بعض المخازن التجارية في باريز لعله لافاييت. وقد سأل الصدر المفتي المغراني عمن حقق قبله المسجد، فقال : المهندس الفرنساوي الذي بناه. قال : وهي محققة على النجمة القطبية. فقلت له : وما هي هذه النجمة ؟ وكيف كان تحقيق ذلك : هل على يد عارف عدل يوثق به ؟ فقال : أنا ما حضرت. ثم أخبرنا المغراني أن الدولة واعدت بإعادة بناء المسجد بناء متينا.

ثم تفرق الجمع وذهب كل لمحله.

وصف قصر فرساي

وفي اليوم بعده زرنا قصر فيرساي الشهير في العالم، وهو القصر الذي بناه نخبة ملوك فرانسا لويز الرابع عشر[38]. ويقال إنه أنفق في بنائه وزخرفته وأثاثه ألف مليون افرنك، وهو الآن متحف من المتاحف الفرنساوية المهمة. فالقصر وكيفية بنائه وما فيه من الزخرفة، والنقوش، والتصاوير، والتماثيل، وصور ملوك أوروبا، وعظمة البناء وتنسيق البيوت التي هي قباب مشيدة تناغي الجو وتزري بنجوم السماء وهو وحده كاف لأن يكون متحفا عظيما. لكن لم يكتفوا بذلك، بل جمعوا فيه بعض أدوات بيت الملك المذكور وأثاث زوجته الثمين وفراش نومه، كل شيء في محله الذي كان فيه أيام الملك. وزادوا على ذلك بأن صوروا على جداراته تصاوير حروب افرانسا ووقائع أيامها ورجالها فكان متحفا في متحف بل تاريخا مهما من تواريخها يحفظ أعمالها ويبين ما وصلت إليه من القوة والسطوة. فلقد رأيت في بيت صورة الأمير عبد القادر الجزائري ومعه ولده وأمه يطلب من ضابط افرنساوي، أو من نابليون الثالث، حريته التي كانت افرانسا وعدته بها عند تسليمه سلاحه إليها وكانوا سجنوه بعد ذلك في افرانسا، وقد حنت الأم رأسها لتقبل يد الضابط ماسكة إياها ومسترحمة له، وأظن أن هذه الصورة إنما هي خيالية لا حقيقية واقعية والله أعلم. وهذه الصورة أظن أنها في قصر سان جرمان. وقبالة هذه الصورة صورة دخول الفرانساوية معسكر الخليفة سيدي محمد ابن عبد الرحمن بن هشام في وقعة وادي إيسلي، قرب وجدة، وهي وقعة شهيرة. ورسمت هناك صورة مظلة الخليفة أخذها جندي افرانساوي وقد أحاط الجند بقبة الخليفة المذكور وأمسكوا بعض النسوة وهن يسلمن ما عندهن من الأثاث والأسلحة. وصورة حروب أخرى وقعت بين افرانسا والنجليز والألمان وغيرهما من الدول بحيث لو استوعب طالب التاريخ جميع الغرف وتتبع ما فيها من صور تلك الحروب فلا يخرج من هذا القصر الهائل إلا وقد قرأ تاريخ افرانسا تفصيلا وعاين جل وأهم وقائعه. وفي ذلك من الفوائد العلمية ما لا يخفى.

ورأينا هناك في بيت خاص المائدة التي أمضى عليها النواب الألمانيون عقد الصلح الأخير بتاريخ 28 يونيو 1919 في قصر سان جرمان جعلوها هناك تذكارا

---

(38) وكان معاصرا لمولانا إسماعيل، جد الأسرة المالكة أبقاها الله. وكان بينهما وداد متين كاد يفضي للمصاهرة ـ فيما قال بعض مؤرخيهم (ملاحظة للمؤلف).

وأثرا محفوظا. ولما خرجنا من القصر تطوفنا في حديقته البديعة التي تبلغ مساحتها عشرين فرسخا، وما فيها من بركات الماء الوسيعة التي كأنها بحيرة وقد أطلقوا الماء فصار يعلو في فواراته بكيفيات غريبة وذلك بعمل الكهرباء ينفقون في اليوم الذي يرسلون له الماء ثلاثين ألف فرنك، وما هناك من أنواع الشجر والنبات اللطيف. وفيها محل للموسيقى الملوكية بدائرته سواري من الرخام الرفيع المنوع : والمحل على صورة دائرة بها درج يجلس عليها المعلمون الموسيقيون كهيأة ملهى أوروبي. رحلة53

وفي هذا القصر من العجائب ما يستغرق وصفه أوراقا يملها السامع والمطالع. وحاصل القول إنه غاية في الضخامة والفخامة والزخرفة والنقش والتصوير والفنون الجميلة، فكأنه مدرسة لهذه الفنون. وفي القصر كنيسة من أعجب الكنائس كانت للملك خاصة يصلي بها يوم الأحد وفي الأعياد، لا زالت على هيأتها بكراسيها وجميع ما كان فيها. وفيه أيضا ملهى يقال إنه كان ينفق عليه في الليلة مائة ألف فرنك.

وصـف ملهـى الأوبـرا

وفي الليل استدعونا لحضور تمثيل رواية مهمة في ملهى الأوبرا الشهير في العالم، الذي هو بقرب منزلنا. فحضرها بعض الأعضاء وكنت من جملتهم. أما الرواية التي مثلت، وما فيها من الفوائد، فذلك شيء ليس هو ذوقنا بل لا نستفيد منه شيئا لعدم معرفتنا جميعا بلغة أهله وعدم ملاءمته لمألوفاتنا وحركاتنا حتى إن الجنرال موريال، حاكم الرباط، الذي كان مرافقا لوفدنا ومكلفا بشؤونه قال لي : إن الناس يصفقون عند تمام الرواية فمن المناسب أن تصفقوا. فامتثلنا وكنت أصفق من غير أن أفهم لأي شيء صفقت ولا أدري ما آستحسنت، لأن التصفيق دليل الاستحسان عندهم. فكنت كنائحة مأجورة تتفعل البكاء وليست باكية. نعم إن الملهى المذكور من أعجب ملاهي العالم وأفخمها.

وقد دخلنا للمحل الذي يكون فيه الممثلون مختبئين والآلات التي تكون معهم، فكانوا في تلك الليلة ينيفون على المائتين. وأما المتفرجون، فإن الملهى يسع منهم عددا كبيرا، والقبة التي يجلس بها المتفرجون آية في بابها عز أن يكون لها نظير من نوعها، كذلك الصالون الذي يخرجون للاستراحة فيه.

ويكفيك إجلالا في وصف هذا الملهى أنه تكلف على الدولة بثلاثين مليونا من الإفرنك، وفي درجه وداخله صور رجال التمثيل والتأليف في فن الروايات، وهو عندهم علم مهم ولرجاله شهرة وإن كانت الرواية لا حقيقة لها كـ«**مقامات الحريري**» ولكن يأتون بها لمقاصد مهمة أخلاقية تهذيبية. فرواية يمثلون فيها العشق، وأخرى يمثلون فيها العفة، وأخرى الفضيلة، وأخرى الكرم، وأخرى الشجاعة فيكون ذلك تكفيلا لمحاسن الأخلاق يفهمه من يعرف اللغة ومارس العوائد الفرنساوية والأخلاق الأوروبية.

إلا أن المنتقد له أن ينتقد أمورا هناك لا تناسب الأخلاق العالية، كالتكلم بكلمات بذيئة سفيهة، والرجل هناك يحضر ومعه أخوه وولده ووالده، وفيه ما يهيج شبق النفس للخنا وارتكاب الفواحش وغيرها. فلو خلا عن هذه الأمور، لكان من أحسن المدارس التهذيبية ولكن ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾[39]. وعلى كل حال آمنت بالسر الذي فيه ولا أقول به ولا أرى وجها له في الشرع الإسلامي ولا في الذوق العربي وكأني بأهل الغيرة والعفة منهم منتقدون لذلك معنا كما ينتقدون كثرة التهتك والبذخ. وتلك نتيجة الرفه الزائد، والحرية المطلقة، وعدم التمسك بأهداب الدين ولاسيما النساء : فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا سفاد الحيوانات في الطرق جهارا. إلى هذا الحد وصلوا أو قربوا منه، وفعلوا مقدماته جهرا. فهذا شيء أفسد الأخلاق ولا تستحسنه الأذواق، ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع. زد على هذا كثرة البذخ والترف والتظاهر بالغنى، والفخر بالمال المؤدي إلى إضاعته. وكلما ظهر زي لبسته فلانة زوجة فلان إلا وترى ما قبله من الأزياء ترك وحَبِطَ عمله وذهب ماله هباء، والملاهي والمراقص هي محل آستعراض الأزياء وتلقيح هذا الداء، وهذا شيء طبيعي في التمول والترف. كل أمة زاد ترفها إلا وزاد سرفها، ولله في خلقه شؤون.

حاصله تفننوا في كل شيء شيء، وبلغوا النهاية في التمدن والرفاهية.

ومن الغد وجهت لي إدارة العلوم والمعارف أوراق الدخول لملهى أوبرادومين[40] وهو في الدرجة الثانية بعد هذا الملهى وكانت تمثل فيه رواية مهمة فحضرتها. وأعطوني

(39) سورة البقرة (الآية 60).

(40) لم أتمكن، بالرغم من اجتهادي بآلإستشارة الواسعة، من تبين ما يقصده بالقول : أوبرا دومين. فلا وجود لدار أوبرا تحمل هذا الإسم.

بيت وزير المعارف هناك خصوصا فجلست فيه مع من ذهب معي، بخلاف الملهى السابق : فقد كان الجلوس مع عموم الناس، ولكن في الدرجة الأولى.

وهذا الملهى الثاني هو مماثل للأول في الشكل والهيأة : فما قيل في الأول يقال في الثاني إلا أن هذا أصغر منه.

وصف خزانة الكتب الكبرى بباريز

ووجهت لي وزارة المعارف أيضا ورقة الدخول إلى خزانة الكتب الفرنساوية الشهيرة في العالم المسماة بـ**خزانة الأمة**، وذلك بطلب مني، فذهبت إليها ومعي بعض أعضاء الوفد ممن لهم ولوع بالكتب. فدخلناها ورأينا ما يدهش من هذا النوع، وكيف لا يدهش الإنسان إذا رأى ماينيف على ثلاثة ملايين من الكتب المطبعية وما أناف عن مائة ألف كتاب خطية، وقالوا : إن العدد أكثر من ذلك ؟!

وهذه الخزانة هي في الأصل دار للوزير الأكبر للملك لويز الرابع عشر المتقدم، وهي آية في الاتساع والضخامة. ولا يسبق إلى وهمك إذا سمعت لفظ دار الوزير انها كدار الوزير أحمد بن موسى في فاس أو مكناس أو مراكش، بل لو جمعت جميع هذه الديار الثلاث في مقابلتها ما وفيتها حقها لأن القباب والصروح هنا لا يوجد لها مثيل في الدور الثلاث، بل المقاعد التي جعلت للمطالعين لا يوجد لها نظير عندنا في المغرب، وكان ابتداء تاريخ هذه المكتبة قديما منذ ما ينيف عن ستمائة سنة، قبل بناء الدار المذكورة التي لها من العمر نحو 250 سنة.

وقد دخلنا إلى أحد البيوت التي جعلت فيها الكتب فإذا هو على خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالكتب من الأرض إلى السقف، ويصعد بالدرج لتناول الكتب العالية في كل طبقة. فسألت عن طول البيت فقالوا : مائة وثلاثة وثمانون ميطر. كان البيت على هذا الطول وما يناسبه من العرض وعلو السقف. لكن لما كان السقف شاهقا أحدثوا داخله خمس طبقات، فتلك الطبقات شبكات حديد. فإذا كنت في السفلى ترى العليا وبالعكس، وجعلت شبكات ليدخل الضوء والهواء من كل واحدة للأخرى. وقد جعلوا الطبقة السفلى لكتب العلوم الدينية، والتي فوقها للتاريخ وهكذا.

وقد دخلنا لغرفة فقالوا : هذه فيها الكتب التي ألفها علماء أمريكا، وهي تعدل بمكتبة القرويين ومراكش معا إلا أنها مطبعية. فقلت في نفسي : هذه أمة جاءت في الزمن الأخير ألف علماؤها هذا العدد من الكتب وما استقلت إلا منذ نحو مائة وخمسين سنة. فما أعظم مدارك البشر إذا كان عائشا في جو صاف يستنشق فيه هواء الحرية المطلق ويتغذى بلبان العلم والتهذيب. ليت شعري، ماذا ألفه علماء المسلمين في هذه المدة ؟! وإن اللغات الموجودة كتبها في هذه الخزانة تبلغ اثنين وخمسين لغة. وقد دخلنا لغرفة أخرى فقيل : هذه لعلم الموسيقى، فتأمل !

وطلبنا الدخول لبيت الكتب الخطية لعلنا نرى هناك كتابا عربي الخط، لأن هذه الكتب كلها باللغات الأخرى، إلا قليلا، فأمهلونا ريثما فتحت وأدخلونا لبيت فيها مجموعة تصاوير عجيبة، صينية وتركية. ورأينا كتابا فيه صور ملوك العثمانيين وكل ملك مترجم بتاريخ حياته وأيامه مذكور هناك أعماله، وهو بالتركي. وهناك كتب أخرى بالخط الصيني. قالوا إن عدد الصور في هذه الخزانة يبلغ مليونين ونصفا. وقد رأينا عدة خرائط للأرض عموما ولبعض المسالك خصوصا : منها ما هو لعلماء العرب، كأهل الأندلس، ومنها ما هو لليونان وغيرهم. ثم إن رفقائي ملوا كثيرا وضجروا من كثرة ما رأوا، وأرادوا الخروج فقلت لهم : ألستم طلبتم رؤية الكتب الخطية فنحن ننتظر وصول المكلّف بها ؟ عجبا لكم : ما حصل ملل لمن ألف، أو كتب، أو طبع، أو سفر، أو ادخر، أو بنى، أو رصف، أو جنس ولا لمن يرينا ويطلعنا ! فلا أمل في آرتقاء من به داء الملل، فالملل آفتنا العظمى وسبب من أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا ـ إنا إذا لمن العاجزين[41]. ولو كنتم في ملهى ما مللتم.

ولما دخلنا بيت الكتب الخطية رأينا هناك كثيرا منها. وطلبت فهرستها، فأتوا بسفر من جملة أسفار الفهرس. فبينما نحن ننظر بالفهرسة لنعثر على ما فيه الغرض من الكتب العربية الغربية وإذّا بالرفاق توجهوا لحالهم ذاكرين أن لهم وعدا مع حبيب آستدعاهم للإفطار. وتوجهوا وبقيت أنظر هناك، فعثرت على مصحف كريم عظيم الجرم مكتوب في رق الغزال بخط كوفي لا نقط فيه ولا شكل يظهر أنه من مصاحف الصدر الأول قبل حدوث الشكل والنقط وفيه بعض البتر، لتلاشي الرق وقد أصلحوا

(41) مشتق من القول القرآني.

الرق. قيل إن نابليون الأول عثر عليه في مصر وأتى به من هناك[42].

ثم عثرت على مجموعة فيها عدة كتب للإمام السيوطي، نحو 20، في مسائل حديثية وفقهية وغيرها[43]. فمن جملتها كتاب له في النسب الجعفري الذي ينتسب إليه ثعالبتنا وينتسب إليه العائلة الناصرية وغيرهم وانفصل على أنهم أشراف صرحاء تحرم عليهم الزكاة لكونهم من ذرية جعفر بن أبي طالب الهاشميين فيحكم له بحكم الأشراف. ونقل عن الحافظ ابن حجر وغيره أن تخصيص الشرف بأولاد الحسن والحسين اصطلاح أحدثه الفاطميون في المائة السادسة فقط، كما أنه انفصل على أنه لا يقال فيهم أبناء الرسول، بخلاف أولاد الحسن والحسين ـ وإن كانوا أولاد زينب أخت الحسين، ولكن لا يقال فيهم أولاد رسول الله لأن نسبة أولاد البنت إنما هي

---

(42) ووقفت على مصحف قديم عجيب هناك أيضا، وذلك في سفرتي الرابعة إلى افرانسا صحبة الركاب الشريف في غشت سنة 1931، ربيع الثاني 1350. هذا المصحف مكتوب في رق راق عجيب : طول الورقة نحو 18 سنطيم وعرضها نحو 7. خطه كوفي قديم بدون شكل. نعم به بعض النقط ولون المداد أسود، والخط رقيق متقن، وسفره من جلد أحمر مذهب بتذهيب رفيع الصنعة مكتوب في آخر ورقة منه ما نصه بالحرف الواحد : كتب برسم أمير المؤمنين خلد الله ملكه، الخليفة هارون الرشيد صلى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين في رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائة.

وإني أرى أن هذا أنفس أثر عربي هناك. والصلاة على عموم الأمة جائزة آستقلالا على القول الصحيح، ومنه قول الإمام الزمخشري يمدح كتاب سيبويه :

ألا صلى الإلـه صلاة الصدق	على عمرو بن عثمان بن قنبـر
فإن كتابــه لم يغــن عنـــه	بنـو قلـم ولا أبنــاء منبـــر

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على من أدى دريهمات زكاة واجبه عليه حيث أمره الله بقوله ﴿وصل عليهم﴾، فصلى عليهم وقال : اللهم صل على آل أبي أوفى، كما في أصح الصحيح، فلأن نصلي على من ألف كتابا ينتفع به عموم المسلمين من باب أولى. وقد قال الله تعالى : ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ وقال الله تعالى : ﴿بشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم﴾ (الآية). وما بعد القرآن والسنة قول لقائل (المؤلف ـ محمد الحجوي).

أدرج المؤلف الإضافة أعلاه في نص الرحلة، ولكني آثرت، حفاظا على النص في صورته الأولى التي كتب عليها أن أخرج هذه الإضافة إلى الهامش. هذا وإن المسألة تثير إشكالا نظريا مزدوجا : ما حدود المشروعية في عملي كقارئ ؟ ما حدود شرعية المؤلف ذاته في احترام نصه الأصلي أو نصه في صورته الأصلية ؟ س.ب.ع.

الآية الأولى من **سورة الأحزاب** (الآية 43) ؛ والآية الثانية من **سورة البقرة** (الآية 157).

(43) هذه المجموعة غير كتابه **الحاوي** الذي اشتمل على تسعة وسبعين تأليفا من تآليفه، جمعها فيه وسماه **الحاوي** (ملاحظة للمؤلف).

لأبيهم لا لأمهم، والخصوصية وردت لأولاد فاطمة فتقصر على محلها وهو الحسن والحسين بناء على أن الشرف من قبل الأم لا يتعدى. قال وهو القول الذي عليه المعول من قولين في المسألة.

وله هناك تأليف آخر في بدعة إحداث المحاريب بالمساجد قائلا : إن المحاريب إنما أحدثت في أول المائة الثامنة، وما صلى عليه السلام في محراب هو ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي. قال : وأما قوله تعالى ﴿فلما دخل عليها زكرياء المحراب﴾، فذلك كان في شرعهم ولم يكن في شرعنا بدليل ورود أحاديث تتضمن النهي عن إحداثها لكن ليس نَهْيَ تحريم وقد أورد تلك الأحاديث. وهناك تآليف أخرى في مسائل لطيفة غريبة لم يسع الوقت لاستقصائها، وكنت على نية العود لأنقل بعض ما يمكن كتبه إذ محل المطالعة هناك وسيع، به كراسي كثيرة وموائد الكتابة وموادها والحبر والأقلام. وتفتح الخزانة كل يوم عدى يوم الأحد والأعياد صباحا ومساء.

وبينما أنا أنظر في تلك المؤلفات وإذا بالخادم يقول إن الرفقاء دخلوا بيت الأمور القديمة من آثار الدول البائدة، إن شئت نظرتها معهم. ورجعت فذهبت ووجدتهم فعلمت صدق قولي لو كنتم في ملهى ما مللتم. وعلمت أن رؤية الأمور الغريبة تذهب الملل. فنظرت هناك كثيرا من السكك القديمة الرومانية وهي مثل السكك الأوروبية الموجودة الآن في تدويرها وإتقان صنعها. تاريخها قديم قبل الإسلام. نعم فيها مغايرة لما في السكك الوقتية من حيث صور الملوك، فإن الرومان كانوا يجعلونها بارزة ناتئة بحيث يلمس جرمها المرتفع عن مستوى الدينار وذلك من دقة الصنع والإتقان في العمل. وعجبت لسكة قدماء المسلمين لم تكن على تقليد سكك الرومان في إتقان الصنعة والتدوير لا في التصوير لأنه ليس من شرعنا، وإن ثبت أن بعض ملوك الإسلام فعله أمْناً من التزوير. ورأيت هناك سكة عبد الرحمن الداخل للأندلس، أول ملوك بني أمية في أوائل القرن الثالث. ورأيت هناك كثيرا من نقود الهند والصين والأوسمة القديمة التي كانت في القرون المتوسطة. وهناك أول صينية وحلى مختلف الأشكال من بلدان شاسعة قديم بحيث لولا وقت الإنسان يقيد ما رأى هناك من نفائس الكتب والعاديات من الآثار لأتى بغرائب الغرائب يستفيد منها المؤرخ الفوائد العظيمة. أما بسطاء الناس، فتستجم أفكارهم ويزول بذلك عناؤهم.

ولقد زرت في هذه المدينة الجميلة عدة مواضع مهمة يقصر القلم عن وصف ما بها، وقد وصفه الزائرون قبلي. فلنقتصر على الإشارة والأسماء لتشويق من يصل إليها أن يزورها. فمنها قصر اللوفر، وقصر التروكاديرو، وقصر الإليزي الذي هو مقر رئيس الجمهورية. وهذا زرته زيارة رسمية مع أعضاء كما يأتي التنبيه عليه، وكذلك وزارة الحربية ووزارة الخارجية، فهذه مواضع ثلاث لم نستوعبها إلا كما يستوعب الزائر الرسمي مواضع قدمه ومواقع بصره، فلم يتسع القلم في وصفها. وكذلك زرت وحدي وزارة العلوم والمعارف وقصر مجلس النواب ـ وهذه لأنها على ضفة نهر لاسين ـ وقصر الأعيان المسمى لوكسمبورغ في الضفة الأخرى. كما زرت قصر البلدية ومواضع أخرى مهمة، وكلها قصور عظيمة فخيمة لا يستوعب القلم وصفها في وقت قصير كنّا مقيدين فيه بالقيود الرسمية.

وصـــف غابـــة بولـــون

ومن المواضع التي كنت أستلذ رؤيتها وتمتيع الطرف في محاسنها غابة بولون الشهيرة، فإنها غابة صناعية متسعة الأرجاء، فيها 873 هكتار من أرض بسيطة تقريبا خططت فيها طرق صناعية تسير فيها العجلات منسقة لكل ناحية من نواحي الغاب. وكل قسم منها منتزه من المنتزهات التي هي أحسن ما تستلذه العين في هذه الدار الفانية: نوّعوها بأنواع الشجر الجميل المنظر الخالي عن الطعم، ونسقوه تنسيقا بديعا وهذبوه وقوموا معوجه، وربوه تربية بحيث لا ترى فيه ما لا تستلذه الأنظار. وقد جلبوا إليها ترعة نهر صناعية تنساب فيها آنسياب الأفعوان في أرض خضراء متهدلة الأفنان فكانت أحسنَ ما أنتَ نَاظِرٌ. وفي كل وقت أتيت هذه الغابة وجدتها تسرح فيها غزلان الإنس، وترتع فيها صواحب الألبسة الجميلة والمراكب الفارهة والجمال الفاتن. والهدوء والسكون سائد على كل من هناك، وترع النهر تمرح فيها زوارق الوصال لا زوارق الأثقال، وزوارق التنعم والطرب لا زوارق الكد والنصب حتى إن سماءها وأرضها يخيل لك أنها تجاوب حيواناتها الناطقة وغير الناطقة. وبالجملة جمعت جميع المحاسن، فلا يرى فيها إلا مفتون أو فاتن، وهي من الجهة الشرقية من باريز : إذا مررت على قوس النصر وخرجت من المدينة، دخلت فيها.

وكانت تعجبني فيها قهوتان: إحداهما في مبدئها من جهة باريز، بها من التحف واللطائف ومحل الموسيقى مع جمال المنظر ما يستحسنه كل ذي ذوق ؛

والأخرى متوغّلة في وسط الغابة على منبع من الماء يخرج من حجر هناك عال له خرير. فكانت الأولى تعجبني ليلا لما فيها من الزخرفة والأضواء بين الشجر وفوق زرابي الربيع ؛ والثانية نهارا وقت الظهيرة. فكنت أقصدهما عند ملل الفكر من القيود، والأذن من سماع هوس عربات النقل كالرعود. فكان يذهب جميع ما أجده، وأجد نفسي في نزهة وخلوة وصفاء فكر وراحة بال.

وناهيك بطريق هذه الغابة أني كنت أمر إلى غابة بولون على ساحة ليس لها نظير في أي بلد فيما أظن؛ وهي ساحة لا كنكورد (بلاس دو لا كنكورد) التي هي عبارة عن منتزه من أجمل المنتزهات وممر من أجمل الطرق في داخل باريس أمام قصر نابليون. ولو أتيت على وصف هذه الساحة وما فيها من اللطائف، لسودت ورقات بمبيض جمالها. وقد جلعوا هذه الساحة على شكل دائرة، وفي مركزها مسلة مصرية أهداها لفرانسا الأمير محمد علي، مؤسس العائلة الملوكية المصرية، ونصبت في محلها سنة 1836 في زمن لويز فيليب الذي أسس بلاس دو لاكنكورد: طولها اِثنان وسبعون قدما؛ وعرضها من أسفل سبعة أقدام، ومن أعلى خمسة أقدام. وهي حجرة واحدة فيها كتابات باللغة المصرية القديمة صنعت حوالي سنة 1550 قبل الميلاد. وفي الساحة أشجار وتماثيل تقذف الماء إلى حوضين على كيفية غريبة. وهناك حديقة أزهار جمعت محاسن الزهر الغريب اللطيف. وفيها مجمع الطرق من جميع أحياء المدينة وتسع جيشا عرمرما لسعة فنائها. وفيها من الفوانس للإضاءة ليلا ما يعجزك عده، فهي ذات عمرين : ليلي ونهاري، فهي دائما مضيئة.

ومنها أمر على طريق الصانزليزي ومعناها «روضة الأصفياء» وهي غيضة طويلة، ذات سطرين، طولها إلى حد قوس النصر أكثر من ثمانمائة ذراع وعرضها في الأقل مائة وستون. ولها مقاعد من خشب وكراسي على طول الطريق، وبين السطرين طريق واسع لسير الحوافل والعواجل والركاب. وهو أحسن شارع في باريز، وإذا كان أحسن شارع في باريز فهو أحسن شارع في الدنيا أحاطت به صفوف من الشجر وراءها قصور وأبنية مزخرفة. فمبدأه من الساحة المتقدمة، وتصعد منه إلى قوس النصر فلاشك أن الغريب ينسى أهله وماله وولده إذا ذهب من هذه الساحة على تلك الحجة إلى غابة بولون، ولا يحتاج إلى شيء آخر يسليه سوى الدراهم التي يلزم أن تكون في هذا المحل أوفر من غيره لغلاء كل شيء هنا أكثر من كل محل، ولكن لا بأس بالغالي فإن الإفطار في غابة بولون في أحسن محل هناك أدينا فيه خمسين

افرنكا لكل واحد دون ما يعطى للخَدَمة ومصارف الذهاب والإياب. ومع هذا لا زالت الغرباء تقصد هذه المدينة وتصرف المصارف الكثيرة ليكونوا غرباء بها.

الزيـارات الرسميـة

وفي يوم السبت 19 يوليوز، زرنا أربع زيارات رسمية. الأولى، المستشفى العسكري الذي يقرب الوزارة الحربية، وهو أول مستشفى عسكري أسس في باريز. ولهذا لم يكن بناؤه كثير الأهمية : فلقد رأينا عندهم ما هو أهم بناء وزخرفة منه، لكن أهميته من حيث التاريخ. وقد وجدنا رئيسه وموظفيه في انتظار الوفد المغربي والتونسي والجزائري. وحين دخلنا، وجدنا فيه عددا من بقية الجرحى الإفريقيين، ولاحظت أن جلهم مصاب في الوجه وأكثرهم في الفك الأسفل فيما رأيناه منهم. ولقد شاهدت عجبا : فإن من ذهبت له جلدة فكه الأسفل وحنكه عوضوها له بجلدة يقطعونها له من رأسه أو رجله بلطف، بحيث لا يشعر بها، ويضمدون محلها ثم يلزقونها له في وجهه ويرفأونها بخياطة فتلتئم ويرقع وجهه. وقد نجحت هذه العملية في بعضهم، ولكن في بعض آخر بدأوها وماتوا في أثنائها ولكن قطعوا تلك الرؤوس التي بدئت عمليتها ولم تتم وألزقوها على خشب وأرونا إياها ملزقة لعلنا نعرف أصحابها. فلم نعرف واحدا منهم، وهي نحو 12 رأسا. فهذا ما وصلت إليه مدارك البشر الآن.

وقد أحسن الوفد المغربي لأولئك الجرحى بألف فرنك، دفعها بالتساوي، إذ كل واحد منهم يسابق لأعمال الخير.

وبعد خروجنا من هناك، توجهنا لوزارة الحرب لنزور رئيس الوزارة، مسيو كليمانصو، فوجدناه في انتظارنا في الساعة 11 نهارا. فتقدم الوفد المغربي أولا، كما هي العادة: فإنهم قدمونا في كل زيارة. وحين دخلنا عليه في مكتبه، قام وصافح كل واحد بعد أن عرف آسمه ورتبته وأجلسنا مرحبا، هاشا باشا، لما له من الأخلاق الحميدة التي تلوح على محياه وعيناه تتوقدان ذكاء ونباهة وشهامة على كبر سنه: فقد بلغ 77 سنة، فسألنا عن المغرب وأحواله، فأخبرناه أنه بخير وأمان وعافية فقال مداعباً لنا: هل لكم من شكاية بالجنرال ليوطي ؟ فأجاب الصدر إنه لا شكاية غير أنه كريم الأخلاق، كريم الفعال. فقال : «إني كنت في الجزائر ورأيت أنها محتاجة لإدخال الإصلاح في نظاماتها وأشرت بذلك، وهل تلك الإصلاحات تنفذ كلها». ثم ودعنا وانصرفنا، ثم دخل الوفد التونسي يتلوه الوفد الجزائري.

زيارة وزارة الخارجية وآحتفالها بالوفدين المغربي والتونسي

وفي الساعة 12 ونصف توجهنا لوزارة الخارجية، لزيارة وزيرها المشهور موسيو بيشون، وتناول طعام الإفطار عنده، فوجدناه كذلك في انتظارنا فهش وبش. وبعد أن تعرف بكل واحد وسلم عليه وقف معنا ننتظر الطعام، على العادة الأوروبية من الوقوف قبل الطعام وبعده، وهي مصلحة بدنية وإرشاد طبي يعين على إبادة ما بقي في المعدة منه لئلا يدخل طعام على طعام. وبعد الطعام يقفون أيضا ليعين على الهضم لأن الجلوس تتعب معه المعدة في الهضم فأحرى الاضطجاع. وفي خلل الوقوف تجاذبنا أطراف الأحاديث معه ومع زوجته ومع من حضر من الذوات والأعيان الذين يبلغون الخمسين ما بين أعضاء الوفدين المغربي والتونسي (ولم يحضر الوفد الجزائري لكون النظر في شؤونه لوزير الداخلية ولا علاقة له مع الخارجية). وقد حضر أعيان من وزراء افرانسا لهم علاقة بالوفدين، كموسيو رينو الذي كان سفيرا في المغرب وعلى يده تمت حمايته، وموسيو لابتيت الذي كان مقيما عاما في تونس منذ أمد قريب، وموسيو دوبليتي وغيرهم من الذوات المشهورين.

وبعد تهيئة الطعام وإعلام المكلف بالمائدة بحضوره، فرق على جميع من حضر خارطة المائدة وكل كرسي مرسوم عليه عدده، وكل واحد رسم له في خريطته محل الرئيس الذي هو رب المنزل ومحل زوجته تقابله وآسم صاحب البطاقة مرقوم أمام عدد كرسيه من غير أن يرسم له آسم سواه. فعند الدخول قصد كل واحد عدد كرسيه، فوجد أمامه اسمه أيضا موضوعا في محله. وبدئ بتفريق الطعام على العادة، فكانت مائدة جامعة لأشراف القوم وشريف الطعام.

وبعد تناول المشتهيات وتجاذب أطراف الأحاديث الشهية، كل مع من يليه، نهض وزير الخارجية وألقى خطابا بليغا أثنى فيه على الإفريقيين وعساكرهم وإعانتهم افرانسا والأخذ بناصرها في أحرج المواقف. ثم رحب بالوفدين وودعهما، وشرب نخب السلطان والباي. فنهض وزيرنا وأجابه شاكرا له، مُثنيا على دولته التي قابلتنا بما يجب وفوق ما يجب. ثم تلاه في الخطابة رئيس الوفد التونسي. ثم تحولنا لمحل الانتظار لشرب القهوة، فتناولناها ممزوجة بأحاديث عالية وفكاهات سامية والرئيس وزوجته يأتي عند كل واحد من الوفدين يباشره ويحادثه إلى أن حان وقت الانصراف فانصرفنا شاكرين ضيافته وأنسه.

ولاحظت أن وزارة خارجية افرانسا محل له أهمية عظمى، أكثر من كل ما رأيت من الوزارات، سواء من جهة البناء والزخرفة والضخامة والعظمة، أو من حيث الأثاث والرياش. وكيف لا وهي الموضع الذي يزوره سفراء دول المعمور قاطبة والملوك التي تقصد افرانسا. فلا ريب أن تظهر فيه مدنيتها وعظمتها ومحاسن ذوقها. ولقد رأيت في قاعة الانتظار والقهوة زرابي مفروشة ومكسو بها الجدران، عز أن نرى لها نظيرا إلا في قصر لويز الرابع عشر في فرساي : فقد رأيت هناك زربية ذكروا لي أنها مرت عليها سبعون ألف عسكري بسبابيطها[44] وما أثروا فيها شيئا، لجودة صنعها وإتقان عملها، ولا في ألوانها التي أكثرها الأبيض والأزرق والأصفر، وهي أقرب الألوان للتغيير السريع ولا زالت كأنها جديدة وهي زرابي عجمية فارسية فيما أظن.

زيـارة رئيـس الجمهوريـة

وفي الساعة 5 عشية، توجهنا لقصر الإليزي لزيارة رئيس الجمهورية، موسيو بوانكاريه. وقد وجدنا الوفدين التونسي والجزائري سبقا الوفد المغربي ولكن كل في محل الانتظار. وبمجرد دخولنا،ذهبنا توا لغرفة التشريفات. ولما فتحت وجدنا الرئيس المذكور واقفا بقرب الباب. ودخل رئيس التشريفات أولا، وعلامته سلسلة معدنية علقها في عنقه على هيأة السبحة، فقال : الوفد المغربي. ثم أذن لنا في الدخول فدخلنا، وسلمنا على الرئيس وهو قائم على قدميه واحدا بعد الآخر على ترتيب مراتب الوفد فصافح كل واحد بعد أن عرف آسمه وخطته، ورحَّب بالكل باسما هاشا. ويلوح على محياه البشوش لوائح البشر، والنشاط، والنباهة، والاقتدار في الإبانة، وحسن المنطق وجمال الوجه، ومكارم الأخلاق. ثم أعرب لنا عن سروره بمشاركتنا في حفلة النصر وصرح بأن المغرب كما شارك افرانسا في ضراء الحرب سيشاركها في سراء النصر، وأن مستقبل المغرب مستقبل زاهر بما في نوايا الدولة الجمهورية العظمى من الترقيات والأعمال المفيدة. وأثنى على عساكر المغاربة البواسل ومعونة السلطان وأعوانه بحسن الإدارة وصدق المحبة. فأجابه الرئيس بالشكر التام على ما لقيناه في البلاد الفرنساوية من الحفاوة والإلتفات وهنأه بالنصر العظيم وطلب أن تبذل افرانسا مجهودها في ضم طنجة إلى المنطقة الفرنساوية، لأنها جزء من المغرب لا يتجزأ. فأجابه الرئيس بأنه لا يقدر أن يجيبه جوابا كافيا رسميا في ذلك، ووعد خيرا في المباشرة. ثم التفت إلى

(44) **السبابيط** (ج سباط) : كلمة في اللسان المغربي الدارج تعني الحذاء (من الكلمات الأجنبية الدخيلة).

باشا طنجة، السيد الحاج عبد السلام بن عبد الصادق، وتقدم إليه فسأله عن بلده وأحوالها. ثم ودع الجميع والألسنة تثني عليه الثناء الجميل وعلى أخلاقه الجميلة وتواضعه الزائد حتى يظن الظان أنه ليس رئيس جمهور أمة تعد بأربعين مليونا ومستعمراتها بستين مليونا.

دار الصور المجسمة

من جملة ما رأيته في باريز دار الصور المجسمة من الشمع. ولما دخلتها، وجدت فيها أشباح رجال قائمين على أرجلهم، لابسين للملابس عسكرية وغير عسكرية، فما يظن الظان إلا أنهم ناطقون أحياء. وهناك وجدنا صورة بعض الخنادق الحربية والعدو قد دخلت عليه الجنود تضرب جنوده داخلها وغير ذلك من الصور المهولة العجيبة.

وصعدنا إلى غرفة متسعة مثلوا فيها إقبال ظلام الليل وطلوع القمر وظهور النجوم، ثم بزوغ الفجر وظهور غزالة النهار وغير ذلك من الأمور التي يندهش لها ذهن الحاذق الجسور. كل ذلك بعمل الكهرباء. ومثلوا هناك غابات وأشجاراً ودورا ومنازل يراها الرائي ماثلة شاخصة. وليس هذا من باب ما يمثل في الصور المتحركة بل هذا أعجب من ذلك يرى ممثلا في فضاء متسع دائر بك حتى يظن الظان أنه من باب السحر لا من باب التمثيل.

وبالجملة، فباريز دار العجائب ومجمع الغرائب.

نهوضنا من باريز إلى الألزاس واللورين ومواقع الحرب

يوم الإثنين 20 يوليوز، في الساعة 8 صباحا، ركبت الوفود الثلاث القطار الحديدي فتوجهنا على جناح السلامة قاصدين مدينة نانصي على الحدود اللورانية. ومررنا في طريقنا على قرى ودساكر ومحطات حديدية عديدة. وكل هذه الأرض أشجار وأغراس وزروع، مثل ما تقدم الوصف في غيرها وهنا أكثر، ولكن قد أثرت الحرب في كثير من تلك الأبنية بالهدم والتخريب. فوصلنا مدينة نانصي في الساعة 2 بعد نصف النهار، ونزلنا في كَران أوتيل الذي هو أمام بطحاء جميلة، وزاد جمالها ببستان عمومي جميل للغاية أمامها.

وقد تجولنا في أنحاء المدينة وأحيائها فإذا هي مدينة جميلة كبيرة محصنة غاية التحصين، ولها تحصين طبيعي بما أحاط بها من الجبال الوعرة المسالك، وهي وراء الجبل على وادي هناك وقد أثرت فيها القنابل المدفعية والهوائية تأثيرا أكثر مما رأينا في باريز بمراحل، لقرب هذه من الحدود جدا. ولكن ما حولها من الحصون منع العدو من الوصول إليها، وإن لم يمنعه من إصابة بعض أبنيتها مع اختفائها وراء الجبل وبين الأودية. وفيها حمام معدني ومنتزه في رأس الجبل يقصده السواح والمتداوون، لصفاء هوائه، وبتنا هناك.

وصف ميادين القتال وما وقع فيها

وصبيحة الثلاثاء 21 منه توجهنا على الطائر الميمون إلى التجول في ميادين القتال، بالحدادة [45] اللورانية. فركبنا أوتومبيلات أعدت لنا هناك من لدن الوزارة الحربية. ومنذ انفصالنا عن نانصي ونحن نرى أن الأرض قلب بطنها على ظهرها وخربت عمارتها وذهب جمالها الصناعي والطبيعي. فالنباتات حرقت، والأشجار قطعت، والأبنية هدمت إلى أن وصلنا إلى ڤيردان[46] التي صار آسمها في العالم أشهر من نار على علم بما وقع فيها من المعارك الدامية بين الجيشين الفرنساوي والألماني.

وكان وصولنا إليها في الساعة 11 نهارا، فجُلْنا في أسواقها وطرقها وآثارها فإذا هي مدينة حصينة بين الجبال مختفية على قنال وادي يشقها عليه قنطرة. ومع اختفاء المدينة وشدة حصانتها ومتانة أبراجها تخربت جل معالمها وديارها ومحطتها الحديدية، فأضرارها أكثر من أضرار مدينة نانصي بكثير، ولكن مع ذلك بقي كثير من الدور والمخازن سالما وبعضها وقع فيه انشقاق وميلان. ولكن اليد العاملة هناك تصلح بعض الدور ورجع الناس للتعمير والسكنى فيما بقي. وبدأت بعض الأسواق في العمارة.

وبعد التطوف فيها خرجنا منها لنزور الأبراج المحيطة بها من جهة الحدادة، فوصلنا إلى برج ڤيردوڤوا ووجدنا هناك في آنتظارنا حاكمها، الجنرال فلانطيان، فطاف بنا حول البرج وأطلعنا على الطرق المؤدية إليه المنحوتة في الجبل، الخفية عن الأبصار بحيث يمر الأتومبيل حاملا في الطريق من ڤردان إلى أن يدخل البرج لا يراه العدو. وهكذا من ڤيردان إلى البرج عدة مكامن وخنادق وطرق مؤدية إليها لا يراه

(45) الحدادة (تسكين الحاء) : التحريف المغربي، الدارج، لكلمة «الحدود».

(46) Verdun.

الإنسان حتى يصل إليها، فالأرض كلها من نانصي إلى هذا البرج تقريبا كلها خربت فلا ترى إلا طريقا منحوتا عليه النبات ملتف لا يراه إلا من كان ماشيا فيه أو بقربه أو خندقا، أو عسَّة(47)، أو مرصدا منحوتاً في الجبل يرى صاحبه ولا يراه أحد وهكذا إلى أن وصلنا البرج.

وقبل أن ندخل البرج، وقف الجنرال المذكور وألقى علينا خطابا، بين لنا فيه هجوم الألمان على البرج المذكور المرة الأولى والثانية والثالثة. ففي إحدى المرات، أخذه واحتل فيه بعد عراك شديد دام سبعاً وعشرين ليلة. ولما دخله وجده فارغا، خلاف ما كذب في جرائده وشنع بأنه أخذ حاميته أسرى، وذلك أنه لما طال القتال والعراك تمكن العدو من قطع خط الرجعة على حامية البرج وأحاط به وصب عليه نارا حامية. وكانت الأمطار غزيرة، ولما انقطع الزاد والمدد عن الحامية التي كانت فيه أربعة أيام ما ذاقوا فيها ذواقا، والموتى بين أيديهم والمجاريح تموت وهم مغمورون في الماء. عند ذلك قال لهم أميرهم : قد أديتم ما يجب عليكم نحو الوطن الفرنساوي، فإن شئتم خرجتم وتركتم البرج للعدو. فخرجوا وسلموه. وعند ذلك دخل العدو، ولكن رجع الفرانسويون بعدما جمعوا قوتهم وأخرجوه منه عنوة. ثم لما هجم العدو مرة أخرى دبر له المرشال بيطان(48) مكيدة، وكان إذ ذاك جنرالا، رئيس الجنود هناك. فكان العدو يمهد سبيل الهجوم بمدافعه الضخمة على عادته والمدافع الفرانساوية من طرز 75 تجاوبه، ومن أطرزة أخرى وبطرياتها كثيرة. وأظنه قال سبعون بطرية. ففي كل طلقة يأمرهم الجنرال بيطان بإسكات بطرية، حتى لم تبق إلا بطرية واحدة تجيب العدو من البرج. فلما رأى العدو ذلك لم يبق له شك أن البرج انهدم وأن المدافع أفسدت. وكان رئيس جنود العدو ولي عهد الألمان فأمرهم بالزحف على البرج. فتركهم بيطان حتى ملأوا السهل والجبل، وكسيت الأرض بعساكرهم وصاروا هدفا لمدافع الفرنسيس. فعند ذلك أصدر أمره إلى عساكره المحصنة في البرج بصب نيران المدافع عليهم، فامتثلوا وفتحت المدافع أفواهها بعدما كانت ساكتة مختفية. وأصْلَت تلك العساكر المنتشرة في تلك الأدوية نارها الحامية فكست الأرض بجثتها وتركتها مرعى لنسر وطائر. وكانت هذه الوقعة من أشنع الوقائع وأقبحها على الألمان، تكبد فيها خسائر عظيمة، وثلم الجيش الألماني بثلم لا ينجبر وذهبت رجاله ضحية استبداد

---

(47) تحريف في اللسان المغربي الدارج لكلمة العسس.

(48) Maréchal Pétain (Philippe) (1856-1951).

أميرهم الجريء الغشوم ولم يبق لهم بعدها مطمع في البرج. وفي المدة الثالثة هجمت عليهم الجنود الفرنساوية فزحزحتهم عن مواقفهم. هذا يلخص خطاب الجنرال، حسبما بلغنا الترجمان، وخطبه علينا ونحن على باب البرج والمطر إذ ذاك يصب علينا بغزارة.

ثم دخلنا البرج، الذي هو عبارة عن جبل منحوت هبطنا إليه بدرج كثيرة، ولمّا وصلناه وجدناه عجبا وأي عجب : فيه دروب ودهاليز منفتحة إلى سائر الجهات، كل فتحة تكون فيها المدافع التي تصب النار على الأعداء مما يحار العقل في تكييفها والقلم في وصفها. وفيه مساكن العساكر ومحال الأكل ومواضع خزن الذخائر والمؤن الكثيرة وأسلاك الكهرباء ممتدة إلى جميع جهاته للأضواء والتليفون. ورأينا في أرضه مطابق متعددة بأبواب حديدية، فسألنا عنها فقال لنا إن تحت البرج برجاً آخر مثله، عينا بعين، على عمق ثمانية عشر ميطرا بحيث إذا اندك البرج الأعلى بالمدافع الضخمة تدلت الحامية في المطابق إلى البرج الأسفل. وأخبرنا الجنرال أنه إذا كانت القنابل تنزل فوق البرج ظن من فيه أنه آندك فوقه وتكون هناك الأهوال العظيمة التي لا يثبت لسماعها إلا من كان له قلب حديد.

وحاصل القول إن هذا البرج من الآثار العظيمة والأعمال الكبيرة التي تدل على ما للدولة من العظمة والمنعة والقيام بالدفاع عن الوطن. وقد سمي هذا البرج باسم مخترعه.

ثم رجعنا إلى فردن، بعد آستيعاب عجائب البرج المذكور. وشاهدنا في طريق رجوعنا مثل ما شاهدنا في طريق مرورنا من الهدم والتخريب وقلب الأرض بطنا على ظهر حتى لم تعد صالحة للحرث بل لا يقدر أحد أن يجري فيها سكة الحرث ولا أن ينقرها بفأس الفلاحة خوفا من آنفجار بقية المواد التي كانت المدافع والطيارات تقذفها. وعند وصولنا إلى فيردان دخلنا برجها الشهير، الذي هو بِطرف المدينة المسمى «سيطادل فيردان»، وهو على نسق البرج السابق. وقد وجدنا مائدة الإفطار مهيأة داخله للوفود الثلاثة مع الجنرال المذكور وأركان حربه، وبداخله الموسيقى العسكرية. ووقفنا حتى أتمت نشيد المرسلياز الوطني الذي آستقبلت به الوفود ترحيبا بهم، وتلك عادة لابد منها، وهي الوقوف ووضع اليد على الرأس لإجابة سلام الموسيقى مهما أنشدت المرسيلياز تعظيما لهذا النشيد الذي يعتبره الفرنساويون شعار الجمهورية الفرنساوية وسلامها الخاص. وكان تناول الإفطار متأخرا إلى الساعة الأولى بعد الزوال. وبعد تمام الإفطار قام الجنرال وشرب نخب إفريقيا الشمالية .

وعساكرها ورحب بنا غاية الترحيب، فأجابه رؤساء الوفود بما يناسب مقامه وانصرفنا بعد الوداع معه إلى متس.

مدينة متس

وهي مدينة على الحدود اللورانية، من ضمن اللورين التي كانت بيد الألمان وآسترجعتها فرنسا من يدهم. وقد تبدلت مناظر الأرض، وأهلها، وطقسها : فالطقس هنا أبرد، والأرض أشدْ خصوبة وأجمل منظرا وأكثر أشجارا، والساكنون أشد شقرة وفي الوجوه أزيد حمرة وأصفى ألوانا وأقل جمالا.

ولما وصلنا متس وجدناها مدينة أوروبية جميلة في وادي منخفض وقد أثرت فيها قنابل الطيارات، ولكن قليلا فقط. فذهبنا توا إلى بيت حاكمها العسكري، الجنرال دومودوي الفرنساوي، وعليه الراية الفرنساوية خافقة بعد غروبها عن تلك البلاد خمسا وأربعين سنة. وإذا بداره هي الدار التي كان يسكنها الحاكم الفرنساوي قبل الاحتلال الألماني. وعند آحتلال الألمان إليها، سنة 1870، كان هدم المدافع قد أثر فيها فأصلحها الألمانيون على النسق الفرنساوي لم يغيروه وخرجوا الآن وتركوها بحالها ومحتوياتها. ولما قابلنا الجنرال المذكور فاه بخطاب بليغ ورحب بنا غاية الترحيب قائلا : إني كنت مشوقا لرؤية شمال إفريقيا لكنني رأيت نخبة رجالها، فالحمد لله على الاجتماع بهم. وقد قدت عساكرها البواسل تحت رايتي فوجدتهم أشجع الرجال وأكثرهم صبرا : صدقوا في دفاعنا عن أرضهم [كذا] ثم لما احتضناهم صاروا لنا إخوة صادقين فقاتلوا معنا بصدق وإخلاص يحسدنا عليه أعداؤنا مما يدل على صفاء طويتهم نحونا. فسرهم كعلانيتهم، لا يشوبهم غش ولا خداع. فأجابه الرئيس بما يناسب المقام. ثم توجهنا للمحل الذي أعد لنزلنا، وهو كَران أوتيل القريب لداره.

ومن الغد تجولنا في أنحاء المدينة ووقفنا على بعض ما خلفه الألمانيون من الآثار في التعمير قبل الحرب والتخريب بعده. وفي الحقيقة إن التخريب هو من الجيوش الفرنسية التي كانت تريد آحتلالها ولكن بسبب حرب الألمان.

وفي المدينة حصون هائلة وأبراج دفاع غير ماثلة، بل مختفية، وفيها فواكه كثيرة ونعم وفيرة. وهي مدينة بين جبلين يشقها ترعة وادي عليه قنطرة مهمة. والسكان الآن بالمدينة قليلون لما تقدم من الحرب المهاجرة.

وفي الساعة 8 صباحا من يوم الثلاثاء 22 جوييه، موافق 21 شوال، جاء الجنرال المذكور لرد الزيارة. وفي الساعة 2 بعد نصف النهار أتى مع فرقة من عساكره الخيالة لمحل نزلنا ووقف بالباب والموسيقى العسكرية تصدح حتى ركبنا الأتوميبلات وودعنا وعساكره مصطفة.

وتوجهنا إلى سطرسبورغ فمررنا على طريق مطولة فيها عدة قرى ومدن، جلها ألزاسية، لأن الحدادة بين اللورين والألزاس هي قريبة من متس. وبفراقنا لمتس فارقنا محل أضرار الحرب فلم نره بعدها محلا متهدما ولا مائلا، وإنما هي أرض الزراعة والأشجار والثمار والأنهار وتغريد الأطيار فيها من أنواع الفواكه والخيرات شيء كثير، فهي أخصب من بلاد فرنسا التي مررنا بها من قبل حتى إن الأشجار التي يغرسونها على الطرق الصناعية كلها أشجار فواكه : من جوز، ولوز، ومشمش، وتفاح، وإجاص، وبرقوق، وخوخ. فترى الفواكه تدوسها عجلات الحوافل في كل صوب. ولا أجمل من مناظر هذه الأرض : كلها مزروعة بالخضر وأشجار الفواكه والعنب، وفيها المزارع الخصبة والحبوب وصناعة الفلاحة قد ارتقت فيها إلى أعلى درجات الكمال، ولاسيما عندما اقتربنا من سطرسبورغ بنحو ساعتين. فكأنما تلك الأرض بستان التجربة النباتية للخضر والفواكه والثمار. وكان النهار باردا، إذ جو هذه البلاد أبرد من أرض باريز، وأيام السفر كانت كلها باردة والأمطار غزيرة.

مدينة سطرسبورغ

قد وصلنا مدينة سطرسبورغ في الساعة 6 عشية، فنزلنا في فندق بّلاص. وقد تفرق الأعضاء في فنادق أخرى لكثرة الزوار في الفندق المذكور، بل وفي غيره. فهذه المدينة هي عاصمة الألزاس، معدودة من المدن الأوربية ذات الاعتبار، فيها ترعة وادي جميلة مجلوبة من نهر الران، وعليها قنطرة مهمة، وشوارعها متسعة منتظمة، وفيها ميادين وسيعة وبساتين بلدية جميلة.

ويوم الأربعاء تجولنا في ضواحي المدينة وأنحائها وأسواقها الجميلة ذات التجارة والأبضعة النفيسة. وفي المدينة عدة كنائس مهمة، إحداها بصدرها صورة مارشال فرنساوي كان هزم الألمان والنمسا وهولاندة في حرب قديمة قبل عام 1870، وقد تركها الألمان على حالها بعد آحتلالهم البلد. وبأسفل الصورة صندوق رخام به جُثة مصبرة.

وهناك في خزانةٍ قلب المرشال المذكور مصبَّراً. وفي الكنيسة أيضا قبر رخام به رجل محنط منذ ما ينيف على مائتي سنة بكسوته الإفرنجية وعليه وعلى القبر زجاجة، بحيث يرى وجه الرجل كأنه نائم. وعند رجله بنت له صغيرة كذلك.

منجانة سطرسبورغ[49]

ورأينا هناك أيضا كنيسة كبيرة أخرى بها ساعة تعد من عجائب الدنيا من عمل يد رجل صوروا تمثاله بباب الكنيسة. ويقال إنهم قتلوه حسدا على صنعتها ومعه صورة بنته التي أعانته عليها. وما كملها هو بل كملها غيره رغما عما حل بالمخترع من القتل.

والحق يقال إنها من العجائب، فإن الساعة المذكورة شغلت جزءا مهما من مدخل الكنيسة وفيها محل يدل على الساعة والدقائق وفيها صورة الفلك، ويؤخذ منها مقدار ما قطعت الشمس والقمر من الفلك، فتدل على عدد أيام الشهر العربي والعجمي بتدقيق وتحقيق حتى إن الكبس الذي يكون على رأس ثلاث أو أربع سنوات يخرج هناك مدققا محققا، بل وحركة الإقبال كذلك لكون مخترعها بنى ذلك على قواعد منضبطة لا تتخلف ومسائل فنية في غاية التحري والإتقان. قال المكلف بها إن لها مدة سبعين سنة ما وقع فيها زيادة ولا نقص، بل هي في غاية الضبط للأوقات والأيام ولا تحتاج إلى تعمير قوة خدمتها إلا مرة واحدة في السنة. ولها منذ وجودها مائة سنة، وفيها صورة بنت بيدها مطرقة تدق الساعات على ناقوس، وديك يصرخ. وفي أعلاها صورة المسيح واقفا وبيده الصليب، فإذا وصلت الساعة 12 مر بين يديه الحواريون خاضعين له وهو يشير لهم بالصليب مُبْركا عليهم.-وبها عجائب أخرى يطول شرحها. حاصله ألقى علينا المكلف بها درسا في بيان تركيبها وعجائبها في مقابلة شيء من الدريهمات يتقاضاه. وبذلك صارت الكنسة محل فرجة وشبكة فلوس.

ولقد أذكرتني هذه المنجانة منجانة أبي عنان[50] بطالعة فاس[51] وقد اندثرت

(49) **منجانة** (في اللسان المغربي الدارج : «مجانة»، مع نطق الجيم بحرف G) : تعني الساعة. فهي إذن ساعة سطرسبورغ.

(50) السلطان المغربي المريني أبو عنان. تولى الحكم ما بين 1348 و1358م.

(51) **طالعة فاس أو حي الطالعة** : من الأحياء الشهيرة في مدينة فاس (الطالعة الصغرى ـ الطالعة الكبرى).

ولـم يبق إلا بعض نواقيسها. ومنجانة أبي حمو الزياني في تلمسان، وصفها يحيى[52] ابن خلدون في «تاريخه»ـه. ولعل منجانة سطراسبورغ صنعها صانعها على منجانة أبي حمو، كما أن منجانة أبي حمو قلد فيها مخترعها منجانة هرون الرشيد المشهورة في التاريخ التي أهداها للملك شارلمان الفرنساوي. فقد ذكروا أنها كان يديرها الماء، وأن لها اِثني عشر بابا كلما مضت ساعة يفتح باب برزت منه مطرقة ضربت على جرس عدد الساعات ثم تخرج صور اِثنى عشر فارسا على خيل تدور على صفحة الساعة. ولا غرابة في هذا فقد سبق المسلمون إلى اختراعات أخرى. وذكر بعض المؤرخين أن الرشيد لما وجه منجانته إلى شرلمان تعجبوا منها وظنوا أن بداخلها جنيا يحركها. نعم إن منجانة أبي حمو هي أغرب من منجانة سطراسبورغ، إذ منجانة أبي حمو كانت الجارية تخرج من كل ساعة من ساعات الليل وتنشد أبياتا تناسب تلك الساعة، كما بسط ابن خلدون القول في ذلك. فلينظره مبتغيه في تاريخه «**بغية الرواد**».

وفي هذه المدينة ميدان واسع، فيه تمثال العالم الألماني جوتنبرج الذي اخترع المطبعة، وكانت سببا في تقدم العلوم الإفرنجية والعربية. وهو مولود فيماينص الألمانية سنة **1400**، وهناك شارع باسمه تعظيما لشأنه. ولولا اختراعه ما وصلت العلوم إلى ما هي عليه.

وصف الألزاسيين واللورانيين وأخلاقهم

أهل ألزاسيا ولورانيا قريبون في شكلهم وصورهم وأخلاقهم من افرنسا. نعم، الفرنساويون أكثر جمالا وشعرهم أكثر سوادا عن هؤلاء. نعم، لون هؤلاء أصفى وأكثر حمرة وبياضا من الفرنساويين، وأجسامهم أقصر شيئا ما، أما أخلاق الفرنساويين فأجمل. ولما كنا في باريز لم يكن الناس يجتمعون علينا، أما هؤلاء فجعلونا عجبا وكانوا يجتمعون لرؤيتنا رجالا ونساء وصبيانا وأكثروا في ذلك مما يدل على خفة أذهانهم كأن الله ما خلق بني آدم إلا ليلبسوا لباسهم وكأن آدم خرج من الجنة بلباس أوروبا، مع أنهم أقل حذقا في اللباس من الفرنساويين : فالفرنساويون يتجملون

(52) يحيى ابن خلدون (773/1332–870/1378). شقيق المؤرخ الأشهر عبد الرحمن ابن خلدون. ولد في تونس ومات في تلمسان مقتولا. والكتاب المذكور : **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** (في جزئين) أشهر مؤلفاته.

أكثر منهم، ولاسيما النساء. ولقد جاءت امرأة تسألنا متعجبة عن لباسنا : هل أنتم يهود ؟ وأخرى تقول : هل أنتم تلعبون في الطياطر ؟ – يعني الملاهي – حتى حصل لبعض الأعضاء نوع ضجر من ثقل سؤالهم وكثرة تفرجهم.

ثم المعيشة في هاتين المقاطعتين أرخص من افرانسا بكثير.

وفي الساعة 12 من يوم الأربعاء المذكور كان إفطارنا عند حاكم عموم الألزاس واللورين وهو موسيو ميلران[53] الذي كان وزير الحرب في افرانسا. وحضر على المائدة 40 مدعوا والوفود الثلاثة وبعض الأعيان كحاكمها المدني وحاكمها العسكري، وهو الجنرال كورو[54] المشهور ولاسيما في المغرب وخصوصا فاس التي طال حكمه بها.

وبعد تناول الغذاء خطب موسيو ميلران مرحبا بالوفود، مثنيا على الجنود، فأجابه رؤساء الوفود بالشكر التام. أما رئيس وفدنا[55] فكان جوابه بالعربي وترجم حينا، وأما رئيسا الوفدين التونسي والجزائري فأجابا بالفرنساوي. وبعد تبادل الأنخاب تفرق القوم فركبنا الأتومبيلات وذهبنا قاصدين الحدود الألمانية.

ومنذ فارقنا سطرسبورغ ونحن في بساتين عامرة آهلة بالدور والضياع إلى أن وصلنا إلى وادي الرين الذي هو الحد الفاصل بين ألزاسيا وألمانيا، وكأنما هي مدينة متصلة إلى الحدود، وهي مسافة نحو نصف ساعة في الأتومبيل. ووجدنا على الرين قنطرة ضخمة حديدية على نحو ما وصفنا في قنطرة بوردو، وهي معدودة من الألزاس لأن الوادي من أرض الألزاس، والحد هو ضفة الوادي من جهة ألمانيا والقنطرة من أضخم القناطر وأوثقها. وفي طرفها عسة الحدود.

وقد لقينا في طرق الحدادة كولونيلا افرانساويا نائبا عن رئيس الجيش المحتل في أرض السار التي هي ألمانية وهو الجنرال مانجان فرحب بنا وتقدم معنا حتى دخلنا مرسى كيال الألمانية، وهي مرسى مهمة على النهر المذكور الذي تجري فيه السفن الكبار إلى أقطار الأرض فرأينا هناك الراية المثلثة خافقة والجنود الفرانساوية حارسة قائمة بشؤون الاحتلال، والألمانيون في أشغالهم. والأشغال هناك عظيمة مهمة ناشطة. وهناك في المرسى مراكب كثيرة.

(53) Millerand (Alexandre) (1859-1943). كان وزيرا للحرب زمان رحلة الحجوي إلى باريز، وأصبح رئيسا للجمهورية في الفترة (1920–1924).

(54) Gouraud (Henri Eugène) (1867-1946).

(55) يقصد الصدر الأعظم محمد المقري. و«الصدر الأعظم» هو رئيس الحكومة في النظام المخزني القديم.

ثم رجعنا إلى سطرسبورغ وكانت العشاء عند الجنرال كوروا، أعدها مأدبة فاخرة حضرها الوفود الثلاثة وبعض أركان حربه. وقبل الدخول للأكل ألقى الجنرال المذكور خطابا فخيما ترجمه الترجمان الفصيح موسيو مرسي، الترجمان في الوزارة الحربية، أعرب فيها عن ما له من الميل الخاص للمغرب وخصوصا فاسا التي يعد نفسه واحدا من أهلها. واعترف بما شاهده من بسالة الجنود المغربية والجزائرية والتونسية الذين هم أولاد حضانة افرانسا وعدد مزاياهم في السنة الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة من الحرب التي ظهرت في معركة المارن وفردن وغيرهما من المعارك العظمى حتى دفعوا العدو المهاجم عن أمهم افرانسا. وأثنى على السلطان بمولاي يوسف وباي تونس وحكام الإيالات الثلاث الذين عاونوا بصدق وإخلاص زائد فائق حد ما كان يرجى منهم حتى بقيت الإيالات الثلاث صادقة متمتعة بالأمن والعافية، معينة بكل ما لديها من نفس ونفيس قائلا : إنه لا يزال يذكر مذاكرة بينه وبين عقلاء فاس لما ذهب مقيما عاما للمغرب في الوسيلة التي يحفظ بها الأمن في المغرب وأنهم أشاروا له بأمرين : الأول، بقاء القوة العسكرية الموجودة إذ ذاك من غير أن ينقص منها شيء. الثاني، عدم طول الحرب. قال : وقد بقي الأمن كما كان واختل الشرطان المذكوران فقد أخذنا بعض العساكر من المغرب وطالت الحرب وبقي الأمن مما دلنا على محبة المغاربة فينا وصدقهم معنا. وقد أجابه رؤساء الوفود كذلك بما يناسب المقام.

وبعد الفراغ من الخطب مدت الموائد وتناولنا طعام العشاء وتبودلت الأنخاب بعده، وفرق على أعضاء الوفد صورته وطلب من أعضاء الوفد كتابة أسمائهم في دفتره المذهب الخاص به ليبقى تذكارا.

السفر إلى سانت أوديل

وفي الصباح ركبنا الأتومبيلات وتوجهنا قاصدين مدينة بلفور، راجعين إلى باريز، فمررنا على أرض خصبة، مزروعة بآلات حديثة متقنة تجرها البقر، أحسن ما رأينا وأجمل ما اكتحلت به أعيننا. فيها من الخضر والفواكه فوق ما يتصور فكر فلاح مغرم بالفلاحة وذلك نحو ساعة. وبعدها تعلقنا في الطريق الجبلي بين أشجار الغاب العظيمة وصعدنا في الجبال صعدا صعدا، ونحن نمر بمقاطع الشجر وماكينات نشر

الأخشاب. ورأينا من أنواع المناظر الحجرية والجبلية ومحاسن الطبيعة ما أسكر أذهاننا وسحر عيوننا حتى وصلنا إلى منزل يقال له سانت أوديل، في رأس جبل، وهو محل الرهبان وفيه نزل يباع فيه الطعام أعدوا لنا فيه طعام الغذاء تناولناه هناك. وكان الغذاء جيدا، والمحل ذا مناظر زاهية زاهرة حيث هو عال مشرف على غابات عظيمة متصلة في جبال شامخة لا ترى إلا الجبال المصطفة المكسوة بأنواع من الشجر الجميل المنظر.

مدينة كولمار

وفي الساعة 2 ركبنا من سانت أوديل وتدلينا من الجبال رويدا رويدا إلى السهل إلى أن وصلنا إلى مدينة كولمار، وهي مدينة على وادي تجمع ماؤه من سيول تلك الأجبل فوقفنا بها ريثما استرحنا نصف ساعة وطفنا في حاراتها وأسواقها المنتظمة فإذا هي مدينة صغيرة منتظمة الطرق ظريفة الشكل سكانها نحو ثلاثين.

مدينة ملهوز

ثم نهضنا منها إلى ملهوز، فوصلنا في الساعة $\frac{1}{2}$ 5 مساء، فإذا هي من أجمل المدن الأوروبية : لها أزقة فسيحة منتظمة، وميادين لطيفة. إلا أن الحرب عضتها بنابها: فقد خربت المدافع والطيارات بعض أطرافها، ولكن ليس بكثير. وقد علم قراء الجرائد أن الجنرال دماد صاحب الشهرة الحربية في الدار البيضاء والشاوية[56]، قد احتل في أول الحرب بخمسة وعشرين ألف مقاتل في ملهوز وطرد الألمان منها لأنها واقعة قرب حدود ألزاسيا، لكن استأنف الألمان الهجوم عليها بقوات غفيرة وكاثروه حتى وقع القتال في شوارع المدينة. ودافع الفرنساويون دفاعا كثيرا لم يغن شيئا تجاه الكثرة فأفرغوها، ولا زال أثر الرصاص في جدر المدينة وأبنيتها مصدعة بصداع المدافع الضخمة.

---

(56) الإشارة إلى حادث قنبلة مدينة الدار البيضاء وسهول الشاوية، من قبل البحرية الفرنسية، في سنة 1907.

ثم توجهنا إلى بلفور، التي هي في أول أرض افرانسا، فمررنا على غابات كثيرة بعضها أحرقته الحرب وبقيت بعض المنازل التي كانت متخللة تلك الغياض، وذلك من أعجب ما يتعجب منه. ومررنا على قرى عديدة، جلها أصابته أضرار حربية ليست بكثيرة. وهناك مزارع متنوعة.

مدينة بلفور

وإليك البيان عن وصف بلفور التي وصلناها في الساعة 8 مساء من ليلة الجمعة.

إننا لم نر بلفور حتى كنا في داخلها، لأنها في وسط جبال شاهقة من جهة الألزاس وجُعِلَ في كل جبل حصون متينة وخطوط نار متعددة، كمينة مخبوءة بين الأجبل والأشجار وخنادق الأنهار، فصعدنا تلك الجبال الشاهقة التي هي غابات غناء في السماء وإذا بثنية في جبل منحوتة ضيقة مقدار ما يسع العربة وبها باب حديدي، ودونها خندق عليه قنطرة مررنا عليها فإذا نحن في بلفور. وتلك القنطرة ترفع عند الحاجة، فلا يمكن الوصول للمدينة من الخندق المملوء ماء. فأحصن محل رأيته هذه المدينة التي حفها الله بجبال شامخة نحتت أجوافها اليد الفرنساوية وملأتها بالحصون والمدافع والمؤن والذخائر والأمور الجهنمية التي لا يرى منها شيء. حتى الطاقات التي فيها المدافع يجعلون عليها النبات بحيث إن الضارب يَرَى ولا يُرَى. وتقيم العساكر الكثيرة المدة الطويلة لا تحتاج إلى زاد، لوفرة ما تحت يدها منه. وهناك منازل واسعة وبيوت كاملة المرافق ومستكملة الراحة والرفه للجنود وضباطهم، كأنهم في دورهم لا ينقصهم شيء من أسباب الراحة مع المواصلة التامة بينهم وبين الداخلية بالطرق المخبوءة وراء الجبال المتينة.

ولاشك أن الألمان كانوا عالمين بحصانة هذه المدينة وعدم إفادة الهجوم عليها، لعدم جواز آجتيازها عقلا أو عادة، فلذلك تركوه فيما أظن إذ لم نر هناك آثار الهجوم التي في فردن مثلا، وإنما آثار تبادل الطلقات من العسس والطيارات. فحصانة بلفور طبيعية، بما أحدق بها من الجبال والوعر والأودية والخنادق الطبيعية ثم زادوها حصانة ومتانة بالحصون الصناعية التي اتخذوها في تلك الجبال وأعانتهم عليها تلك الأوعار التي صارت مدينة بلفور مخبوءة في أحشائها. بل الحدود الألزاسية اللورانية كلها بهذه الصفة، لذلك آختار الألمان خرق المعاهدات والهجوم من جهة البلجيك المحايدة على

خرق خطوط النار التي بالألزاس واللورين. فكان ذلك سببا في تهييج الفكر العالمي ضدهم في المعمور، فخسروا الانتصار في هذه الحرب رغما عن آستعدادهم وقوة مخترعاتهم التي كانت سببا في فناء عالم عظيم. وما النصر إلا من عند الله.

وأول ما دخلنا سياج المدينة رأينا أبراجا كثيرة وآستحكامات هائلة، بادية وخفية، ومررنا على برج فتحوا بابه فرأينا فيه صورة أسد مهول له جثة عظيمة، أظنها من نحاس، طوله نحو ست ميطرات فأكثر وأتقنوا صنعه حتى كأنه أسد حقيقي. وقد جعلوا هذا الأسد تذكارا للحامية الفرنساوية التي دافعت عن هذه المدينة في حرب السبعين المعلومة. فقد صبرت الحامية صبرا عظيما ودافعت دفاعا مجيدا، ولكن الألمان أحاطوا بها وتقدموا لباريز فما نفعها إلا أن سلمت المدينة إليهم على شرط بقاء شرف الحامية وهو خروجها بسلاحها ومعداتها إلى افرانسا. أما في هذه الحرب الأخيرة فإن التحصينات العديدة الجديدة منعت الألمان أن يفعلوا مثل ذلك، فكانت شجى عظيما في طريقهم.

ثم إننا نزلنا في كَران أوتيل، ويحق أن يسمى بهذا الاِسم: فإنه محل وسيع رفيع، كامل المرافق، تام الزخرفة والرفاهية.

ثم المدينة على وعرة محلها فطرقها وسيعة منتظمة، فيها ما في المدن الأوروبية من الميادين والأغراس والمنتزه العمومي، وفيها كثير من التماثيل لرجال الحرب.

وقد أسست من منذ نحو 250 سنة، على عهد لويز الرابع عشر.

الأوبة إلى باريز

وفي صبيحة الجمعة 26 شوال ركبنا منها متن السكة الحديدية، في الساعة 10، وتوجهنا إلى باريز فوصلنا في العشي. ومررنا في طريقنا على عمائر وقرى وأحراج وأغراس. وقد أثرت الحرب بعض التخريب على تلك المنازل، ولكن أخف مما هو بجهة فردن بكثير.

وبوصولنا إلى باريز انحلت جمعية الوفود وأصبح، بل أمسى كل واحد حرا يذهب حيث شاء يصرف على نفسه في يومه وأمسه.

فكانت مدة تقيدنا بقيود الوفادة، من لدن الخروج من فاس إلى الآن، إثنين وعشرين يوما.

السفر إلى انجلترا وسببه

إن الوفد لما انحل اختار كل من رجاله أن يذهب إلى -هة لقضاء ما تعلق له به مأرب صحي أو تجاري، أو لا مأرب سوى تبذير المال الذي أتى عفوا ليقال.·أما أنا، فإني آخترت أن أذهب إلى لندرة ومنشستير، لما أسمع عنهما من العجائب، وللنظر في شؤون تجارية وزيارة بعض المعامل وأصحاب سيدي الوالد رحمه الله هناك حيث إنه أقام في منشستير للتجارة مدة من سنة 1300 إلى 1306. ثم رجع إليها مرتين، ولكن أقام مدة ليست بطويلة كالأولى، وآخر عهده بها سنة 1319 رحمه الله وقدس روحه.

وقد باشرنا التسريح[57]، وقضاء بعض الأغراض، ومشاهدة بعض محلات في باريز، إلى يوم الأربعاء 30 يوليوز، بعدما لزمنا أن نذهب إلى قنسلاتوا[58] النجليز للطبع على تذاكر السفر. وقد سألني القنصل عن وجهتي وقصدي من السفر. فأجبته بأني أريد لندن ومنشستير لسياحة وتجارة. فقبض سبعة افرنك، أجرة الطبع، وتوجهنا على جناح السلامة.

الطريق من باريز إلى بولون

وكان تحرك القطار بنا من محطة الشمال بباريز في الساعة 12 نهارا.

مررنا في الطريق على جملة قرى وضياع، وكثير من ذلك أضرت الحرب به تهديما أو تصديعا، ولاسيما لما وصلنا أميان (Amiens)، فقد وجدنا بها من آثار التخريب والتهديم ما يؤلم القلوب. بل وقبل وصولنا إليها وجدنا ذلك، مهما بعدنا عن

(57) تعبير مغربي يعني طلب الإذن بالسفر : سواء للتوجه خارج الحدود، أو لمغادرة دائرة مراقبة معلومة، وذلك على نحو ما كان عليه الأمر أيام الحماية الفرنسية.

(58) قنصلية (Consulato).

باريز بنحو ساعة إلا وظهرت الآثار الحربية. ومهما قربنا من أميان رأينا كثيرا من الخنادق والحفريات وقلب الأرض ظهرا لبطن. ووجدنا مخازن الذخائر والمعدات الحربية الكثيرة، ولاسيما للنجليز الذي كانت تلك الأرض منطقة حربه، مع أنه حمل لبلاده شيئا كثيرا بعد الحرب وباع في افرانسا كثيرا ولم يزل له هناك كثير من الخزائن والعساكر.

يقول كثير من الناس إن عساكر أميريكا تظهر غلظة وفظاظة على الفرنساويين، ودالة عليهم بإعانتهم في الحرب وظهور الانتصار على يدهم وبمعونتهم. ولقد بالغوا في هذا القول كثيرا. وإني أقص عليك قضية وقعت لي، وإن لم يكن لها عموم، لكن يقاس عليها غيرها.

فبعد انفصالي من باريز وأخذ كل واحد من الركاب محله في العربة الحديدية خرجت من محل الجلوس إلى محل الأكل وقت الغذاء. وتركت لبدة الصلاة[59] مفروشة في محل جلوسي ومحل جلوس ولدي. وكان بعض عساكر الأمريكان معنا جلوسا، وامرأة عجوز فرنساوية. فلما رجعنا من الأكل وجدنا عساكر أميريكا جلست في محلنا. فكلمهم الولد فلم يفهموه وتجاهلوا. فذهب عند رئيس الوابور الذي هو افرانساوي وشكى له فعل الأمريكان. فجاءهما وكلمهما فلم يجيباه. فذهب عند ضابط أمريكي وأتى به ليقيم العسكريين من محلنا، فلم يفهم الضابط كلام الرئيس لجهله لغة افرانسا وذهب. فعند ذلك تقدم الرئيس وأشار للعسكريين إلى اللبدة التي تحتهما وأنها دليل على أن المحل لنا، فأعطياه إياها وبقيا جالسين في محلنا. فعند ذلك عمد إليهما وأزاحهما عن المحلين بعنف : أخذ بذراع كل واحد وأنهضه، مع أن كل واحد منهما أعظم جثة من الرئيسين، فذهبا ذليلين وجلسنا في محلنا. فهذا دليل أن ما يقوله الناس عن آعتساف عساكر الأمريكان في أرض افرانسا هو قول مبالغ فيه.

وطالما رأينا عساكرهم تمرح في باريز وبوردوا، لا تضر أحدا ولا تخرج عن النظام. نعم، ذكروا لنا أن في بوردوا بوليس أمريكي لإعانة البوليس البلدي في المحافظة

---

(59) لبدة الصلاة أو «اللّبدة» (مع فتح اللام وتشديدها ثم تسكين الباء وفتح الدال بعد ذلك) : نسيج من الصوف الناعم تستعمل من أجل الصلاة. ويضع الفقيه «لبدة الصلاة» في مكان ما، كناية على حجزه لذلك المكان : سواء تعلق الأمر بالمسجد أو بمكان عمومي. فسلوك الحجوي إشارة إلى حجزه للمقعدين. ومن الطبيعي أنه ما كان للجندي الأمريكي أن يدرك مغزى العملية ولا أن يقدر أن المكان محجوز.

على الأمن العام لما عسى أن العسكر الأمريكي إن وقع منه خصام عادي بعضه مع بعض، أو مع غيره، فيكون البوليس الأمريكي رادعا له وملزما له باحترام الحقوق والآداب. والحالة أن كل يوم تسافر عساكر أمريكا لبلادها تمام المأمورية الحربية.

ولنرجع لإتمام سفرنا فنقول : إننا رأينا في طريقنا بقرب أميان، قبلها وبعدها، خرابات كثيرة مما جنته يد الحرب الضروس على الإنسانية ويأسف له كل رقيق القلب. ولكن ما فيها أقل بكثير مما رأينا في جهات فردن. ثم الأرض مزروعة بإتقان، على نحو ما وصفنا من قبل، وبها الغابات المرتفعة الأشجار ولكن يظهر لي أنها أقل من الجهات الأخرى. وبها قرى كثيرة وعمائر متصلة وبعضها أصابه الخراب الحربي ولكن صارت الأعمال ترجع لمجراها وعمرت القرى بالسكان بعد خلائها. وهناك ثكنات للجنود عديدة ومنازل خشبية للمؤن والذخائر، في مساحة كبيرة من الأرض ممتدة مع مجرى الخط الحديدي في محال متعددة.

ثم مررنا على وادي كبير، لكن بقربه مستنقعات لانخفاض الأرض ورمليتها. وقد غرسوا أشجارا لتجفيف تلك المستنقعات، ولكن قليلة.

مرسى بولون

ولما قربنا من مرسى بولون ظهرت لنا آثار العمارة الكبرى والأعمال العظمى الدالة على أن المدينة مهمة، لأنها مرسى متوسطة إحدى المراسي الثلاث الموصلة بين أرض افرانسا وانجلاتيرة. والمسافة في البحر بينهما قريبة من هذه المرسى ولكن أقرب منها مرسى كالي غير أنها لا زالت غير مستعملة لعامة الناس بل للأشياء الحربية التي ترجع من افرانسا إلى انجلاتيرة. والمرسى الثالثة هي الهافر، وهي أبعد المراسي الثلاث(60).

وبمرسى بولون مبان كثيرة أنيقة ودور متصلة تظهر على البحر مرتفعة عنه على صفين، ومرساها على واد يصب هناك في المانش تدخله المراكب الصغار والمتوسطة وهو مرسى طبيعي لها أمين. ولكن لما لم يسع المراكب الكبار، جعلوا رصيفا على حافته ترسو عليه السفن ولها(61) مون كبير في البحر جعلوا عليه مرفأ صناعيا تأوي

(60) المراسي الثلاثة التي يتحدث عنها هي : Pas de Calais, le Havre, Boulogne.

(61) كلمة في اللسان المغربي الدارج تعني المرفأ ـ مرفأ السفن.

إليه السفن الكبار في مأمن من تيار المانش، ووراءه مون آخر أكبر منه، فهي مرسى أمين للغاية ومتسع.

ثم إن الوادي يشق المدينة وعليه ثلاثة قناطر توصل بين جهتي المدينة، من هذه لهذه : واحدة فيها نحو إثني عشر قوسا بناء بحجر، وذلك عند متسع الوادي من أعلاه، وأخرى في الوسط، وأخرى عند المرسى عند ضيق الوادي محمولة على ثلاثة أقواس فقط وعندها تنتهي السفن الصغار.

وقد وصل القطار بنا إلى الرصيف فوجدنا المركب الإنجليزي واقفا ينتظرنا، فمشينا على الأقدام بعض ميطرات فقط. فيها أخذ البوليس منا تذاكر السفر ونظرها وأعطانا ورقة أخذها منا بوليس آخر بباب المركب البحري وأعطانا بدلها. وكان ركوبنا البحر في الساعة 4، وتحركها في الساعة 5 ودقائق 20.

ومما يلاحظ هنا في الفرق بين أخلاق النجليز والأفرنسيين أن هذا المركب فيه محل خصوصي لركوب النسوة، هو أحسن محل في المركب، لا يدخله الرجال أصلا. وكذلك يوجد هذا في السكة الحديدية الإنجليزية، وهذا ما رأيناه قط عند الإفرنسيين، وإنما نسمع بوجوده عند العثمانيين. وما أحق هذه العادة أن تكون عند عامة المسلمين، برا وبحرا، لما عندهم من الحجاب والحشمة.

ومن المعلوم في أخلاق النجليز شدة الحشمة والوقار، وقلة التهتك في نسائهم ورجالهم باعتبار الغالب فيهم بخلاف غيرهم.

إنجلاتيرة

ثم إن البحر كان رهوا ساكنا. ولما انفصلنا عن افرانسا بنحو دقائق 40 ظهر لنا الساحل الإنجليزي وجباله فصرنا بين المملكتين : ما غابت عنا هذه إلا وظهرت لنا هذه. وكانت المركب تسير سيرا حثيثا، وكل مركب مررنا بها تركناها وراءنا إلى أن حللنا فولكسطون على الساعة $\frac{1}{2}$ 5 عشية وذلك بعد أن عانينا مشاق في طبع أوراق السفر على ظهر المركب. فقد عقد المكلفون بذلك مجلسا مركبا من ثلاث لجان، في كل لجنة عضوان وأمروا كل من في المركب أن يأتي إلى المجلس ليطبع أوراقه. وهناك يسأل سؤال نكير عن النقير والقطمير، كل لجنة تسأله وحدها وهم في صالون واحد : من أين أنت ؟ وإلى أي مكان أردت ؟ وعن قدر الجلوس الذي نويت،

ومكان الازدياد وزمانه وعدد سني العمر بل أيامه، ومحل السكنى في البلد الأصلي والعدد المرقوم على الدار التي يسكنها وغير هذا من الأسئلة الباردة التي سألها قنصلهم في باريز ووقع الجواب عنها، وبعده بوليسهم في بولون، وهذه المرة الثالثة هنا. ولا زالت رابعة في لندرة، وخامسة في منشستر، وسادسة، وسابعة. ولا ينجو الإنسان من عذاب بوليس النجليز وثقل أسئلته إلى أن يفارق أرضهم كما قال ذلك العربي الذي بات في بلد واسط وبال ليلا في أحد أزقتها، فقبض عليه شرطة الحجاج بن يوسف الثقفي وبات في السجن. فلما خرج منه هرول خارجا من مدينة واسط وهو يقول :

فلما تجاوزنـــا محلـــة واسط   خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

وحاصله أن أيام سفري في وجهة انجلاتيرة ضاع لي شطر من الوقت كبير يوجب الأسف : كله في الذهاب إلى محل البوليس وانتظار النوبة(62) وجواب الأسئلة والطبع على الورق ونحو هذا مما لا فائدة فيه لنا ولا لهم.

نعم، آستفدنا من ذلك أن النجليز لا يحب زيارة غريب لبلده، بل يريد غلقها في وجه الطالبين كما قال بعض حكماء اليونان، وأظنه أرسطاليس : أبواب أثينا مفتوحة، فمن لم يقبل قوانينها فليبرحها.

ولقد رأيت من بوليس النجليز عبوسا، تظهر بعده ابتسامة باردة. وإن الفرنساويين لأرفق بالمسافر وأبش من هؤلاء بكثير.

المركب الإنجليزي الذي سافرنا فيه بحرا ليس له أهمية ولا به تأنق، إلا من جهة آلات سيره. ولقد رأيت فيه عجبا عند دخول مرسى فولكسطون : فإن المرفأ الصناعي هو على شكل نصف دائرة وليس بعظيم. وحين انتهى المركب إليه جاء عن وراء نصف الدائرة فاضطر إلى أن ينعطف ليدخل فيها. لكن ما انعطف، وإنما بقي ذاهبا إلى الأمام راسما خطا مستقيما حتى تجاوز المرفأ ثم رجع القهقرى مسرعا كما كان في سيره الأمامي ولا زال يتقهقر بسرعة إل أن وصل الرصيف ولاذ به حينا من غير أن ينقص من حركته. فهو في تقهقره مشى على قوته المتحركة، كما كان في سيره الأمامي : فما تمهل، كما تفعل سائر السفن التي رأيناها. وكذا عند التصاقه بالرصيف. كل ذلك مما دلني على ما للنجليز من المهارة البحرية التي طابق ما نسمع

(62) النُّوبة (بضم النون) : كلمة في اللسان المغربي الدارج تعني الدور : «انتظار النوبة» = آنتظار وصول الدور.

عنها. ومما يلاحظ أن المركب عند تقهقرها للوراء لم يحدث فيها اضطراب ولا ميلان، بل كانت حالتها عند تقهقرها كما كانت عند تقدمها.

فولكسطون

هي مرسى بحرية انجليزية، بناؤها جله بالآجر غير مكلس ولا مبيض إلا قليلا من الدور، وسقوفها إنما هي من الزنك[63] بعامة. منازلها على هيأة مخازن البضائع، ذات طابقين وثلاثة. وليس للأبنية هنا قيمة بالنسبة إلى بولون، إلا بعض الدور على الشاطىء تظهر من بعدٍ لها بهاءٌ، والأشجار بها قليلة لكن الطرق نظيفة للغاية. وقد انتظرنا بها القطار على الرصيف عشر دقائق، وبفور وصولنا امتلأ بالركاب الذين كانوا في انتظاره. وحين دخلنا عرباته الضيقة وجدنا آزدحاما كبيرا، تجلس النساء منهم على الكراسي وبقي جل الرجال واقفا فما نفعني إلا حقيبتي جعلتها نائبا عن الكرسي — وكذلك بقينا إلى أن وصلنا إلى لوندرة.

ثم بعد انفصالنا من فولكسطون علا بنا القطار وصارت المدينة كلها تحتنا، ثم ظهرت لنا أرض فسيحة سهلة خضراء تتخللها أشجار. ووصف الخضرة هو لازم لأرض النجليز لكثرة البرودة، وجل هذه الأرض ترعى فيها أغنام كثيرة سمينة وغيرها من السوائم. وهناك رأينا تلك الأغنام مقطوعة التابع كلها لأن بعض علماء النجليز زعم أن الغنم إذا قطع تابعها رجعت قوته لبقية بدنها ويزداد سُمنها، وجرب ذلك فصح فتبعوه كلهم. فلا ترى شاة إلا وهي مقطوعة الذنب : فالأقطع هنا ليس ناقص البركة، بل هو ها هنا زائد البركة وإن كان ناقص الصورة. وساعدهم على هذا برودة طقسهم وإلا فأرض تونس الحارة أصلح : الغنم عندهم ما كان عظيم الإلية عكس الإنجليز.

مدينة لندن

ولما حللنا محطة لندن، في الساعة $\frac{1}{2}$ 9 تقريبا، رأينا فيها ما أدهش لُبَّنا من الحركة الزائدة والآلات العظيمة، والهيئة الفخيمة، والسكك الحديدية العديدة التي رصعت بها أرض فسيحة تتعب العَادَّ وتُبهتُ الناظر. ولم يكتفوا بالقطارات التي تسير

(63) الزنك (نسبة إلى المعدن) : تعني، في اللسان المغربي الدارج، الصفيح بصفة عامة.

بالنار والبخار، بل زادوا قطارات تسيرها الكهرباء وقد حملوا أسلاك الكهرباء على قناطر حديدية محمولة على سواري الحديد. كل ذلك يدل على قوة الحركة في بلاد النجليز من محمول وموضوع، لأنها بلد صناعة تذهب صنائعها إلى جميع الممالك ومختلف الأقطار. ولا يخلو إنسان لم يتمتع بصنائع النجليز، ولا أظنه يوجد، وإذا تمتع بصنائعها فقد جاءت دريهماته إليها.

ومحطة لندن هي أعظم وأضخم وأكبر وأكثر حركة من محطة باريز، ولا أقدر أن أستوعب وصفها وإنما أقول : هي فوق ما يوصف فلا يكفي في تصورها إلا العيان. ولعمري إن الأذهان تحير في ترتيب ذلك وتنظيمه وفي سير الأعمال هناك مع الانتظام التام دون وقوع الحوادث بالاصطدام، فسبحان موفق الإنسان إلى ما يحير منه الأذهان.

وقد وجدنا في لندن بقية العيد الذي أقاموه في 19 يوليوز جامعا لعيدهم الوطني وعيد صلح النصر، كما فعلت افرانسا، واستقدموا له وفودا كثيرة من مستعمراتهم الواسعة وخصوصا في تلك الليلة التي حللنا به. وجدنا المريشال فوش الذي هو قائد عموم جيوش الحلفاء قد أتى لزيارة لندن وزينت له المدينة بأعلام الدول المتحالفة فرحا بقدومه وقدوم أركان حربه ومعيته، ولذلك لم نجد محلا لنزولنا بعد تطوفنا كثيرا من جهات المدينة للبحث عن بيت في أوطيل يناسبنا. وقد قيض لنا عجوزين من عجائز الأنجليز السائحات للتبشير بالإنجليز، على نفقة جمعية معلومة لذلك، وكانتا في المغرب وتعرفتا إلينا فركبتا معنا في الحافلة الأطومبيلية وذهبتا معنا تترجمان عنا لجهلنا اللغة الإنجليزية وهما كذلك كانتا تطلبان مأوى مثلنا فوجدناه جميعا في نزل يسمى كوسما هوتيل، ليس بذاك ولكنه كفى الضرورة، إلا أن أصحاب الفندق ألزمونا مشقة في إعادة ما عمله القنصل النجليزي في باريس والبوليس في المركب وفي غيرها من الأسئلة الباردة وألزمونا بتقييد ذلك بخطنا وباللغة النجليزية. ولم يكن معي من يعرف شيئا من النجليزي، لكن من لطفه تعالى أن العجوزين قامتا بهذا الوظيف وبالترجمة عنا من الفرنساوي إلى الإنجليزي. فكنا نتفاهم بثلاث لغات : أنا بالعربي، فيترجمها الولد إلى الفرنساوي والعجوز إلى النجليزي. وهكذا تَقَضَّى شطر من الليل ونحن واقفون على الأقدام، لم يمكنونا من دخول المرحاض إلا بعد هذا العمل، ولولا العجوزين لبتنا واقفين. فإنا لله وإنا إليه راجعون من هذا الموقف العظيم والحساب قبل أوانه، مع أن العجوز لم تكن تعرف الفرنساوي جيدا فكانت تحصل المشقة بالطول.

ولذلك أتوا برجل هندي هناك يتكلم بالعربي شيئا ما، فهو الذي أكمل الترجمة وختم دور المسألة.

حكم اللباس الإفرنجي في أوروبا

إلا أنه لما وقف إزاءنا أول كلامه نظر إلى لباسنا المغربي وقال : هل أنتم يهود ؟ فقلنا : نعوذ بالله، بل مسلمون. فقال : سامحوني، التبس علي الأمر بهذا اللباس الغير المنتظم الذي فيه بعض زيادات على البدن لا فائدة فيها. فقلت في نفسي : لهذا أفتى الشيخ محمد عبده بلبس البرنيطة في بلد الكفر. وكل من يلبس اللباس المخالف للزي الأوروبي في أوروبا فإنما يتعرض لمثل هذه الأسئلة ولضياع دريهماته : فإنهم مهما رأوا زيا خلاف زيهم إلا ويزيدون عليه في ثمن الأكل، بل كل البضائع : فإن كان تاجرا، فذلك الخسران المبين في تجارته. ولا تظهر ثمرة دينية للبقاء في بلدهم بزي غير زيهم إلا إشهار الإنسان نفسه وجعل عرضه هدفا للضحك والمسخرة والإهانة. فلباسهم كسلاح يدافع به المتلاعبون بدراهم الغرباء، ووجب دفع صائل بما أمكن، ولا يتخلص الغريب منهم إلا بلباسهم ولسانهم. فإن كنت في بلدهم فالبس لباسهم وتعلم لسانهم تأمن مكرهم. نعم، لبس البرنيطة ــ والله ــ أصعب شيء على المسلم. فإذا دعت إليها ضرورة جازت كما يؤخذ من كلام الزرقاني(64)، شارح خليل، عند قوله في الردة «كلبس زنار» ــ ويأتي ذلك. وهذا السؤال من هذا الهندي كان ونحن لابسون جلابة وشاشية وكسوة ملف. ولو أنا كنا بالكساء والبرنوس والعمة والفرجية والقفطان ؟!

وبعد تمام ترجمته وكتب الأسماء التي علمها آدم قالوا : لا يدخل أحد إلا أدى واجب المبيت تسبيقا فأديناه حينا. وسألنا عن الأكل فقالوا : لا أكل هنا. ولكن ذهبوا بنا إلى محل آخر أبعد منه فأكلنا ونمنا إلى الصباح. وأول ما عملنا صباحا الذهاب عند البليس للجواب عن الأسئلة الباردة وطبع الأوراق. وعند ذلك أعطيت لنا حرية التطوف في المدينة فطفنا وتفرجنا على أحسن أسواقها وأعظم شوارعها ومنتزهاتها وقصورها، ومنه قصر الملك المسمى باكنهام والميدان المقابل له الذي كان فيه الاحتفال بالعيد السابق فوجدناه لم يزل مزينا. ويظهر أن احتفال النجليز كان بالغا الغاية وأن الزينة عندهم أكثر مما رأيت في باريز.

---

(64) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي المصري (توفي بمصر سنة 1122 هجرية). أحد أشهر شراح «**مختصر خليل**». ظل كتابه متداولا، مقروءا، في القرويين عقودا عديدة.

وقد سحت في لندرة في أهم الشوارع والأمكنة، وكانت مدة السير في الأطومبيل ساعة وربعا وهي ليست قليلة لمن يريد نظرة إجمالية وإن كانت يسيرة بالنسبة لعظمة لندن فهي مفيدة إفادة إجْمالية مع حصول التفصيل في بعض أماكن دخلتها مستوعبا. فنقول : أهمية لندن من حيث كثرة السكان وكبر المدينة والحركات التجارية والِاقتصاد، فهي أول مدينة في العالم في ذلك والصادر والوارد منها من الأبضعة شيء فوق ما يحصى ولا يستقصى. وهي أكبر مدائن العالم وعواصم المدن، ولا يمكنني وصف عشر العشر من معشارها في سفر كامل : فمساحتها تزيد على مائة ميل وثمانية عشر ميلا مربعا، فمساحتها إذا خمسة أضعاف باريز على ضفتيْ نهر التيمس أو التمز وطول شوارعها أكثر من ثلاثة آلاف ميل تنيرها مليون مصباح بين كهرباء وجاز. وعدد سكانها ينيف عن سبعة ملايين، زيادة عن من يفد إليها وكم من يوم يقولون إنها في نصف النهار تحوي إثني عشر مليونا لمن يأتيها من جهات متعددة. فهذه مملكة لا مدينة، وكم من مملكة لا يكون فيها هذا العدد، بل ممالك : فأهل المغرب والجزائر وتونس لا يبلغون هذا العدد ـ يعني ما هو تحت الأحكام النظام الفرنسية. ويبلغ ثمن الأرض في وسطها، الذي يقال السيتي، نحو خمسين ليرة لكل قدم مربع. وفيها 216 ميدانا، و565 محلا للأنغام الموسيقية والتمثيل، ونحو 300 معرض ومتحف، وفيها 14 محطة حديدية كبيرة أكبرها محطة واترلوا، فإذا أشرفت عليها من محل عال رأيت جبالا من الأبنية تعلوها غابات من المداخن مسودات السطوح والجدر. وإذا أشرفت على ميدان أو شارع رأيت بحرا من الخلق يعلوه موج من العجلات والمركبات، والكل على نظام تام وسكينة ووقار وأدب عام : يحترمون القانون والأوامر الملوكية آحتراما فائقا حد التصور.

وفيها من البليس إثنا عشر ألفا : مهما وقف واحد من البليس وأشار بيده إلى ألف من الناس أو عدد من المركبات وقف الكل كأنما على رؤوسهم الطير، فلا يتقدم واحد بقدم حتى يشير إليهم بالانصراف. ولولا هذا النظام وذلك الأدب، لهلكوا. وفي الفندق الذي كنت نازلا فيه دفتر المشتركين في التلفون، أوراقه 500، مكتوب بخط رقيق جدا. رباعي كبير كل ورقة مملوءة بالأسماء مرتب على حروف المعجم كأنه قاموس، لو طبع القاموس في ذلك الشكل كان مساويا له. هذه أسماء من عنده التلفون في محله وكم من محل ليس فيه.

وإذا أردت واحدا من التجار مثلا، فإنك تجد في كل مركز بريدي أو فندق

كبير شهير دفترا لأسماء التجار مبوبا أبوابا، كل باب لنوع من المتاجر كباب السكر، وباب الأتاي، وباب الكتان، وباب التحف المنزلية، إلخ. فإذا أردت البحث عن دار من دور التجارة فلا تكفي العظمة ولا الشهرة بل لابد أن يكون بيدك العنوان مبينا فيه محلها في أي قسم من أقسام المدينة، وهي عشرة أقسام : الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي. وهكذا كل قسم مدينة عظيمة من أكبر مدن العالم. وقد وقع لي أني بحثت عن أحد التجار المشهورين عندنا في المغرب بتجارة الأتاي والكتان والشمع، وحيث لم أعرف في أي قسم هو ولا عدد منزله أحضروا كناش التجار ولكن لما لم أعرف النوع الغالب عليه من أنواع المتاجر ما عرفوه لكثرة الأسماء المتقاربة معه، ولم يتيسر لقيه ولا معرفة جهته.

مفاضلة بين لندرة وباريز

أما من حيث التأنق والجمال الذاتي والعرضي وسعة الشوارع والتحسين بجميع أنواعه، فهي أقل بكثير مما شاهدنا في باريز. بل لو كانت شوارع داخلية لندن التي هي محل هذه الحركة العظيمة المسماة **سيتي** على قدر شوارع باريز في الاتساع لعدوها ضيقة، لكثرة السكان هنا أكثر مما في باريز، فكان يلزم أن تكون شوارعها أوسع من باريز رعيا لهذه النسبة. لكن الواقع بخلاف ذلك. فشوارع باريز أوسع بكثير وأكثر آستقامة، فلذا يكثر الزحام في لندن حتى تقف بنا العربات في جل الطرق، ولاسيما عند ملتقاها، مع أنها في أنفسها شوارع متسعة ولكن لا تكفي لكثرة السكان.

شوارع لندن مزين مزخرف، ولكن زينة باريز وزخرفتها وتنسيقها لا أظنه يوجد في سواها. فبناء لندن جله من آجر مطبوخ، ويوجد بعض البناء الحجري الذي هو كبناء باريز في الضخامة والهندام وكمال النظام والإحكام، ولكن أبنية باريز ــ يعني كل ما رأيت منها وإن كنت لم أحط بجميع البلد ولكن كل ما رأيته بناء حجري أو بالسيمان (البرصلانة)[65] بناء مرصوص في غاية النظام والإحكام والأبهة والفخامة والضخامة. أما بناء لندن فالجل ليس كذلك وإنما هو بناء متوسط بالآجر، وليست فيه الضخامة والفخامة والتأنق الذي في باريز، وإنما هناك بعض الشوارع دورها على كيفية باريز ويوجد كثير من المواضع ليس كذلك. وبناء لندن الذي هو على طرز

---

(65) تحريف للكلمة الفرنسية Portland (= الإسمنت).

باريز هو مشابه لها من كل الوجوه إلا في الارتفاع، فإنه أقل آرتفاعا وآتساعا من باريز. فلندرة مع كون أبنيتها التي هي من الآجُرِ على طبقتين وثلاث طبقات، والذي على نسق باريز على سبع طبقات وفيها ما هو على تسع. ومع ذلك فطبقات لندرة يجعلون لها سمكا لا يبلغ في الارتفاع سمك طبقات باريز، وكذلك المخازن التجارية وأبوابها لا تبلغ في الاتساع ما تبلغه مخازن باريز ـ فلذلك كانت هي أفخم وأضخم.

زد على هذا أن أبنية باريز على نسق واحد تقريبا في الإِرتفاع والإِتساع والفخامة، إلا نادرا، فهي كلها قصور كأنها دور ملوك اجتمعت هناك بل كأن باريز دار ملك عظيم اختار لها ما تعلقت شهوته الناشئة عن ذوق مصيب، أما أبنية لندرة فهي مخلوطة : هذا عال وهذا نازل، هذا من حجر وهذا من آجر، وهذا أحمر وهذا أسود. وجل أبنيتها سوداء بالدخان أكثر من باريز حتى إنهم صاروا يدهنون ظاهر أبنية لندرة بدهن أسود كلون الفحم حتى تظن أن الدار بنيت من الفحم البراق اللون.

وبالجملة، فضخامة الدور التي هي قصور، وتشييد المنازل، وتنميق المخازن، وضخامة البناء، وسعة الشوارع والفناء، وتنسيق الأشجار، وكثرة الأزهار ظهرت بأكمل مظاهرها في باريز أكثر من لندن بكثير. فقصر بَالكِينهايم وقصر صان جيمس اللذان هما دار الملك المشهوران في الدنيا كل منهما قصر فخيم عظيم البناء وسيع الفناء ولكن أمثالهما في باريز كثير كقصر اللوفر، وقصر نابليون، وقصر التروكاديرو وغيرهما، بل هما لا يعدان شيئا بالنسبة إليهما. وآنظر ما كتبه أحمد فارس في عدد 334 وعدد 335 من «**كشف المخبَّا عن أحوال أوروبا**»[66] فإنه حط من قدر هذين القصرين جدا، وهما دار ملك النجليز. وآنظر ما كتبه المذكور عن باريز في الورقة نمرة 238 ونمرة 239 تعلم صحة ما قلناه. وما كتبت إلا ما رأيت، وبالغت في تنظيف قلمي من المبالغة.

ميادين لندرة

ميادين لندرة كثيرة، وهي في باريز أوسع بها. فما رأيت في لندن مثل ميدان كونكورد في الإِتساع والزخرفة والتأنيق ولو ميدان الترافلجار وميدان قصر بَالكينهايم.

منتزهاتها

منتزهات لندن كثيرة، ولاسيما بقرب القصر المذكور وعلى ضفة نهر التيمس،

---

(66) يقصد أحمد فارس الشدياق (1804ـ1888) وكتابه «**كشف المخبَّا عن أحوال أوروبا**».

ولكن منتزهات باريز ألطف وفيها الأزهار، لما للفرنساويين من الإعتناء بالزهر وما لهم من لطافة الذوق. أما منتزهات لندرة التي وقفت عليها ما رأيت فيها أزهارا، وإنما أراض خضراء بالربيع في غاية الخضرة، وكثير منها ترتع فيها الأغنام فكان الشبه بالبادية فيها أتم ولكن بساتين باريز ترتع فيها غزلان أنسية وتوجد فيه أكثر من لندرة بكثير.

نهر لندرة المسمى التمز

نهر التمز، أو التيمس، هو كنهر لاسين في باريس كل منهما يشق المدينة شقين : ذاك في لندن وهذا في باريز. ذاك عليه قناطير وهذا كذلك، منها ما هو بناء حجري ومنها ما هو حديدي. منها ما هو للمشاة والحوافل، ومنها ما هو للعربات الحديدية خاص بها. والواديان كبيران إلا أن نهر لندن أكبر من نهر باريس وكونهما تسير فيهما السفن الصغار، ولم أر هناك كقنطرة إسكندر الثالث المبنية على قوس واحد فهي من عجائب باريز ـ أظن لأن وادي لندن أعظم فلا يمكن فيه ذلك، والله أعلم.

لباس النجليز

لباس أهل لندن هو كلباس باريز : الرجال كالرجال، والنساء كالنساء. لكن باريز أجمل وأهلها أزيد حذقا ومهارة في ذلك وإتقانا له، ولاسيما النسوان، فقد بلغن في باريز حد النهاية حتى إنه يضرب بهن المثل في أوروبا وغيرها. فإنك إذا كنت في باريز تظن أهلها في عيد دائم، فلا ترى إلا متجملا أو متجملة كما تقدم، بل ما يمر في باريز من العربات وعربات النقل لا ترى فيها إلا الشيء الجميل وهي في نفسها كذلك، بخلاف لندن فإن أهلها أقل في ذلك كله بل لا ترى هنا شيئا جميلا أو متجملا حتى ترى أضداد ذلك من بشيع أو شنيع في الحامل أو المحمول أو فيهما.

نظام النجليز في السير بالشوارع

نظام لندرة في سير العربات والمشاة هو مخالف لنظام أهل باريز، فأهل لندرة يقصدون في سيرهم ذات اليسار، كنظامنا في فاس، فالذاهب فيها يقصد جهة يساره والآتي كذلك فلا يقع اصطدام. ولكن ذلك مطرد دائما وأبدا، لا كما عندنا بفاس إنه غالب فقط فيشذ بعض المارة عن الجادة التي هي جهة اليسار فيقع في الإصطدام، والحمد لله على عدم وجود عربات سيارة في فاس وإلا لهلكوا كثيرا، لعدم

نظام الناس في السير على جهة واحدة بل يخالفون القاعدة فيقعون في الِاصطدام. أما أهل باريز فإنهم يقصدون اليمين، فينبغي للغريب الذاهب إلى هنا أو تلك أن يستحضر هذه القاعدة وليكن على بال ليلاً يقع له اصطدام أو ملام : فإذا كان في باريز فليقصد جهة اليمين دائمة، فلا يصطدم بأحد ولا يعنفه أحد ويكون آمنا على نفسه من الخطر. وإذا وصل إلى لندرة فليقصد ذات اليسار، على عكس باريز. وآستحضر ذلك في الِانتقال من محجة لأخرى أو عند مقاطعة الطرق، فمن لم يستحضره وغفل وقع في الحوافر وذهب ضحية الغفلة.

ولكثرة الزحام والحركة في لندن ترى في كل مقاطعة من مقاطعات الطرق البليس البلدي واقفا ينبه الناس لذلك ويأمرهم بالوقوف حتى يذهبوا : الأول فالأول. ولتمام نظام البليس وكمال طاعة الناس له واحترامهم لأوامره فإنه يقف في ملتقى الطرق ولا يتكلم وإنما يرفع يده فيقف الصادر والوارد دفعة واحدة لا يتقدم أحد بقدم حتى كأن بيده كهرباء توقف الجميع. وهذا في لندن أكثر منه في باريز. ففي لندن مهما افترقت الطرق إلا ويقف الإنسان برهة من الزمن لا محالة كي يجد نوبة وينتهز فرصة والبليس الذي يراقب ذلك كثير، بخلاف باريز، فلا يحتاج الإنسان للوقوف إلا في قليل من الشوارع وهي ذات الحركة الكبرى ولا يجد البليس إلا قليلا بالنسبة إلى لندن. ولولا البليس في لندن، لهلك كثير من الناس لما للحوذيين من الشراسة والعجلة.

طرق لندن التي تحت الأرض

يوجد في لندن طرق تحت الأرض تسمى ميطرو، مثل باريز، ولكن في لندرة مدارجها ضيقة لضيق الطرق فيقع الِازدحام عند النزول أو الصعود أكثر من باريز. وهذه الطرق في لندن أنفاق تحت الأرض، بل تحت الوادي. فكم من محل فيه طريق تحت الأرض يمر فيها آلاف، وفوقها الوادي تسير فيه آلاف على الزوارق وفوقه قناطر تحمل آلافا. فهي ثلاث طرق بعضها فوق بعض، كل ذلك لكثرة السكان وكثرة الحركة التجارية. ولولا سهولة المواصلة ما عمرت البلاد ولا اجتمع هؤلاء السكان في مدينة واحدة.

الماء المضاف في لندن

الماء المضاف في لندن يجعلونه مدفوناً في وسط طرق العجلات، لضيق

الشوارع عن جعله في محل مرور المشاة التي هي جوانب الطرق، ولذلك كثيرا ما تجدهم يصلحونه فيتعذر الطريق فتضطر للرجوع إلى طريق أخرى جميع الحوافل والعجلات النقالة فيقع الزحام. وهذا لا تكاد تراه في باريز، لأن جوانب الطرق المسماة ططوار(67) أوسع من لندن وفيها جعلوا الماء المضاف. ولذلك إذا حفروه للإصلاح أمكن المارة أن يمروا ولا يتضرر المشاة إذا آزدحموا بخلاف الحوافل وعجلات النقل.

ولا تساع شوارع باريز يوجد في بعضها المسمى بلفوار السكة الحديدية الكهربائية المسماة تراموای التي تحمل المارة دون الأثقال، وهي ما رأيتها في الطرق التي مررت بها في لندن لعدم اتساعها كباريز.

نعم، جعلوا الأتومبيلات السيارة المسماة أومنيبوس التي تحمل المارة ذات طبقتين، بخلاف هذا النوع في باريز فهو ذو طبقة فقط إلا أن هذا النوع في باريز أوسع منه في لندن ويوجد نوع منها في لندن يسير بالبخار وما رأيت مثله في باريز لأنه ليس جميل المنظر وله صوت مهوس.

نعم، في لندن ـ بل في بلاد النجليز ـ السكك الحديدية أضخم وأوثق وأتقن، ولهم عناية بها ليست لغيرهم، والعدد الذي يسافر كل يوم بلندرة كثير أكثر من باريز، والمحطات كثيرة محدقة بلندن من كل الجهات تذهب لسائر بلدان النجليز بكل سرعة وضبط، وعدد المحطات أربعة عشر محطة كبرى، أكبرها محطة واترلوا. ولقد رأيت قنطرة عند مدخل القطار إلى محطة لندن من فولكسطون على وادي التمز متسعة، ما رأيت مثلها في الإتساع، حسبت عليها ستة أو سبعة خطوط حديدية. وفي تلك المحطة ترى من الخطوط الحديدية فوق الأرض وتحتها، فترى قطارا فوق قطارات مما يدهش البال ويحير العقل ويفهم العالم معنى قوله تعالى : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ و﴿إن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾(68). فإذا كان مخلوق حادث يعمل هذا ويعلمه، فكيف قدرة الخالق وعلمه والكل منه وإليه سبحانه منسوب حقيقة، لا رب غيره.

وأعجب من هذا أن كثرة القطارات وآختلاف جهات مرورها تراها في غاية

---

(67) تحريف في اللسان المغربي الدارج، للكلمة الفرنسية التي تفيد الرصيف : le trottoir.

(68) في سورة البقرة ترد كثيرا (الآيات 20، 106، 109.... وغيرها).

السرعة، والنظام التام والتؤدة والرزانة في السكان، كل يذهب إلى محل ركوبه. ومهما وصلت المحطة وجدت كثيرا من الناس واقفين لإرشاد الركاب إلى جهات الركوب ومحل قطع الأوراق. وأعجب وأغرب من الكل أنك لا تسمع بوقا ولا صفيرا ولا كثرة هرج، كما يوجد في محطات فرنسا، ولو كانت القطارات تصفر هنا ما أمكن السكنى بقرب المحطة ولا ينام أحد هناك. ولقد كنت نازلا في فندق أكَار فكتوريا، ملاصقا المحطة والقطارات الكثيرة صادرة واردة كل ساعة أو دقيقة ولا تسمع صفيرا أو زئيرا ولا شهيقا وإنما هو دوي عجلاته الخفيف، وما حصلت مني قط التفاتة إلى المحطة من نافذة بيتي إلا رأيت قطارا داخلا وآخر خارجا، وربما رأيت قطارات متعددة وكل ذلك لكثرة الحركة الصناعية والتجارية في أرض النجليز التي تدهش فكر متأملها. وبلاد النجليز كثيرة الصنائع والمعامل أكثر من غيرها، إلا ما كان من ألمانيا.

النجليز أعرف بالتجارة

النجليزيون مشهورون في العالم بمعرفة طرق التجارة وأساليب الإيراد والإصدار، وأعانهم على ذلك ما عليه تربيتهم من صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل لبياع العدد الكثير. ويقولون : القليل في الكثير كثير، وهذه قاعدة مطردة ضرورية. فصدقهم في المعاملات الصدق التام الفائق في ذلك غيرهم هو الذي مهد لهم الاِستيلاء على معظم تجارة العالم، فالنجليزي إذا سمى لك الثمن فخذ أو آترك ولا تفاتحه في المهاودة. هذا خلق الكثير منهم أو الكل فيما سمعنا ممن طال مكثه بين ظهورهم الآماد الطويلة، مع صدق لهجتهم وعدم خداعهم في التجارة لا في السياسة، فحصلت للعالم بهم ثقة تامة أعانتهم على آتساع متاجرهم مع أقطار العالم.

شغف النجليز بالرياضة البدنية

من أخلاق النجليز محبة الرياضة البدنية والاِعتناء بها أكثر من غيرهم. وقد رأيتهم في منتزهاتهم يعانونها صباحا ومساء، هم وأولادهم ونساؤهم، حتى إن جل منتزهاتهم لا يعتنون فيها بالأزهار وإنما هي الأشجار ونبات ربيعي يلعبون فوقه رياضة لأبدانهم. وآعتناء الفرنساويين بالرياضة أقل من النجليز فيما رأيت.

نعم، الفرنساويون آعتنوا بالأزهار فاستغنوا بالرياضة الفكرية عن البدنية، وهي لا تغني. ولقد نزلت عند أوبتي من منشستير في فندق أكَار فيكتوريا، وهو على نسق كَران أوطيل في باريز وإن كان لا يلْحقه بل بينهما ما بين الثرى والثريا، ولكن يشبهه

في كثير من الأوصاف التي وصفنا هناك. وكان نزلي في غرفة تطل على نهر التيمس وعلى الأكَار معا، وكانت تعجبني نافذة في الطبقة العليا وهي السابعة تطل على نهر التيمس حيث رسم هناك شبه نصف دائرة عليه فيها خمسة قناطر كلها تظهر من تلك النافذة وهي متوازية متقاربة، لا فراغ بين القنطرة والقنطرة إلا نحو 200 ميطر فيما أظن فيبدو لي من هذه النافذة منظر لطيف من أجمل مناظر لندن على الوادي المذكور، وهو أشبه شيء بوادي لاسين في باريز من جهة قصر النواب حيث تظهر هناك قباب فخيمة وأبنية عظيمة وقناطر متقاربة.

نعم، الفرق هو أن أبنية باريز هناك متباعدة، لسعة الطرق والميادين، فالمحل هناك صحي جيد، أما في لندرة فأقل آتساعا. وفي باريز ليس في ذلك المحل الأبنية الفخيمة والقصور الشامخة، إذ جل ما بقرب ذلك المحل مباني الدولة ومصانع الملوك الأول. وقد بلغت الأبنية هناك أقصى درجات اللطف والضخامة والزخرفة، أما هنا فالبناء مختلط بين دولي وأهلي.

نعم، القناطر هنا متقاربة أكثر من باريز، كما سبق، فمنها ما هو للسكك الحديدية ومنها ما هو للترامواي والمشاة والعجلات والحوافل فهناك حركة عظيمة أكثر مما في باريز وعمارة أيضا أكثر وفي البوادي زوارق كثيرة ليست في لاسين. ومن جملة تلك القناطر قنطرة عظيمة بالبناء تظهر أنها قديمة على نسق قنطرة وادي سبو بضواحي فاس على ثمانية أقواس، كلها مملوءة ماء والزوارق تمر تحتها لإرتفاعها.

رصيف فيكتوريا والمسلة المصرية

وقد جعلوا على ضفة الوادي رصيفا متسعا جعلوه كميدان كبير ورصفوه طريقا عرضها 64 ميطر تسير فيها العربات الترامواي وبجانبيها طريقان للمشاة متسعان جدا، واحدة منهما على شط النهر، مهما ذهبت وجدت درجا تهبط للنهر لركوب الزوارق والإصطياد. وسموا هذا الرصيف المتسع الطويل باسم ملكتهم الشهيرة فيكتوريا. ورأيت فيه من جهة حافة الوادي مسلة مصرية عليها كتابات قدماء المصريين وأمامها تمثالان من نحاس، أظنهما مصريين إذ عليهما حروف مصرية تشبه كتابة المسلة. وهذه المسلة تشبه مسلة باريز التي تقدم وصفها في ساحة كونكورد. وعمر مسلة لندرة منذ 1500 قبل المسيح، فهو 3419 سنة، وقد أهداها محمد علي باشا للنجليز فنقلوها سنة 1877 وغرقت في الطريق وأخرجوها في السنة بعدها وفيها

وضعت في محلها المذكور. وهي قطعة من حجر مربع عريض من قاعدته، ولا زال يستدق إلى رأسه، كتب عليه من جوانبه الأربع كتابات بالخط المصري القديم تشير إلى تاريخ وسبب صنعه وهي قائمة هناك كصومعة عالية تظهر من بعد.

وبجانب هذا الشارع المقابل للوادي عدة بساتين بلدية جميلة، وابتداؤه من أكَار فيكتوريا الذي كنت نازلا به. وقبالة الأكَار من الجهة الغربية ساحة جميلة بقرب كنيسة عظيمة هناك فيها عدة تماثيل : منها تمثال جورج الرابع ملك النجليز، وتمثال هنري المتوفى سنة 1857، وتماثيل سباع هائلة من المعدن محيطة بمسلة طويلة مخروطة الشكل على غير مثال المسلة المصرية عليها تمثال عظيم.

وهناك فسقيتان من حجر تفوران بالماء، على مثال فوارات ساحة كونكورد في باريز، ولكن شتان بين الثرى والثريا.

تعصب النجليز

وقد وجدت هناك كثيرا من الرجال والنساء والصبيان. فبينما نحن ننظر في التمثال الذي فوق المسلة، لنعرف لمن هو، وإذا بهم اجتمعوا يتعجبون من لباسنا كأن الإنسان ما خرج من بطن أمه إلا باللباس الأوروبي فإذا خالفه غير صنع الله وبدل خلق الله. فما أشد تعصبهم، وما أحسن تسامح المسلمين الذي لا يعيبون على الغريب شيئا ! فمنعنا ذلك من تحقيق التمثال وذهبنا لحالنا.

غريبة، وهي آلة كتابة بالكهرباء

رأيت في الفندق الذي كنت نازلا فيه غريبة، وهي سارية خشبية ركبت عليها آلة كتابة تحركها قوة كهربائية متصلة بمركز الأخبار التلغرافية في شركة روتر تنطبع فيها جميع أخبار العالم، في أوروبا وأمريكا وغيرهما. وصاحب الفندق يؤدي لشركة روتر مقدارا معلوما على الإعلام المذكور. وبعد فراغ آلة الكتابة من الكتب يأتي المكلف بها وينزع منها الورقة ويعلقها هناك في وسط مركز الفندق ويجعل بدلها ورقة أخرى بيضاء لتكتبها ثانيا وهكذا، وذلك ليطلع المسافرون هناك على جميع أخبار العالم التي تحدث في كل لحظة من غير أن يحتاجوا إلى الخروج وسماع الأخبار من الناس ولا إلى شراء الجريدة أو انتظار طبعها،مع ما في ذلك من العطلة وضياع الوقت. ومن ذلك علمت أن النجليز يعرفون مقدار الوقت الذي قالوا فيه إنه ذهب، وأرسلوها مثلا وعملوا بالمحافظة على ذهبهم.

ووقعت لي غريبة مع رجل إنجليزي.وذلك أنني وقفت أمام هذه الآلة الكاتبة أتأمل في كيفيتها، وإن أمرها لعجيب ما رأيت مثله في باريز ولا غيرها، وبإزائي رجل افرنساوي نتذاكر معه في كيفية ذلك. فوقف رجل من أعيان النجليز وسألني عن بلدي، فقلت له : المغرب الأقصى. فقال : إني أعرف طنجة ووصلتها، وما قدرت أن أصل لفاس بسبب قطاع الطرق إذ ذاك. فعلمت أنه كان هناك على عهد الحوادث الحمارية[69] والريسولية[70]. فقلت له : أما الآن فقد سكنت الأحوال ومد الأمن رواقه ولم يبق شيء. وإذا بالآلة كتبت أن البليس قد اعتصب[71] في ليفربول وأن عدد المعتصبين بلغوا 929 وأن بعض المخازن التجارية وقع فيها السلب والنهب حتى تدخّلت القوة العسكرية. فالتفت إليه وقلت له : هل قرأت ما في هذه الورقة؟ فقال : نعم. فقلت له : الحمد لله، قد تساوينا بل بلدنا أهنأ : فالنهاب عندنا في البوادي، أما أنتم ففي داخل المدن. فأخرسته.

ثم إن هذه الآلة ــ والله ــ لمن أعجب العجائب لو لم أر في انجلترة إلا هي لكانت كافية. كيف والرجل مطلع على أخبار العالم وهو في نزله، من غير أن يطرقه طارق ولا أن يستبطئ رسولا، فيعلم حال البورصة والتجارة وغلاء السلع ورخصها وحروب الأمم وسلمها كل في حينه من غير فوات إبان ولا ضياع وقت. فهذا مثال الكشف الذي أنكره بعض المعتزلة، وربما يتوصلون بالكهرباء إلى ما هو أعجب وأغرب. فما أجل صنعَ الله، وما أعظم قدرته سبحانه لا رب غيره!

وإن عجائب أوروبا كثيرة، وهي في الحقيقة ليست عجائب أوروبا بل عجائب العالم وغرائب اختراعات عقل البشر النبيه المتيقظ. ولولا أني التزمت أن لا أخبر إلا بما رأيت لقصصت عليكم من عجائب أوروبا أو العالم، وخصوصا في لندن وباريز اللذان هما ينبوع الحكمة الأوروبية. غير أني لعدم طول مقامي وعدم معرفتي بشيء من اللسان النجليزي والفرنساوي[72]، فيلقبل المنصفون معذرتي

---

(69) نسبة إلى أبي حمارة.

(70) نسبة إلى الريسولي.

(71) **اعتصب** : هو الفعل الذي ابتكره الحجوي للتعبير عن شيء خارج عن تصوره وهو : الإضراب. سنرى، لاحقا، حديثه في الإعتصاب والمعتصبين (= المضربين).

(72) لا تخلو العبارة من قلق. فقوله : «غير أني» يظل في حاجة إلى كلمة موضحة كأن يضيف، مثلا : «غير أني لم أفعل» أو «غير أني لم أشأ ذلك» أو ما في هذا المعنى.

وليعلموا أني ما وصفت باريز ولا لندرة وإنما وصفت قسما من كل منهما وصِفَتَه أو محلا نزلت فيه أو زرته، رسميا أو غير رسمي، لسماعي به أو طريقا مررت بها كما يمر الحال المرتحل والعاقل يقيس الشبيه بالنظير، والله عليم خبير.

مسجدان للمسلمين في لندن، أحدهما للجمعة

أخذت عشية الأحد حافلة أتومبيلية، وطلبت من السائق أن يذهب بي لزيارة مسجد المسلمين الهنود الذي أسمع به في لندرة. فلم يعرفه هو ولا عدة من السائقين للأتومبيلات التي كانت حاضرة في لاغار[73] ولا البليس. ثم ذهب بي إلى دائرة البليس وسأل هناك ليدلوه عليه، فلم يعرفوه ولكن أرشدوه إلى مأكل الهنود المسلمين ليدلوه عليه. فذهبنا ولم نجد من يعرف المسجد، وبقينا نطوف في كثير من الحارات ونحن نسأل عنه ولا دليل. فلما قرب الغروب رجعنا لمحلنا، ولا طائل سوى أنا كنا جازمين بوجود مسجد في لندن، فرجعت شاكا فيه. غير أن الوفد السوداني المصري[74] حقق لنا بعضُ رجاله وجوده، بل وجود مسجدين أحدهما كبير للجمعة في ضواحي لندن بمحال يقال له وكين أخبرني أنه صلى فيه الجمعة وخطيبه رجل إنجليزي خطب باللغة النجليزية وبعض الآيات عربية.

قال الراوي : إنه لما قرأها بكى، فأبكى الحاضرين بخشوعه. وإنه يوجد في لندن كثير من النجليزين أسلموا بإسلام أحد عظمائهم اللورد هادلي[75]، ما له من الإعتبار في قومه وعائلته. وإن في المسجد صومعة وموضع الماء للوضوء، مثل المساجد الشرقية الإسلامية.

ووقفوا على مسجد أصغر منه داخل مدينة لندن.

السفر إلى منشيستر

كان انفصالي عن لندن في الساعة 2 والنصف بعد الزوال، قاصدا إلى منشيستر. فمررنا في أرض كلها خضراء، مع أننا في يوم 31 يوليوز، وذلك لكثرة رطوبة هذه البلاد بالأمطار المتكاثرة والبرودة الشديدة. فكنا في هذا الفصل والمطر

---

(73) **لاغار** : نطق مغربي دارج للكلمة الفرنسية la gare (= المحطة، محطة القطار).

(74) سيأتي حديثه، لاحقا، عن الوفد السوداني (أو السودان المصري كما يقول).

(75) لم أقف على ترجمة له.

يتعاهدنا، ونحن متدثرون بالثياب، وهذه الأرض كثيرة العمارة مثل افرانسا، بل أزيد وحركتها في التجارة أكثر. فكل محطة وصلناها رأينا فيها من أنواع الموسوقات والموضوعات شيئا كثيرا.

وعلى سفرنا، وتعلم تعب السفر، فقد استرحت وحمدت الله على مفارقة نزل لندرة. إذ بت فيه في ليلة نابغية يساورني فراشها وغطاؤها بضيئلة من الرُقش، يراها الله شر ليلة عانيتها في سفري هذا. فراشها كأنه من شوك على حجر صلد ضيق، متوسدا وسادة كأنها قطعة من جبل ولكن في حرور. وبالجملة، بت ليالي في بوادي المغرب والجزائر كهذه : جمع فيها جيش البرغوث، إلى عسكر البعوض، إلى ضيق المجال وقلة المرافق، وعدم اللسان الموافق. هذه هي الليلة التي أديت كراء محلها قبلها، وقدره خمسة أريلة مغربية داخل فيها قهوة الصباح المرة بدون سكر في نزل سماه صاحبه الأوتيل. والحرية اقتضت أن يسمي من شاء ما شاء بما شاء من الأسماء التي هي شريفة على خسيس. ولهذا كان العذاب قطعة من السفر ! ولقد استهونت ألم السكة الحديدية ولا ألم الفراش.

عادة النجليز عدم الزيوف عند الأكل

وليس لهم في ذلك المنزل حتى زيوف الأكل(76)، وهذا في غالب محلات الأكل عند النجليز مع أن بلدهم هي بلد الكتان. وفي بعض محلات لها اعتبار يجعلون زيوفا من الكاغيط بخلاف أرض افرانسا، فلابد من زيوف الأكل في كل محل محل.

لا تقل لي إن المغاربة ليس لهم زيوف. إنا نجيبك بأن فقيرهم وحقيرهم له زيف واحد بعد الأكل، ولابد عند المغاربة في غسل الأيدي بالصابون وتجفيفها في الزيف، وفي ذلك نهاية النظافة وذلك مفقود عند غيرهم. لذلك جعلوا لكل آكل زيوفا، أما النجليز فلا. نعم، في الأوطيلات العالية يعملون بعادة الإفرانسيس.

ومما لاحظته في الطريق، بين لندن ومنشيستر، أنهم جعلوا السكة الحديد خطين : خط ذاهب، وخط آيب. فأمنوا من الاصطدام وذلك لكثرة الحركة. ومع هذا تجدهم فتحوا ترعا كثيرا في الأودية تجرها ثيران تمشي بشط النهر، فترى الثور

---

(76) **زيوف الأكل** : كلمة في اللسان المغربي الدارج تعني مناديل الطعام أو مناديل المائدة.

ذاهبا مع شط الترعة يجر زورقا حاملا المحصولات الصناعية والأرضية وذلك موجود في فرانسا والألزاس واللورين، ولكن هنا أكثر والحركة أزيد.

كثرة الغنم في إنجلاتيرة

ومما لاحظته أيضا في طريقي هذه كثرة الغنم هنا في إنجلاتيرة وسمنها للغاية، لكثرة النبات، وذلك أكثر مما في فرانسا بكثير. نعم، البقر في افرانسا أعظم جثة وأكمل بنية من بقر النجليز وكذلك الخيل أيضا لكن للجر، أما خيل الركوب والسباق فعند انجلترا أحسن. وخيول النجليز مشهورة في العالم، كالخيل العربية، ولاسيما إذا تناسل فرس بين عربي وإنجليزي فذلك النهاية. حتى إن الفرنساويين يزنون ما في الفرس من الدم النجليزي والعربي، وبنسبة زيادتهما فيه يتشرف ثمنه. ولهم ناس عارفون بذلك وبزنته وزيادته ونقصه، وربما بلغ الفرس الآلاف المؤلفة من الإبرة الذهبية.

الأشجار بين لندن ومنشيستر كثيرة، ولكن يظهر في افرانسا أعظم وأطول. والإعتناء بالخضرة[77] في افرانسا أكثر أيضا، لصلاحية الجو والأرض لذلك أكثر من إنجلاتيرة وإن كانت الزراعة هنا راقية من أرقى ما يوجد.

وفي قرب منشيستر رأينا الخضر مزروعة كثيرا، وكل من له قطعة من الأرض يجعل لها سياجا خشبيا أو نباتيا أو سلكيا، ولاسيما عند الخط الحديدي لكثرة الحركة وخوف الخطر لسرعته. وذلك كله بخلاف افرانسا.

مررنا في طريقنا على عمائر وقرى كثيرة. منها مدينة راغبي[78]، بها مدرسة شهيرة يقرأ فيها الطبقة العليا من أولاد النجليز. ومنها مدينة سطاكبوط، فيها مصانع وماكينات عديدة، وهي قريبة إلى منشيستر بينهما الترامواي. ولقد رأينا منظرها أسود يعلو الدخان فوقها ثم يكسو حيطانها بأردية سوداء، وكذلك لما وصلنا إلى منشيستر.

منشيستر

وكان وصولنا في الساعة 7 عشية. ولما وصلنا لم نجد أحدا يعرف اللسان يدلنا

---

(77) يقصد الخضر. وتغلب هذه الكلمة (الخضرة ـ بضم الخاء) في لغة الفقهاء أيضا.

(78) Rugby.

على نزل ننزله. واجتمع علينا الصبيان يتعجبون من لباسنا ولساننا، فجاء البليس وفرقهم حينا ولم يفهم مقصدنا ولا وجودنا من يعرف الفرنساوي ولا كلمة. ولم يكن معنا عنوان ولا واحد من الفنادق التي لاشك أنها متعددة هناك. وسبب هذا عدم أخذنا بالِاحتياط، إذ كان الواجب أن نصحب معنا ترجمانا أو عنوان فندق على الأقل. لكنا اتكلنا على جعلنا تلغرافين لرجلين من تجار المغاربة الذين هم موجودون بكثرة في منشيستر فقلنا : إن أخطأ واحد أصاب الثاني. فأحدهما زعم أن التلغراف لم يصله، والآخر قال ظن أني عملته من باريز وأني لا أصل إلا غدا. والله يغفر لهما.

وقد انفضت المشكلة أني تذكرت بجيبي عنوان رجل أعرفه هناك فأعطيته لصاحب السيارة وذهب بي إلى داره فوجدت بها أحد الرجلين اللذين وجهت لهما التلغراف. وقد اعتذر، فما نفع إلا قبول العذر لكونه من أحباب سيدي الوالد رحمه الله فاستحضرت قوله عليه السلام في «**صحيح مسلم**» : «من البر أن يكرم الرجل أهل ود أبيه»[79]. ولا إكرام كقبول العذر.

ولما سمع بي هناك أصحابنا المغاربة اجتمعوا علي هناك، وسمرنا سمرا مفيدا. وقد سألوني في مسائل مهمة عن أمر دينهم، إذ جلهم ـ والحمد لله ـ متدين، فأجبتهم بما حضرني في تلك السويعة.

---

(79) صحيح الإمام مسلم.

مسائل فقهية

مسح الذراعين في التيمم

فمنها : هل مسح الذراعين واجب في التيمم أم لا ؟

والجواب أن الواجب مسح اليدين والكوعين. أما مسح الذراعين من الكوعين إلى المرفقين فليس بواجب وإنما هو سنة على المشهور، لما ثبت أنه ــ عليه السلام ــ تركهما في بعض الأحيان. فقال أحدهم : إنه كان مريضا برجليه لا يقدر على جعل الماء بهما، فأفتاه بعض الناس بالتيمم وقال له : يجب مسح الذراعين. فقلت له : أما فتواه بالتيمم فلم تصادف صوابا، والصلاة به باطلة. يجب عليك إعادة ما صليت به إذا كنت قادرا على جعل الماء فيما عدى الرجلين، إذ يمكنك أن تمسح على النعلين إذا كانتا طاهرتين ولبستهما على طهارة وتصلي بهما ولا تنزعهما فإن الطرق هنا نظيفة غالبا إذ لا تمر فيها الدواب. والعضو الواحد أو المتعدد إذا تعذر غسله لا ينتقل به التيمم، بل يمسح عليه ويغسل غيره. وإذا كانت النعال نجسة نزعتها ومسحت على رجليك وصليت. أليس يمسح على الجبيرة والجوارب، إذا كانت الرجل مريضة كالجبيرة ؟ ومن الأحاديث المتواترة مسحه ــ عليه السلام ــ على الخفين.

وأما فتواه بعدم إجزاء مسح اليدين، ووجوب مسح الذراعين في التيمم، فهي فتوى غير صحيحة لما علمت أن المشهور خلافه، وهو في نظم ابن عاشر[80].

الملف الذي يصنع من صوف الميتة

ومنها سؤالهم عن الملف الذي يصنع من الصوف، وربما تكون صوف ميتة، هل تصح به الصلاة ؟

(80) عبد الواحد ابن عاشر (ت 1040هـ/1630م) : فقيه مالكي أندلسي. نشأ وتوفي بفاس. له : «**المرشد المعين على الضروري من علوم الدين**»، وهو منظومة على مذهب مالك.

الجواب : هل الغالب في الصوف التي يصنع منها الملف هو الصوف المجزوزة من الغنم الحية أو المندوفة ؟ فقالوا : الغالب المجزوزة الطاهرة، وهذا ضروري وغيره نادر بالنسبة إليه. فقلت لهم : الحكم للغالب، ولهذا قال خليل: بخلاف نسجه. فقال بعضهم : وهناك صوف ما لم يزك من الغنم بل ذبحه أهل الكتاب. فقلت لهم : أما أولا فالغالب هو المجزوزة الطاهرة كما اعترفتم، وسبق أن الحكم للغالب. على أن صوف أهل الكتاب تابعة بذبيحتهم :﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾، على ما أفتى به الإمام ابن العربي المعافري فالبسوه ولا حرج.

وقد كانت المذاكرة جرت بيني وبين أعضاء الوفد في أكل ذبيحة النصارى، ورأيت أن الضرورة تبيح لنا أكلها، زيادة عن فتوى ابن العربي[81] بالجواز في الاختيار ولو رأيته يفتل عنق الدجاجة. فكان بعض أعضاء الوفد لا يعمل بهذه الفتوى، ولكن كان يأكل المرق والخضر المطبوخة مع اللحم. فقلت له يوما : ما أعرفك بالفقه، تحرم اللحم وتأكل مرقه ! فصار بعد ذلك لا يأكل المرق بل يذهب لمحلات اليهود يأكل عندهم. فقلت له : أي فرق بين ذبيحة يهودي أو نصراني مع أن حكم القرءان علق على الكتابية. وإنما الفرق بين طعام اليهود والنصارى أن الثاني نظيف موافق للصحة بخلاف الأول. ومع هذا كله بقي يأكل طعام اليهود ويتورع عن طعام النصارى، والكل سواء في الحكم وإنما «لكل امرىء من دهره ما تعودا». وقد زعم هذا البعض أن ابن العربي تفرد بهذا القول، وهو قصور. فقد مشى عليه الونشريسي في «**المعيار**»، ورجحه الإمام الحفار قائلا : بل أهل المذهب كلهم يقولون إن أكل طعام أهل الكتاب حلال لنا إلا ما خص من ذلك، فقف عليه. وقد وهّن الرهوني[82] كلام ابن العربي هذا بوجوه كلها مردودة بسطنا القول فيها في غير هذا الموضع. وكما رجح الحفار كلام ابن العربي قبله الزيات وسلمه وكفله أحمد بابا السوداني[83] وغيره، والله أعلم.

ومنها سؤالهم عن ثوب من الشعر يجعل تحت بطانة السترة، بينها وبين الملف، فقلت لهم : هل تحققت لديكم نجاسته ؟ فقالوا : لا، بل جهلت حاله. فقلت

---

(81) القاضي الأندلسي الشهير أبو بكر ابن العربي، صاحب كتاب «**أحكام القرءان**».

(82) أبو عبد الله، محمد بن أحمد الرُّهوني (نسبة إلى قبيلة رهونة)، توفي سنة 1230 هجرية. وهو من فقهاء المالكية المتأخرين.

(83) أحمد بابا التنبكتي السوداني (963–1032 هـ) الشهير بكتابه «**نيل الابتهاج في تطريز الديباج**».

لهم : ٱلبسوا ولا حرج لقول الشيخ خليل : «بخلاف نسجه». وقد لبس صلى الله عليه وسلم ثياب الشعر، والصوف تأتي من أرض الكفار، ولم يبحث في كونها مجزوزة أو منتوفة ولا في الشعر هل من حلال الأكل أم من حرامه وذلك في الكتب الصحاح.

ومنها : سألوا عن رجل يبيع لهم السمن في منشيستر ويبيع أيضا في حانوته لحم الخنزير، ولكن لا يتناول السمن بيده بل بآلة مخصوصة لا يتناول بها غيره ثم يجعله في كاغد ويناولهم إياه ويتحفظ من أن يخلط به غيره. ولم يجدوا غيره يبيعهم إياه إلا على هذه الحالة.

الجواب : إذا غلب على ظنكم التحفظ من خلط السمن بشيء آخر محرم شرعا فلا حرج، فإن الطعام لا يطرح بالشك كما نص عليه الفقهاء فضلا عن الوهم.

الخميرة من حثالة شعير يصنع منه الخمر

ومنها : سألوا عن الخميرة التي يعجنون بها خبزهم أنها من حثالة الشعير الذي يعصره النجليز ويأخذ منه الخمر. فقلت لهم : هل تؤخذ الحثالة قبل جعل الماء خمرا وقبل آنسحاب حكم الخمرية عليه أم بعده ؟ فقالوا : بل قبل تخميره.

فقلت لهم : لا حرج، كلوه هنيئا مريئا لأن العبرة بالحالة التي تناولتم أنتم الخمير فيها وهو إذ ذاك لا زال حلالا. أما مآل العصير بعدما أخذتم أنتم حثالته فله حكم يخصه. فقالوا : إننا بعدما نأخذ الشعير يصير خميرة، وهو معنى التخمر. فقلت لهم : هو كدقيق الحنطة أيضا، فإنه يتخمر ويصير حامضا خميرة أيضا وهذا معنى هذه المادة وهي التخمير التي أخذ منها لفظ الخمر لغة وشرعا.

وقد نص الفقهاء أن ما ليس بمائع، كالخميرة، لا يحرم منها إلا القدر الذي يؤثر في العقل أما ما قل، كالخميرة التي تخلط مع العجين، فلا حرمة ولا حد فيها كما أنها طاهرة قليلها وكثيرها. ومن أكل منها القدر الذي أثر في عقله ليس عليه إلا الأدب، لا الحد.

ثم بينت لهم معنى الخمر وهو المائع الذي يغطي العقل مع نشاط وتفريح سواء كان من العنب أو غيره، خلافا لأبي حنيفة الذي يخصه بالعنب والتمر، وحكمه

الحرمة والنجاسة المغلظة كالبول، ووجوب الحد في قليله وكثيره. فالحرمة مأخوذة من عشرة مواضع في آية واحدة وهي : ﴿إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله ﴿منتهون﴾[84]. ويؤخذ أيضا من قوله تعالى : ﴿فيهما إثم كبير﴾[85] وقوله : ﴿إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[86]. وأما النجاسة فحيث عبر عنها بالرجس، وبذلك عبر عن لحم الخنزير في قوله : ﴿أو لحم خنزير﴾[87]، فإنه رجس وهو نجس بإجماع. وكفى في نجاستها عموم الأمر باجتنابها، وغاية ما يعبر عن النجس أن يجتنب. ونجاسة المسكر هو قول الجمهور، إلا ما ينقل عن ربيعة من طهارته.

وأما وجوب الحد فبالنسبة، وقد أقام الحد فيها عمر فجلد ثمانين، وجلد فيها عثمان أربعين مقتديا بفعل أبي بكر. ويحرم على المسلم تملكها، ويبطل تقويمها حتى لا يضمن ما تلف منها. فهذه أحكام الخمر الستة.

وقال أبو حنيفة بحلِّيَّة النبيذ، وهو عصير ما ليس بعنب، واعتبره كبقية الأطعمة والأشربة المباحة لكن لا يبيحه مطلقا بل يبيح منه القدر الذي لا يسكر بالفعل كالجرعة الواحدة. فإذا زاد الشارب حتى سكر بالفعل فهو حرام ويحد عنده وذلك لأنه يفهم قوله عليه السلام «كل مسكر حرام» على أن المعنى المسكر بالفعل. وأما إذا شرب منه ما لم يسكر بالفعل فلا حرمة ما لم يكن من الخمر الوارد في القرءان وهو عصير العنب والنخيل، زاعما أنه هو الذي يطلق عليه الخمر لغة. فإذا كان منه فقليله ككثيره، الكل حرام عنده أسكر قليله بالفعل أم لم يسكر. وقد استدل بقوله تعالى : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا﴾[88]، فإن هذه الآية فسرت الخمر المحرم في الآية التي نزلت بعدها في تحريمه، وهي قوله : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب ...﴾ (الآية)[89] وبحديث أنه عليه السلام مر بحائط من حيطان المدينة المنورة ورأى شجرة عنب ملفوفة على نخلة فقال عليه السلام : «الخمر من هاتين» وأشار بيده إلى النخلة والعنبة. قالوا : إن هذه الجملة تسمى حصرية عند الأصوليين، فيستفاد منها أن الخمر محصور في هاتين الشجرتين وبقوله عليه السلام :

(84) سورة المائدة (الآية 90).
(85) سورة البقرة (الآية 219).
(86) سورة الأعراف (الآية 33).
(87) سورة الأنعام (الآية 145).
(88) سورة النحل (الآية 67).
(89) سورة المائدة (الآية 90).

«حرمت الخمر لعينها والسكر من كل شراب». وهو آستدلال ضعيف : فإن الآية ما سيقت على سبيل التفسير حتى يستدل بها وإنما هي آمتنان بنعم الله تعالى. وآستفادة الحصر من الحديث، إن ثبت، ليس بنص ومثل هذا التركيب قد لا يقصد منه الحصر لأن الجزء الثاني غير معروف. على أن لنا ولأصحابنا أن يجيبوا بأن الآية ليست تفسيرا للخمرة بل للسكر. فلا دليل فيها لأحد الفريقين على أنها بيان لبعض الأنواع التي يتخذ منها المسكر. والمسكر كما يكون منهما يكون من غيرهما بإجماع. وفي الصحيح نزل تحريم الخمر وهي تصنع من خمسة أشياء : العنب، والتَّمر، والحنطة، والشعير، والعسل. قاله عمر على منبر النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة متوافرون حاضرون فلم يذكروه فهو كإجماع سكوتي. وروى أبو داوود وابن حبان وغيرهما عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الخمر من العصير، والزبيب، والتمر، والحنطة، والشعير، والذرة، وإني أنهاكم عن كل مسكر. وكفى بهذا دليلا على الحنفية، ولذلك يعتبر جمهور الأمة قولهم شاذا في هذه المسألة ومدركه ضعيفا.

مسألة : المقطر من هذه الأنواع حكمه حكم المقطر منه، مادام مسكرا. وأفتى بعض العلماء بأنه تبدلت صورته بالنار وآستحالت ماهيته.

هل يجوز جمع الصلوات للضرورة ؟

ومنها سؤالهم : هل يجوز جمع الصلوات إلى الليل، لأن الضرورة تلجئهم إلى ذلك لكونهم يلبسون اللباس الإفرنجي الضيق وينتعلون النعال الإفرنجية أيضا ؟

الجواب : إن جمع الصلوات لا يجوز بحال، وهو كبيرة. قال عليه السلام : «من جمع بين صلاتين فقد أتى بابا من أبواب الكبائر» ـ حديث صحيح. وقال عليه السلام : أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة ـ وهو صحيح أيضا. وقال عليه السلام فيمن فاتته صلاة العصر : «فكأنما وتر أهله وماله». فلا يجوز لكم تأخير الصلاة عن وقتها المطلوب، ولا رخصة في ذلك في الدين. وأما آعتذاركم بأمر الكسوة فلا يعجزكم إزالة السترة والنعل عند الوضوء مرة أو مرتين في اليوم ولا إضاعة دقائق أو دقيقتين من الزمان في تحصيل فرض أو فرضين، بل النعل يمكنكم المسح عليه بشرطه من غير إزالة كما سبق. فربما تذهب لكم ساعات في محادثة من لا تجب محادثته. ولا تفوت ـ كيف بكم إخواني إن الله أوجب عليكم أن تقبلوا عليه بقلبكم

وجوارحكم خمس مرات في اليوم والليلة تقفون بين يديه تعبدونه لِإستحقاقه العبادة لأنه ربكم الذي خلقكم وخلق لكم ما في السموات وما في الأرض وتشكرونه أن غذاكم بنعمه. خلقكم في أحسن تقويم، وصوركم فأحسن صوركم وأكمل أعضاءكم وحواسكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وركب فيكم عقولا لتقبلوا عليه بها في كل وقت من الأوقات الخمسة فها أنتم تريدون آختصارها وجمعها في وقت واحد. أليس هذا من الجفاء العظيم : يقبل عليكم فتدبرون عنه ؟! فإذا صيرتم الأوقات الخمسة وقتا واحدا المشقة قريبة غير معتبرة شرعا، فكأنكم تصلون وقتا واحدا وذلك مخالف للحكمة التي أرادها في تفريق الصلاة عن الأوقات. فلهذا كان تأخير الصلاة من الكبائر.

الحكمة في تفريق الصلوات على الأوقات الخمسة وتفسير الفاتحة

مراد الحق سبحانه وتعالى من تفريق الصلوات على الأوقات أن نواجهه، سبحانه، بأبداننا وقلوبنا خمس مرات في اليوم والليلة ونترك الدنيا وراءنا. ولذلك نفتح الصلاة بقولنا : الله أكبر، فهو أكبر من الدنيا التي ملأت قلوبنا وأكبر من كل شيء يلهينا عنه. وأن نحمده على نعمتي الإيجاد والإمداد بقولنا : الحمد لله رب العالمين، والعالم هو ما سواه سبحانه. الرحمان بنا، حيث رحم ضعفنا فأفاض علينا نور الوجـود، والإمداد، والعقل، والإدراك، والإيمان، والإلهام للرشد والخير.

الرحيم، المتجاوز عنا إذا عصينا، المقبل علينا ونحن في غفلاتنا معرضون.

ملك يوم الدين، وهو يوم الجزاء والقيامة. قد ذكرنا سبحانه في الفاتحة، التي تكرر سبع عشرة مرة في اليوم والليلة، بيوم القيامة وأهواله من مناقشة الحساب ومجازاة المحسن والمسيء لننزجر عن المحرمات ونسرع إلى الطاعات.

فيا أيها الإخوان ! إن من تذكر في اليوم والليلة سبع عشرة مرة في يوم الحساب والجزاء بالنعيم أو العذاب لا محالة ينزجر، فلا يكذب، ولا يخدع، ولا يغش، ولا يحلف، ولا يشرب خمرا، ولا يزني، ولا يفعل محرما بل يقبل على الطاعات ويتصف بمكارم الأخلاق ويغتنم وجوه الخيرات. فلذلك يقول : إياك نعبد، ولا نعبد سواك عبادة لا رياء فيها ولا سمعة فيكون مخلصا. وإياك نستعين، فلا آستعانة ولا تعلق بسواك، فيكون متوكلا مطمئن القلب ساكن النفس مرتاح الضمير مفوضا أمره لمولاه

عائشا عيشة راضية. وتلك الصراط المستقيم، صراط من أنعم عليهم، وهم المسلمون الحقيقيون لا غيرهم ممن حل عليهم غضب الرب وضلوا.

فيا إخواني ! إن كان هذا هو المقصد من الصلاة، فكيف يؤخرها الإنسان وجماع الخير فيها وبتأخيرها تفوت تلك المقاصد كلها والله يقول ﴿حافظوا على الصلوات﴾، ولا يقبل منكم عذر في تأخيرها. ألا ترى أن من فقد الماء أو لم يقدر عليه، لم يقبل منه التأخير بل يتيمم ويصلي ولا يحتاج إلى غسل أو وضوء بل قد اختصر الله لنا التيمم فيقتصر الإنسان على مسح الوجه واليدين لأن الوضوء المقصود منه، مع التعظيم، النظافة بغسل اليدين والفم والأنف والوجه والرجلين ومسح الرأس والأذنين. أما التيمم، فلما كان القصد منه هو إظهار آحترام الحضرة الإلهية بالدخول لميدان المشاهدة اقتصر فيه على مسح ثلاثة أعضاء. ولا يقبل في تأخير الصلاة عذر إلا لمن أغمي على عقله وسلب الإدراك فقط وذلك إن لم يجد المسجد صلى، ولو في كنيسة. قال عليه السلام «جعلت الأرض لي مسجدا وطهورا». فأي ما أحد أدركته الصلاة فليصل. فمن لم يقدر على القيام جلس؛ ومن لم يقدر على الجلوس اضطجع؛ فإن لم يقدر فبإيماء : إذ المقصود الأهم حضور القلب مع الله ومناجاة الرب والخضوع إليه.

غير أني رأيت هذه المواعظ لم تؤثر في القوم، فقد حضر وقت المغرب وما صلى معي أحد منهم مع أني أعلمتهم بحضور الوقت أولا، وثانيا لعلهم يفعلون وكل الموانع التي يدعونها أعذار منتفية إذ ذاك. ولكن أين القلوب التي يؤثر فيها المواعظ ! فكان أسفي على ضياع وعظي كأسفي على ضياع دينهم وهم عنه سائلون.

البلد إذا انعدم فيها الشفق هل تسقط صلاة العشاء عن أهلها ؟

ومنها سؤالهم أن منشيستر لا يوجد لها شفق في بعض ليالي السنة، حتى أنهم يفرؤون الجرائد في نصف الليل من غير مصباح ويكون الليل قصيرا جدا والنهار طويلا جدا من آثنين وعشرين ساعة يصومونها كلها في بعض السنين. وفي وقت وجودي هناك كانت المغرب على الساعة العاشرة، لأن عرض البلد 53 وبعض دقائق، ولا يغيب الآن عندهم الشفق إلا في نصف الليل. ونهارهم أطول من نهار فرنسا وليلهم أقصر : فإن عرض باريز 95 : 49 فقط. فسألوني : إذا لم يغب الشفق هل يصلون العشاء أم لا ؟

الجواب : آعلموا أن الشفق المراد به الحمرة التي تبقى في السماء بعد غروب الشمس، لا البياض الذي يبقى بعد غروب الحمرة فلا عبرة به، خلافا لأبي حنيفة، ثم البلد التي لم تغب فيها الحمرة تردد فيها المتأخرون من الفقهاء هل تسقط عنهم إذا لم يغب الشفق بل يصلونها بعد طلوع الفجر لقوله عليه السلام لضمام ابن ثعلبة، كما في «**الصحيح**» : «إن الله أوجب عليك خمس صلوات في اليوم والليلة». وهو كغيره من عموم الأمة في هذا الخطاب. وكذلك حديث الإسراء : «إن الله فرض على الأمة خمس صلوات فقال هي خمس وهي خمسون...» (الحديث). فلابد من الإتيان بالخمس كلها ليخرج من عهده ترك الصلاة. وفي مسلم وأبي داود وابن ماجة والترمذي من حديث النواس بن سمعان في حديث الدجال : «قلنا : يا رسول الله، وما لبثه في الأرض ؟ فقال أربعين يوما يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم. قلنا، يا رسول الله : أرأيت اليوم الذي كالسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ فقال : لا ولكن اقدروا له». قال الترمذي : «حديث غريب حسن صحيح». قال في «**جمع بحار الأنهار**» : قوله : «ولكن اقدروا له، أي أقدروا له قدر كل يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه صلاة كل يوم بقدر ساعاته».

ثم الوقت الذي هو بين لم ينعدم بل هو موجود لأنه المدة أو حركة الفلك، وهي موجودة في أي محل كان المسلم، أما غيبوبة الشفق فهو علامة على الوقت وليس هو الوقت نفسه. فالقول بأن الوقت قد انعدم غلط محض. ألا ترى من كان ساكنا في القطب الشمالي الذي يكون النهار فيه ستة أشهر والليل ستة أشهر هل تسقط عليه الصلاة ولا يصلون إلا خمس صلوات في السنة كلها، لعدم طلوع الفجر وغروب الشمس، فيبقى أهلها في غفلة عن الله هذه المدة كلها ؟ كلا ثم كلا، بل يقدرون الأوقات ويصلون ويجعلون ما بين اليوم والليل أربعة وعشرين ساعة، إذ طلب الصلاة حكمة وهي التوجه إلى المولى وشكره على أنعامه كما سبق. وهذا القدر قد اشترك فيه أهل الأقطار كلها. كذلك هنا يحتاطون ويؤخرون العشاء حتى يطلع الفجر، لأن ضروريها يمتد إلى طلوعه كما هو القول المختار والله أعلم. وقد بلغني أن شهاب الدين المرجاني القازاني أفرد هذه المسألة بتأليف لم أقف عليه.

وسئلت كثيرا في هذه الرحلة: هل يجوز لبس البرنيطة واللباس الإفرنجي أم لا ؟

فكنت أجيب بأن اللباس الإفرنجي ليس خاصا بالكفار حتى يسأل عنه بل يلبسه الأتراك، وبعض العجم وأهل مصر وأهل تونس وأهل الجزائر، فلا معنى للقول بأن لباسه ردة أو حرام في بلد الإسلام فأحرى بلاد النصارى بقول بناني[90] في «**حواشي الزرقاني**» لدى قول خليل «وشد زنار» ما نصه : «المراد به ملبوس الكفار الخاص بهم». أما البرنيطة، فهي خاصة بهم لا يلبسها مسلم في بلاد الإسلام، فلا يجوز لباسها في بلاد الإسلام أما في باريز أو لندرة مثلا فيجوز لبسها لقول الزرقاني : «وقيد قول خليل وشد زنار أيضا بما إذا فعله في بلد الإسلام» بلفظه وسلموه فمفهومه الجواز في بلد الكفر مطلقا كان لضرورة أم لا، وسلموه. قال بناني : «وأما إن كان ذلك لضرورة، كأسير عندهم يضطر لاستعمال ثيابهم، فلا حرمة عليه فضلا عن الردة» ـ قاله ابن مرزوق وسلمه الرهوني[91].

ثم إن فعله في بلدهم لا شك في اضطرار الإنسان إليه لتعصبهم الشديد في لباسهم بخلافنا نحن الذين لا نتعرض لأحد ولو لبس وكيفما لبس. ويشترط في الجواز أن لا يلبسه محبة في ذلك الزي ولا ميلا لأهله وإلا كان ردة (آنظر بناني، والله أعلم)[92].

وصف منشستر

وفي يوم فاتح غشت أصبحت في منشستر فأخذت مركبة وطفت في أحياء المدينة، وإذا هي مدينة كبيرة مهمة جدا جميلة البناء والشوارع والمساكن. ومن جمالها أن غالب دورها لها بستان بجانبه فيه شجيرات وأزهار، ومع ذلك أكثرت الحكومة فيها من المنتزهات العمومية فهي أكثر البلاد منتزهات. وهي في الدرجة الأولى باعتبار الصناعة لا تدركها أي مدينة سواها وغالب بني آدم يكسى منسوجاتها القطنية، فلا تكاد توجد نسمة إلا وتمتعت بذلك وتمتع منها أهل هذه المدينة بالنقود. أسواقها وشوارعها منظمة للغاية، ومخازنها منضدة بالبضاعة وبها فبارك عديدة[93]، لذلك

---

(90) عبد الرحمٰن بن جاد الله البناني المغربي ثم المصري : فقيه أصولي استوطن مصر وجاور بالأزهر. درس برواق المغاربة في الأزهر وتوفي سنة 1198 هـ/1784م.

(91) الرّهوني (تقدمت ترجمته).

(92) للمؤلف فتوى في مسألة «لبس البرنيطة». آنظر المجموع رقم 115 ح في الخزانة العامة بالرباط.

(93) **فبارك** (ج فبريكة) : تحريف اللسان المغربي الدارج للكلمة الفرنسية Fabrique.

يقصدها التجار من شاسع الأقطار. بل توطن بها تجار من فاس ومصر والشام وغيرها.

مررت على مركز البريد ودخلته فوجدته مهما جدا، وأخبرت أنه للمكاتب الأهلية فقط ؛ أما المراسلات الأجنبية، فلها مركز آخر لا يقل عنه في الأهمية.

وزرت مدرسة الفنون الكلية وبقربها مستشفى عسكري وبعده مستشفى أهلي ومدرسة الأسنان وبقرب ذلك مدرسة ليلية لتكميل الدروس الصناعية.

ودخلت دار البلدية، وهي مهمة للغاية، وبها مركز البليس. وقد وقفنا برهة من الزمن أضاعوا لي فيها كثيرا من الأشغال للطبع على أوراق السفر حتى قلت للترجمان : لولا أن سبب خروج آدم من الجنة بينه القرءان لقلت إنه هرب من برودة أسئلة بوليس إنجليزي ـ ويوجد من البليس في منشستر ألف رجل.

وفي داخل دار البلدية عدة تماثيل لرجال مهمين من الإنجليز : منها تمثال عالم إنجليزي اخترع الفنيك المعلوم في فن الأدوية. وقبالة دار البلدية تمثال جد الملك الحالي زوج الملكة فيكتوريا، وهو ألماني الأصل، والتمثال في وسط قبة مزخرفة. وحكي لي أنهم أرادوا هدمه في أول الحرب تغيظا من أفعال الألمان، لكن راجعوا بصيرتهم وعلموا أن ذلك يجرح عواطف العائلة المالكة.

تعصب الإنجليز

ولا شك أن هذا من التعصب الذي يعيبون على المسلمين أقل منه. وقد تقدم أني رأيت في كنيسة سطرسبورج في الألزاس تمثال المرشال الفرنساوي، ما غيروا فيه شيئا إلى الآن، كما أن التماثيل الألمانية المنصوبة هناك أبقاها الفرنسيون كما وجدوها.

زرت في منشيستر بعض دور التجارة المهمة، وفي منشيستر البنوك العديدة الموجودة في شارع خاص بها. ومن الدور التي زرتها دار التاجر الرايط المشهورة بالأواني المعدنية من الأثاث والخرثى(94)، ودور بعض إخواننا المغاربة الذين لهم شهرة كهناك : كدار الفاضل الأديب الخبير الذي قل أن يوجد له في فنه نظير السيد أحمد بن جلون، فإن الرجل على جانب عظيم من اللطف والأدب والصدق في المعاملة

---

(94) الخرثي (بضم الخاء) : «أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم» ـ **المعجم الوسيط**.

والجد والحمية الدينية والوطنية وهو ملجأ سائر المغاربة لطول مكثه هناك مدة تنيف على الثلاثين سنة، وربي هناك صغيرا وتضلع من لغة القوم وعرف أساليب الحقوق والسياسة وهو أقدم رجل مغربي هناك يأخذ بمجامع قلبك، مهما لقيته، لمكارم أخلاقه وحسن أدبه وهو أفضل رجل لقيته هناك. أما بقية المغاربة الذين وجدت هناك إنما هم نواب عن إخوانهم القدماء كانوا هناك وربحوا في الحرب الأرباح الكثيرة وبارحوا تلك الديار إلى أوطانهم وما بقي إلا من كان عندهم من الخدمة معمرين الفضاء.

غريبة وتنبيه

سألت في منشيستر عن رجل كنت أسمع عنه كثيرا في الجرائد المصرية، وهو المسمى عبد الله كويلهام، فإنه كان يزعم أنه أسلم ودخل في الدين الحنيف مختارا له على سائر الأديان وأنه قام بواجب الدعوة يدعو إخوان النجليز للإسلام. فقال لي السيد أحمد بن جلون المذكور وغيره : إن الرجل قد تظاهر بذلك مدة طويلة وكان يطبع جريدة يشهر فيها أعماله يوجه بها للآفاق فتقاطرت عليه الإعانات من أقطار الإسلام، وخصوصا من أرض الزنوج والهند، وأَطْمَعَهُمْ أنه يبني مسجدا في بلد سكناه في ليفربول وأنه أسلم على يده 500 نفس. قال الراوي : وقد رأيت بعيني نجل ملك الأفغان سلم إليه صرة ذهب حين جاء البلاد النجليزية. قال : وأخبرني كويلهام المذكور أنها ألف وخمسمائة جنيه لبناء المسجد. قال : ثم إنه تبين أن لا مسجد وأن المحل الذي آشتراه جعله بآسمه على أنه داره، ليس بمسجد، وتبين خداعه وأنه لعبة لعبها فأخذ بها أموال المسلمين بباطل من القول لا حقيقة له. وقد ارتكب جناية في شهادة بطلاق امرأة، حيث إن صنعته كان محاميا. ولما رأى عزم الحكومة على القبض عليه فر إلى الأستانة وهو هناك الآن مظهرا لنصرانيته لا علاقة له مع الإسلام واستأثر بما نهب باسم نشر الدعوة وبناء المسجد. وحكى لي عن اختلاسه حكايات : منها حجاج انقطعوا من السودان وذهب بهم صاحب مركب إلى أمريكا، ولما رجعوا منها إلى بلاد النجليز ذهبوا عند كويلهام المذكور ليأخذ بيدهم فكتب إلى تجار منشيستر فجمعوا لهم إعانة أراد كويلهام أن يستأثر بذلك ويترك الحجاج المساكين في آنقطاعهم، ولكن آبن جلون المذكور أبى إلا دفع الإعانة يدا بيد. فانظر إلى حال المسلمين ينخدعون للكذابين كثيرا، لحسن ظنهم وصفاء طويتهم، فيظنون كل الناس مثلهم. وكم رأيت من آنخداع المغاربة والجزائريين لأصحاب

الطرق فيربحون منهم أموالا باسم المشيخة، وأين هي المشيخة، وإنما هم كذابون والمشيخة تتبرأ منهم براءة الذيب من ولد الأتان. ولولا انخداع المسلمين بالكذابين ما كانت ثورة في بلاد الإسلام، ولا نجح قط أبو حمارة ولا أبو عمامة ولا أبو حصيرة[95]، ولا أحد من الدجالين. فهذه نصيحتي لإخواني المسلمين.

فارقت منشيستر في الساعة 2,10 يوم السبت 2 غشت وكانت الأمطار غزيرة في أيام حلولي فيها والبرد كان شديدا مثل أيام مارس عندنا في المغرب لكن أخبروني أن قبل وصولي كان الحر شديدا، فالهواء هناك شديد التقلب مضر بمن فرط ولم يكن معتادا له.

عطلة النجليز الصيفية

وفي يوم نهوضي منها كانت عندهم العطلة الصيفية، يعطلون فيها جميع الأعمال ويخرجون لمدن السواحل يجعلون هناك نزهة وتقف فيها حركة التجارة والصناعة وذلك معروف عندهم كل سنة. والعملة كلهم تبقى لهم أجورهم معطلون لها ويكون لهم فرح عظيم ونشاط كبير بالحرارة التي يفقدونها جل أيام السنة، وهذا شيء عمومي في بلاد النجليز كلها.

بعد مفارقتي منشيستر كان رجوعي إلى لندرة عن طريق ستوكطبوط إلى كريوا[96]، إلى ستوفرود[97] إلى برمنكام[98] التي لها الشهرة المعلومة في العالم بمعادنها الحديدية ومعادن الفحم الحجري ومعاملها الكثيرة التي فاقت غيرها والتي تبيع المعامل للآفاق كثيرة وتبيع الفحم والحديد للكثير من الأقطار الأوروبية والإفريقية والأسيوية. ومن برمنكام إلى ركبي[99]، إلى نورثمافتون[100]، إلى يشتون، إلى

---

(95) **بوحصيرة** خارج في منطقة المعرب الشرقي في مطلع القرن. وقد كان معاصرا لأبي حمارة (تقدمت الإشارة إليه).

(96) Creuve.

(97) Stafford.

(98) Birmingham.

(99) Rugby.

(100) Northmafton.

واتفورد[101]، إلى لندرة. وكان حلولي في لندرة الساعة 6,45 : أقمت فيها ليلتين ونزلت في فندق في محطة فكتوريا، وتقدم لنا وصفه.

وفي يوم الإثنين، في الساعة 7 صباحا، سافرت من لندن إلى فلكسطون، وعند انفصالنا من محطة فيكتوريا التي هي طبعا بأطراف البلد بقينا نسير مسرعين ربع ساعة في القطار بين الأبنية المتصلة من دور ومخازن ونحن تارة نعلو فوقها، فتظهر تحتنا ونحن نتفرج في السكان خارجين صباحا من منازلهم كالنمل، وتارة تذهب بنا تحت الأرض وكلها مدينة واحدة. ثم بعد ربع ساعة خرجنا إلى البادية التي لو كانت في المغرب لعددناها خير حاضرة، لكثرة الأبنية والمنازل، غير أنها ليست متصلة، وهي في أرض جميلة خضراء لا ترى فيها غبراء ولا شهباء إلى أن وصلنا إلى فولكسطون وتقدم لنا وصفها.

ومنها ركبنا في يومنا إلى باريز، فوصلنا في الساعة 5 عشية، ونزلنا في فندق الرويل هوتيل.

---

(101) Watford.



آجتماعي بأعيان السودان المصري

لما ركبت البحر من فولكسطون إلى بولون، وجدت في الباخرة وفد السودان المصري الذي استقدمه النجليز لحضور احتفال عيد النصر لمثل مأموريتنا. وبمجرد أن وقع بصرهم علي رغبوا في الإِجتماع بي، ورغبت أنا كذلك. وقد اجتمعت بهم وتذاكرت معهم فوجدتهم سادة السودان ومن نخبة رجاله وأعيانه. وها أنا أذكر لك أسماء من دعي رسميا للإِحتفال، مع بيان وظائفهم.

1 ــ الشيخ سيدي أبو القاسم أحمد هاشم، شيخ عطاء السودان المصري : عليه جلالة العلم والوقار وهيبة المكانة والاعتبار. عالم كبير وشاعر شهير.

2 ــ أخوه الشيخ سيدي الطيب أحمد هاشم، شيخ المفتين : كذلك مشارك له في صفاته.

3 ــ سيدي إسماعيل الأزهري، قاضي دار فور كذلك.

4 ــ سيدي علي المرغاني، شيخ الطريقة المرغانية وشريف من أعاظم السودان ونقيب الأشراف.

5 ــ الشريف سيدي يوسف الهندي، شيخ طريقة[102].

6 ــ سيدي عبد الرحمن بن الإمام محمد أحمد المهدي الذي كان أمير السودان : له آحترام واعتبار.

---

(102) نعى مذياع لندن هذا السيد الذي بالغ في مدحه وأهم ما ذكر له هذه الرحلة التي ذهب لها صحبة هذا الوفد لتهنئة ملك النجليز بالنصر. وكانت وفاته بالسودان، الذي هو وطنه، يوم الأحد 19 ذي الحجة سنة 1361. وذكر أنه بمجرد إشهار الحرب الحالية الألمانية 1939 عرض على الحكومة الإغاثة بكل ما كان في إمكانه رحمه الله. قال المذيع، وهو الشيخ جمعة المصري، إنه كان أعرف الناس بأنساب قبائل السودان وأحوالهم. تغمده الله برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء (هامش للمؤلف). واضح أن الحجوي قد كتب هذا الهامش لاحقا (في الأربعينات). ولعل في هذه الإضافة ما يحمل على الإعتقاد أن المؤلف قد راجع رحلته أكثر من مرة، خاصة وأنه قد أشار إليها وتحدث عنها في أكثر من مؤلف من مؤلفاته.

7 – الشيخ إبراهيم فرحة، شيخ قبيلة جعليين..
8 – الشيخ علي التوم، ناظر قبيلة كبابيش عرب الجهة الغربية.
9 – الشيخ عوض الكريم أبو السن شيخ قبيلة الشكرية.
10 – الشيخ إبراهيم موسى، ناظر قبيلة الهدنداوة عرب الجهة الشرقية.

فهؤلاء رسميون، ومعهم بعض أعيان غير رسميين من الفضلاء : منهم الشيخ جعفر أحمد شرفي التاجر بأمّ درمان، والده أحد وزراء المهدي. ومنهم الشيخ حسن شريف، ابن بنت المهدي وغيرهم.

فلما دخلت البيت الذي كانوا فيه قاموا إلي، على عادة المصريين، وهشوا وبشوا بفصاحة لسان وطلاقة وجه وثبات جنان وأجلسوني معهم كأخ مع إخوانه وحصل لهم فرح عظيم الاجتماع بي مثل ما حصل لي بهم وهم في لطف لقائهم وحسن سلامهم كالمصريين والتونسيين : أدب لائق وترحيب وإجلال فائق، يلوح على سماهم الخير وعلى لسانهم الفصاحة والأدب اللذان هما نتيجة العلم والتربية الحسنة. وبمجرد آستقرار المجلس سألوني عن إخوانهم المغاربة وأحوال المسلمين، فأخبرتهم بحسن الأحوال وتقدم البلاد منذ آحتلال فرانسا في مدارج الأمن والعافية والسلامة من مصايب الحرب التي عضت غيرنا فأدمت أطراف الممالك. فحمدوا الله على ذلك وأخبروني بمثله عن أحوال بلادهم وسألوني : هل أعطيتم عسكرا للمحاربة ؟ فقلت : نعم، لكن لم يذهب أحد لا جبرا ورسميا وإنما من شاء تطوعا. فقالوا : أما نحن فما ذهب من السودان أحد. وسألوني عن مصارفة فرانسا معنا وهل تحترم مساجدنا. فقلت : نعم، إن افرانسا معلوم ذلك منها طبعا فهي أكثر الدول مسامحة في ذلك لعدم تعصبها للأديان، بل تترك الحرية العامة لأهلها. وما رأينا منها إلا آعتناء بمساجدنا وصيانة لها أكثر مما كانت، وصانت الأحباس ونظمت إدارتها ولا زالت سائرة في ذلك سيرا حثيثا.

ولما رأيت التفات بعضهم لبعض علمت أنه بلغهم خلاف ذلك، فأكدت لهم الخبر وقلت : إني أكلمكم بكل حرية في هذا الأمر، فإني الآن لست في افرانسا ولا في المغرب بل في مركب إنجليزي في بحر المانش، ولست موظفا أخاف على وظيف ولا حضر هنا من أراقبه مثلا. وما كان معنا إلا الترجمان الإنجليزي المكلف بوفدهم فقلت لهم : إني أحقق لكم ذلك. واستخبرتهم عن أحوال قطرهم وأحوال إخواننا السودانيين فطلبوا مني أن أعرف أهل المغرب بأحوالهم بإيضاح، فإنه بلغهم أن

المغاربة يعتقدون أنهم زنوج سودانيون متوحشون، والحال أن السواد الأعظم من أهل السودان المصري عرب صرحاء فيهم كثير من بيوتات الشرف والمجد ولا زال نسبهم محفوظا إلى الآن ينقل قعدده[103] خلفهم عن سلفهم، لم يدخلهم تغيير ولا هجنة ولسانهم عربي لا يعرفون الزنجية إلا قليل منهم. والزنوج الأصليون هم سكان الصحاري والجبال السحيقة ويعرف الزنجية من يجاورهم من قبائل العرب. وقالوا : حتى عوائدنا كعوائد العرب العرباء قبل البعثة في مجتمعاتهم وآحتفالاتهم وولائهم وجل أحوالهم إلا ما كان من أهل المدن الذين دخل بعضهم رفاهية التمدن اليسير.

وقد رأيت لباس هؤلاء السادة كلباس علماء مصر والحرمين تقريبا : بالجبة الطويلة الضيقة الكمين طويلة الأكمام وبالعمائم. فبعضهم يجعلها فوق قلنسوة عزف مزوقة، كما يفعل علماء الحرمين، وبعضهم فوق قلنسوة كتان والكل إسلام، ولا توجد الوثنية إلا في شواهق الجبال وشاسع الصحاري، وعلى مذهب مالك ابن أنس : سنيون أشعريون لهم ولوع بالطرق والأوراد الشاذلية وغيرها. فيهم علماء وشعراء وكتاب وفطاحل رجال في العلم والسياسة. ثم قال لي بعضهم : إن العرب دخلوا السودان المصري في القرن السادس الهجري من ثلاث جهات، وهو التاريخ الذي دخلوا فيه إلى إفريقيا، دخلوه من جهة مصر والحبشة وفزان في أرض طرابلس الغرب في زمن الفاطميين أمراء مصر. أما من كان دخل في زمن عمرو بن العاص، حوالي سنة 20، فكانوا جندا فاتحين قليلين وما وصلوا إلى ضفاف النيل وكانوا يسمون القنكـ (بالكاف المعقودة).

سؤال وفد السودان عن أحوال المغرب من حيث العلوم العصرية

سألني بعضهم : هل فتحت مدارس في المغرب لتلقي العلوم الوقتية المتعين على عموم الأمة الإسلامية طلبها، وهي ضالة الإسلام المنشودة وبدونها لا يرجى خير للإسلام ؟ فأخبرتهم بأني أول من تولى مندوب الصدر الأعظم في وزارة المعارف وأني بذلت مجهودا كبيرا بالخطب على العموم في كثير من المناسبات وفي دروسي الحديثية والتفسيرية وغيرها وفي تواليفي حتى حصل الإقبال في الجملة على هذه العموم. ولكن أغلب الأمة، تقريبا، لا زال نافرا منها لم يقع عليها الإقبال المطلوب مع أن الدولة

(103) **قعدد النسب** : (في عبارة المغاربة) ما يشكل القاعدة التي يكون الرجوع إليها في إثبات اتصال نسب مترجم من المترجمين.

الحامية تبالغ مجهودها في فتح المدارس وتشويق الناس إليها بواسطة عقلاء الأمة الذين فهموا أهمية المسألة وفتحت عندنا في كل المدن عدة مدارس ولا زالت تنمو وتزيد لولا الحرب الماضية لكان أكثر. وأملنا عظيم في النجاح وبلوغ المرام. فقالوا : إن السودانيين قد أدركوا أهمية العلوم العصرية وأقبل عليها جمهور الأمة وقد فتحت عندهم ما ينيف عن الستين مدرسة. وعندهم في الخرطوم، الذي هو عاصمة البلاد، مدرسة كلية جامعة للعلوم العصرية والعربية معا فيتخرج منها القضاة والعدول والمدرسون في العلوم العربية وغيرها، ويتخرج منها المهندسون والتراجمة والموظفون في الوظائف العالية. وجل المعلمين في المدارس هم الآن من السودانيين وقليل من المصريين، لا نحتاج إلى جلب المدرسين للعلوم العصرية من جهات أجنبية، بل عندنا مديرون ومفتشون للمدارس، بل للمعارف من نفس السودانيين أكفاء لما هم فيه. نعم، عندنا مدرسون من النجليزيين يعلمون لغتهم، وفي التعليم الانتهائي للعلوم الرياضية والطبيعية، وكل العلوم تتلقى عندهم بالعربية : رياضية وطبيعية، واللغة النجليزية لها دروس مخصوصة. وقد تجنبوا في مدارسهم الطبيعيات العقلية التي تمس العقائد : إذ ليست لها أهمية كبرى في الترقي الحاضر، إذ مداره على العمل لما يخشون من فساد اعتقاد الأولاد ولعدم وجود كتب لها منقحة من كل ما يفسد عقائد المتعلمين، وحين توجد الكتب المنقحة يصير تدريسها عندهم. قال : فالتلاميذ كلهم يتخرجون من المدارس متدينين معتقدين. وهم مجدون أن يفتحوا مدرسة طبية ومدارس أخرى لما لأهل القطر من الإقبال على العلم، وعندهم مطابع لطبع الكتب والجرائد ولهم أربعة جرائد عربية : **«رائد السودان»**، **«حضارة السودان»**، **«السودان»**، والرابعة ــ وهي الرسمية ــ **«غازيت سودان»**، تطبع باللغتين العربية والنجليزية وتكون فيها ميزانية مالية السودان كل سنة مبينة مفصلة. وعندهم في إدارات البلاد نظام خاص يقرب من نظام مصر : فعندهم قلم التشريع، الذي هو كمجلس شورى القوانين بمصر أعضاؤه ثمانية : منهم خمسة إنجليزيون وثلاثة مسلمون، أحدهم رئيس العدلية الإسلامية وهو قاضي القضاة، فلا يصدر أي قانون أو ضابط في القطر إلا بموافقتهم عليه. وكذلك في الجنايات لهم مجلس أعلى.

القانون الذي يتمشون عليه في السودان هو القانون الهندي، لكنه هذب وأصلحت فيه مواد لتوافق مصلحة البلاد. وفي كل البلاد لهم مجالس بلدية حرة تمام الحرية. قالوا : وأرضهم في غاية الخصب تنبت فيها الحبوب وكثير من الثمار. وعندهم

الأمطار غزيرة زيادة عن النيل الذي يخترق أرضهم، وفي الغالب لا يحتاجون إلى سقيه لكثير الأمطار التي تكون عندهم صيفا وخريفا.

وتوجد عندهم معادن، والسكك الحديدية مخترقة البلاد طولا وعرضا. قالوا : وعندنا في أم درمان، التي هي قسم من الخرطوم، معهد ديني عظيم مثل القرويين عندكم والأزهر في مصر، فتلقى فيه العلوم الدينية وإنها عندهم في تقدم وازدياد. ويوجد عندهم مدرسون كثيرون وتلاميذ عديدون كما توجد معاهد أخرى في بقية المدن، ولهم رواتب كافية يتقاضونها تكفيهم.

والأحكام الشرعية راجعة للقضاة، والتجارية لمجلس التجارة والجنايات لمجلس الجنايات كما في مصر. وسألتهم عن الكتب التي يدرسونها في المسجد الأعظم بأم درمان وفي غيره، فذكروا «**المختصر**» وشروحه، و«**الألفية**» و«**تلخيص القزويني**» و«**جمع الجوامع**» وغير ذلك من التآليف مثل ما في القرويين. فسر كل منا بما سمع من صاحبه فقلت لهم : سبحان الله، إن الأفكار النجليزية مشابهة للأفكار الفرنساوية : الكل يبحث عن المحافظة على الأمن والارتقاء وآنتشار العلم والتقدم لا يتعرضون لدين أحد ولا يوذون إلا من يريد إقلاق الراحة وشبوب نار الفتن أو عصيان القانون.

لا غرض لهم فيما سوى ذلك. وإن المغرب على مثل الحال التي أخبرتم بها.

ثم إن الوقت كان ضيقا لم يمكننا أن نزيد في المذاكرة، إذ مدة ركوبنا من فولكسطون إلى بولون كلها كانت نحو ساعة ونصف قضيناها في هذه المذاكرة التي كانت أشهى للنفس من الراحة للعليل ومن إغفاء الساهر في الليل الطويل. وما شعرنا إلا والمركب واقف ببولون، ولما نزلناها وآنتقلنا للسكة الحديدية آفترقنا وقد ذهبوا إلى باريز، ومنه إلى مارسيليا لركوب البحر إلى مصر، ثم منه إلى بلادهم. أصحبهم الله السلامة وإيانا جميعا.

ثم لما وصلت باريز، أقمت هناك يومين لقضاء بعض المآرب وتوجهت إلى مارسيليا، فكان نهوضي من باريز صبيحة الأربعاء، الساعة السابعة.

وداع باريز

وداعا لك يا باريز، رغْماً عنا والقلوب أودعناها وأسفنا لِفراقها أسف محب فارق حبيبه. فارقناها، وأي طبع لطيف يقوى على فراقها. بارحناها، وأي أحد يحب الجمال يقول بمبارحتها بعدما اجتمعت الألسن على مدحها والقلوب على حبها.

أودعكم وأودعكم جناني   وأنثر أدمعا مثل الجمان
فلو نُعطى الخيار لما افترقنا   ولكن لا خيار مع الزمان(104)

وقد خرج معنا واديها، لاسين، يودعنا منسابا معنا آنسياب الأفعى في بسيط رصع من ياقوت أخضر وعليه أغصان باسقة عليها أطيار ناطقة وأغراس متناسقة بينها مياه متدفقة. وكان الجو معتدلا مائلا للبرودة، فقطعنا نصف النهار كأننا في جنة نعيم والقطار يسير رملا وخببا، ولهيب الأسى ما خبا، وقلوبنا تذوب لفراق باريز وواديه وحاضريه وباديه.

ولما كانت الساعة 12 ونصف، دخلنا في نفق جبل عظيم مشى فيه القطار بمهل فقطعه في عشر دقائق. وهناك ودعنا البرودة، بل والاعتدال، وانتقلنا للجهة الجنوبية من أرض افرانسا التي هي أكثر حرارة من الجهة الشمالية فوجدنا السماء مصحية والجو صافيا جافا، وبرزت الغزالة في أثوابها الذهبية. ففي أول الأمر تلقيناها بغاية الفرح، كما يتلقى المبرود كانون الوقود، وكنا نستحسن منظرها متعرضين لأشعتها، فما كان إلا كلمح البصر أو أقرب حتى مللناها وسئمنا وقودها، بل ثقل علينا شعاعها وآستقْذَرْنا لعابها وألقينا علينا من الثياب الشعار بعد الدثار وجعلت الجباه تتقطر عرقا والقلوب تتقطر حرقا، فسبحان من لا يتغير.

وقد مررنا في طريقنا هذه بعدة قرى ومزارع وحقول وأشجار وغابات ومياه غزيرة. إلا أن مناظر هذه الجهة قريبة من مناظر المغرب لتقارب درجة الحرارة، إذ صرنا نرى الزرع المحصود يابسا والثمار ظاهرة النضج، والجنادب ذات ثج وعج.

---

(104) أغلب الظن أن الشاعر هو القاضي عبد الوهاب المالكي.

مدينة ليون وآثار الإسلام فيها

وفي الساعة الخامسة والنصف عشية، وصلنا إلى مدينة ليون، إحدى المدن الفرنساوية الشهيرة بمعامل الحرير، وهي مدينة عظيمة مبنية على ضفة وادي كبير عليه عدة قناطر ظهرت منها ثلاثة وواحدة مررنا عليها، وأخرى قربها محمولة على حبال الحديد من غير بناء تحت الجبال ولا أقواس. وتقدم لنا في رحلة تونس، في السنة الماضية[105]، وصف واحدة من هذا النوع رأيتها في قسمطينة. ورأيت عن بعد قنطرة أخرى على أقواس حجرية، بعيدة من المحطة، وأخرى ذات سبعة أقواس وغيرها حاصله سبع قناطر رأيتها.

وفي البلد حركة تجارية عظمى، يدل على ذلك كثرة طرق المواصلة فيها حتى إنه يوجد في محطتها الترامواي حيث لم يكتفوا بقطارات البخار بل زادوا طريق الميطرو الموجودة هناك في المحطة تحت أرض تمشي بالكهرباء أيضا مثل ما تقدم وصفه في باريز ولندن. وهي هنا لها محطات في المحطة الحديدية، مهما نزل الإنسان من السكة البخارية نزل إليها في درج وركب تحت الأرض وذهب لأي جهة شاء من جهات المدينة. هذا زيادة عما هناك من الأتومبيلات السيارة والحوافل ذات الحوافر. وفي الوادي زوارق تذهب حاملة وترجع حاملة، كل ذلك يدلك على عظمة التجارة بهذه المدينة.

ثم المحطة الحديدية من المحطات المهمة، عليها قبة زجاجية عظيمة. وفي المدينة وفي أمثالها من القصور الفخيمة والدور المنمقة ذات سبع طبقات وأقل، كدار البلدية وغيرها، فلا نطيل بذلك. وفيها مناسج الحرير الكبرى التي تبعث بمنسوجها إلى الأقطار البعيدة، فهي بمنزلة منشيستر في لندن التي تورد الكتان إلى كثير من البلدان، ولكن ليس الحرير كالكتان وليس نسج داوود كالعنكبوت.

بناء الطابيا في ليون، لعله من آثار الإسلام

وما عجبت منه في ليون، والتفت إليه بنوع خاص، وجود بناء الطابيا[106]

---

(105) لم أقف على الرحلة التي يتحدث عنها في مجاميع مخطوطاته التي يضمها قسم الوثائق والمخطوطات في الخزانة العامة بالرباط.

(106) **الطابيا** : نوع من الآجر هو مزيج من القش والتربة المطبوخة.

المعروف عندنا في المغرب فإنه يوجد شيء منه في ليون. وفي ضواحيها كثير، كأن أبنيتها بناء مراكش ووجدة. وما رأيت ذلك في بلاد افرانسا وإنجلترة إلا بهذه المدينة وضواحيها وفي بواديها. والغالب على ظني أن ذلك من بقايا العرب الذين دخلوا هذه النواحي وفتحوها على عهد الدولة المروانية والعامرية في الأندلس. ولعل هذا الشكل في البناء بقي من عملهم.

كما أن سكان هذه الجهة الجنوبية يوجد فيهم كثير من النسل العربي والإسباني، ويظهر ذلك في ألوانهم وشعورهم. فأهل الجهة الجنوبية من افرانسا شعرهم أسود ولونهم أشد حمرة من أهل الشمال. وشعور أهل الشمال تميل للشقرة. وفي عيون أهل الجنوب سواد لا يوجد في أهل الشمال. وأيضا جهة الشمال أبرد من الجنوب، لكن أشكال السكان تدل على قربهم من الشكل العربي المغربي.

مرسيليا

وصلنا إلى مرسيليا في الساعة الواحدة والنصف من ليلة الخميس ونزلت في فندق جنيف، قبالة البورصة من جهة البحر، وهو نزل بعيد من حيث البناء لكن خدمته سويسريون معاملتهم غير حسنة. على أن أهل مرسيليا، عموما، أخلاقهم دون أخلاق أهل باريس وإن شئت فقل : دون أخلاق الفرنساويين لاختلاطهم بالغرباء كثيرا.

مرسيليا أول مرسى تجارية فرانساوية، وإن شئت فقل : هي أعظم مرسى تجاري على البحر الأبيض المتوسط وأول مدينة فرنسوية في حركة التجارة وهي نقطة المواصلة بين فرانسا ومستعمراتها الإفريقية، التي هي أهم مستعمراتها، خصوصا تونس والجزائر وبعض مراسي المغرب. وهي ثاني مدينة فرانساوية في العمارة وكثرة السكان.

مرساها

خليج أمين للغاية. ففي وسط البلد مرسى قديم تاريخه ألفان وخمسمائة وثلاثون سنة، لأن مرسيليا من أقدم المدن الفرنسوية. وهو خليج مربع دخل من البحر في أول البلد، يحيط به البر من جهاته الثلاث، إلا منفذ ضيق تدخل منه المراكب وتحيط به الديار والمخازن. هذا الخليج الآن لا تدخله المراكب الكبار البخارية، لكن

تدخله مراكب الصيد والشراعية. وقد مدوا من هذا الخليج بعض خلجان صغرى على هيأة الأودية للزوارق ويصطادون منها الحوت.

قنطرة بحرية متحركة

من أعجب ما يرى في مرسيليا هذه القنطرة الغريبة الصنع، وذلك أنه عند منفذ الخليج الكبير السابق من جهة البحر جعلوا قنطرة معلقة في أسلاك معدنية غليظة، وتلك الأسلاك مربوطة في قنطرة حديدية عالية علقت فيها عجلات ربطت فيها الأسلاك التي علقت فيها القنطرة المتحركة. ثم إن القنطرة الحديدية العليا محمولة على ساريتين حديديتين هائلتين، واحدة مرتكزة على ضفة الخليج اليمنى والأخرى على الضفة اليسرى، ثم العجلات الملاصقة للقنطرة العليا التي علقت فيها الأسلاك تماس سلكا مكهربا، فإذا أرادوا تحريك القنطرة السفلى المعلقة ضغطوا على العجلات بآلة هي بيد رجل في الضفة اليمنى وآخر في اليسرى، ذاهبة آيبة بقوة كهرباء الأسلاك وهي من أغرب ما يرى. ركبنا فيها بأجر زهيد، خمس سنتيمات لكل راكب، ومعنا أتومبيلان وكاروا حاملة الأثقال. ولقد اندهشت من ثقل ما كان محمولاً فيها، مع كونها معلقة في الجو إلى علو شاهق، وإنما جعلوها متحركة لئلا تعوق المراكب عن المرور من المنفذ إلى داخل الخليج أو خارجه.

وفي مرسيليا مرفأ صناعي أعظم من هذا وأوسع، يسع الميئين من المراكب ووراءه مرفأ آخر أوسع منه. فلقد ركبت في بابور «عبدة»، من كمبانية باكى. فلما أقلع بنا من المرفأ الداخلي كانت المدة في قطعه المرفأ الأول والثاني خمسين دقيقة، لكن بنصف قوته البخارية. وإن هذا المرفأ لمن أعظم وأضخم المرافىء، عليه مخازن عظيمة مما يلي البلد، ولا زالت الخدمة جادة في إتمام عمل المرفإ الخارجي الذي هو وراء الداخلي.

وعند انتهاء المرفإ الداخلي قنطرة حديدية من أعجب ما يستغرب وذلك أن المرفأ الداخلي، الذي هو عبارة عن خليج على هيأة صهريج عظيم محاط برصيف مبني من حجر وسيمان، في غاية الإحكام والإتقان لأنه يدافع تيار البحر عن الخليج. وما أبقوا لهذا الخليج إلا منفذا واحدا تدخل منه المراكب لكنه ضيق فلا يسع إلا مركبين عظيمين : واحد ذاهبا وآخر آيبا، فجعلوا في وسط هذا المنفذ دكة مبنية بناء متينا في وسط الماء وركبوا عليها قنطرة حديد طويلة على قدر المنفذ

مرتكزة على تلك الدكة. فإذا كانت مركب داخلة أو خارجة أداروا القنطرة بآلة حديد متركزة في وسطها فوق الدكة فدارت بكل سهولة. وبعد مرور المركب ترجع القنطرة لمحلها يمر عليها الناس من ضفة هذا الرصيف إلى ذاك. وعند تركيبها يتصل الرصيف فلا يبقى للخليج منفذ ولا يمر مركب إلا بعد تحريك القنطرة لفتح الطريق. فالقنطرة إذا ركبت على الرصيف رسمت خطا من الشرق إلى الغرب، فإذا أدارها المكلف بها صارت تتباعد عن الخط الذي كانت راسمة له، ثم رسمت له خطا من الجنوب إلى الشمال.

ثم بانفصالنا عن المرفإ، في الساعة الخامسة عشية، انفصلنا عن أرض أوروبا وآستقبلنا الوطن العزيز بصدور ملأها الشوق وقلوب حنت إليه حنين الرضيع إلى أمه والجذع إلى خير البشر عليه السلام. آستقبلناه بوجوه باسمة مستبشرة وأفئدة ملؤها الأمل بجمع الشمل ومشاهدة الأهل. فلو مثلت أشواقنا في العالم الحسي لما مثلت إلا بأجنحة تطير بنا إلى أهلنا، لسآمتنا من الإغتراب وذهاب ذهب الجيوب في المصارف الباهظة لغلاء كل شيء، إلا الخبز، وفراغ المخازن الأوروبية من البضائع فما وجدنا ما نشتري للتجارة لا في فرانسا ولا في انكَلاتيرة. وإنما بعض الديار قاولتنا بتوجيه شيء من البضاعة بعد ستة أشهر ونحوها. وصرفت كثيرا مما صحبته معي للتجارة في مصارف السفر والباقي رددته، وما اشتريت للتجارة إلا قليلا لا يسمن ولا يغني والأسوام زادت عما كانت عليه في الحرب في كثير من الأشياء، مع أن العالم كان يظن خلاف ذلك. ولذلك كانت البضاعة وقع فيها نزول عظيم عند إمضاء شروط الهدنة.

ولفقدان المتاجر أسباب أهمها في هذا الوقت آعتصاب العملة وسريان الأفكار البولشفكية للطبقة السفلى من العامة، يريدون مساواة العملة مع أصحاب المعامل في الأرباح فيعتصبون ويمتنعون عن العمل : يدعون غلاء المعيشة فيلبِّي أصحاب المعامل طلبهم ويزيدونهم في الأجور وينقصون من ساعات العمل. لكن أصحاب المعامل يزيدون ما زادوه للعملة على أثمان البضائع، فيتفاحش آرتفاعها ولا أدري إلى ماذا تصير إليه هذه الأحوال وإنما هي فوضى تحت ستار الإعتصاب.

وكل يوم تعتصب طائفة من العمال : فيوم وصولنا لباريز آعتصب عملة المطاعم والقهاوي، فلم نجد في محل نزلنا من يناولنا الطعام إلا رب المطعم وكتابه. ويوم وصولنا سطرسبورج، وجدنا آعتصاب أصحاب الترامولت. ولما جعلت الحكومة في

محلهم ضابط الجيش الفرانساوي، هجم المعتصبون على يوطناهم[107] وقتلوه وجرحوا إثنين. وهكذا عمل المعتصبين : يهجمون على من يقوم بالعمل بدلهم فيمنعونه بالقول، فإذا لم يساعدهم قتلوه. وفي إنجلترة اعتصب أصحاب مناجم للفحم الحجري، فأثروا على بلدهم وعلى فرانسا وغيرها بسبب انقطاع الفحم وفقدت الصنائع لأن الفحم به حركة دوالب المعامل. ثم اعتصب البليس الذي هو ناظم إنجلترة، وتقدمت الإشارة إليه.

وهكذا كل يوم تعتصب طائفة، وكل هذا من آثار مصائب الحرب الهائلة التي قوضت أركان العمارة والتمدن والسلم والهناء، خفف الله عن العالم آلامها بمنه، آمين. وذلك أن الحرب زرعت أفكار البولشفكيين أولا، ثم أتت على النقود الذهبية والفضية التي كانت في صنادق مالية المتحاربين فنقلتها مصارف الحرب إلى صناديق المتحايدين ولم يبق إلا الأوراق، وغلت أثمان الفضة والذهب. والغالب أنها في الحقيقة ما غلت، لأنها هي قيم الأشياء في العالم قاطبة، وإنما الأوراق نزلت بسبب ذهاب ما كان في البنك ضمانا لها من النقود. مثلا، البنك الجزائري طبع عددا من الأوراق إبان السلم بإذن من الدولة وأنزل قدرها من الذهب ضمانا لها تحت مراقبة الدولة، فلما وقعت الحرب أباحت قوانين الحرب للدولة أن تأخذ كل ما بيد الناس من النقود في البنوك وغيرها فقلت واشترت بها الضروريات من الخارج، لأن المتحايدين إذ ذاك لا يقبلون إلا الذهب، فذهبت ضمانة الأوراق إذ كانت تلك الأوراق دينا حالا على البنك الذي وضع خط يده عليها هو وكاتبه الأول مضمونا بالذهب. فأما قبل الحرب، فكان الناس يتصارفون بها كما يتصارفون بالذهب، لأنك مهما ذهبت بها عند البنك التي هي باسمه إلا ودفع لك القيمة حينا ذهبا أو فضة. أما بعد الحرب فإنه لا يدفع قيمة فلم تبق كما كانت في الخارج فصار الدول الأجنبية لا يقبلونها إلا بحطيطة وإن كانت في فرانسا مثلا بقيت كما كانت، لا يطلب فيها أحد نقصا ولا زيادة، لكن المعاملة بها عامة ولا يوجد غيرها إلا نادرا. فإذا أخذ الإنسان الورق الذي قبضه في فرانسا بمائة فرنك وذهب إلى إسبانيا أو سويسرا ليشتري كتانا أو ملفا أو سكرا اعتبروا المائة فرنك بستين فقط، فعظمت قيم المواد التي تحتاج فرانسا إلى جلبها من خارج وتبعها غيرها بالضرورة. فهذا السبب الأعظم في غلاء المعيشة.

---

(107) تحريف في النطق المغربي الدارج للكلمة الفرنسية Lieutenant (رتبة من رتب ضباط الجيش).

ولما غلت المعيشة على ملاك الدور والمخازن زادوا في الأكرية بنسبة ما زيد في المعيشة بالضرورة. إن الذي كان يقبض ألف فرنك في الشهر كراء يعول بها عياله لم تبق كافية له إلا إذا زاد ستمائة مثلا، وهكذا سائر الأشياء، ولا زالت كل يوم ترتفع. وفي الحقيقة كل هذه المصائب من الحرب ومن فكرة المصارفة بالأوراق فإنها حيلة استنزفت ثروة الأمة وجعلتها بيد الدولة والبنوك وأرباب الأموال.

لكن مع طول الأيام، لما تتوفر الأموال بيد الدولة من الضرائب بالضرورة، ترد للبنوك ما اقترضت منها فترجع الثقة للأوراق كما كانت، شيئا فشيئا ـ هذه الأزمة التي تركناها وراءنا في أوروبا، وخصوصا في بلد المتحاربين، نعم، مصيبة ألمانيا في هذا الباب أعظم وذلك أن المارك الألماني تركناه يساوي ستة وثلاثين سنتيما فرنسوية والمارك هو فرنك وربع. فمالية ألمانيا أكثر من غيرها بكثير، ومن هذه النسبة تعلم مقدار النصر الذي حصلت عليه فرانسا. ولقد كنت أتذاكر يوما مع الوزير السيد الحاج عمر التازي في هذه المسألة فأخبرني بثمن المارك فتعجبت من خبره حتى تحقق ذلك عندي وأخبرني أنه آشترى منه عددا بذلك الثمن وقال لي : كل ما تريد منه موجود وزاد نزوله بعد ذلك. وفي هذا الشهر ديسانبر، الموافق لربيع الأول، بلغت قيمته إحدى وعشرين سنتيما. فإذا اعتبرته بالنسبة إلى السكة الأمريكانية التي هي أعلى من الفرنك الفرانساوي بكثير، بنحو ثلاثة أضعاف، صار المارك الألماني عندهم ثمنه كثمن أوراق لعب الصبيان ليس له إلا قيمة الورق والطبع والتزويق فقط تقريبا. وأحط منه أوراق الروسيا، فإنها تساوي الآن في فرانسا خمسة سانتيم أو ستة فتكون في أمريكا بنحو سانتيمين، فلا أدري كيف هي المعيشة الآن في روسيا وكيف هي أحوالها مع أن الفتنة لم تزل فيها والحرب قائمة على ساق : كل يوم تهرم ثم ترجع إلى شبابها. ولله در عمرو ابن معد يكرب :

الحرب أول ما تكـــون فتنـــــة   تسعـــى بزينـتها لكـــل جهـــول
حتـى إذا اشتعـلت وشب ضرامهـا   ولت عجـــوزا غير ذات حليــــل

وبعد آنفصالنا من ساحل مرسيليا، في الساعة السادسة، انتشر في البحر ضباب كثيف حال دون رؤية ما في البحر وهالنا الأمر حيث أوقدت المراكب الأضواء ونفخت الأبواق خوفا من اصطدامها مع مركب أخرى وحصل في الوهم شيء من الأفكار المضادة للسلامة فتعوذنا بالله وآلتجأنا إليه. وقال بعض الركاب : لا تخف من

الِاصطدام، فالمراكب التي تصطدم بنا أغرقتها الحرب والحركة في البحر قليلة فلا خوف من الِاصطدام. وفي الساعة السابعة آنجلى ذلك وانقشعت الأوهام وحصل الأمن والحمد لله.

وكان البحر رهوا في غاية السكون، ونحن معه في غاية الراحة والِاطمئنان إلى أن وصلنا إلى قرب جبل طارق فرأينا عجبا، وهو ملتقى البحر الأبيض مع المحيط، فإن تيار المحيط أعلى من الأبيض كأنها درجة في البحر على امتداده قرب ساحل جبل طارق. حتى إن البحر لما علاه حصل لنا إحساس بذلك مع سكون البحر إلى النهاية.

طنجة

وقد وصلنا إلى طنجة في الساعة التاسعة صباح يوم الإثنين 18 أوط(108) ووجدت في المرفإ بعض الأحبة منتظرا، خصوصا الفقيه الكاتب سلالة الوزارة وغير المضان الصدارة، سيدي محمد العربي الصنهاجي(109) خليفة النائب بطنجة والمستشار السياسي بها ونائب المخزن في شركة الريجي ومعه كاتبه الفقيه الأديب السيد أبو بكر عواد، نجل قاضي سلا الفقيه السيد علي عواد. وكان نزولي بدار المستشار المذكور فأكرم، بل بالغ وتجاوز الحد المطلوب في الضيافة وحسن المقابلة، جزاه الله خيرا ــ آمين.

ولقد زرت معاهد طنجة العلمية والدينية واستوعبت أحوالها، وكنت قبله قد ترددت إليها سبع مرات وهذه الثامنة. وآخر عهدي بها سنة 1330، فرأيتها قد

(108) شهر غشت (Août).

(109) السيد العربي الصنهاجي رجل محنك في وظائف مهمة، وله آعتبار رائد ومحبوب لدى الخصوص والعموم، لما قام من كريم الخصال وخصوصا حسن أخلاقه وتواضعه الزائد. كان أبوه صدرا أعظم لدى الأمير المقدس مولاي الحسن، وأبوه مشهور بالعلم والشعر والأدب والفضل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات التي أهلته لنوال الوظيف المذكور الذي لم يكن أعلى منه في المغرب. وبقي في الصدارة إلى أن توفي رحمة الله عليه سنة 1309. وفيها توظف ولده السيد العربي المذكور كاتبا في الوزارة الكبرى، وكان قبله كاتبا لوالده، وبقي كذلك إلى سنة 1321 وفيها ارتقى إلى وزير الخليفة مولاي حفيظ بمراكش. ولما نودي به ملكا رقاه لوزارة العدلية عنده، ولما انتقل لفاس تركه وزيرا مع أخيه وخليفته مولاي بوبكر، ثم رجع إلى خطة الخطة في الصدارة، عام 1327، ثم ارتقى إلى خطة كاتب ثان بها بعد نشر الحماية الفرنساوية سنة 1330. ثم ارتقى إلى نائب وزير العدلية سنة 1332، ثم إلى خطته التي هو بها الآن في طنجة حفظه الله ووفقه وسنه 47 سنة. كانت ولادته سنة 1290 أطال الله بقاءه وبارك في أنفاسه.

تأخرت كثيرا عن كل تلك المرات التي ترددت إليها. عرفت حركة تجارتها سقوطا عظيما ووقف سير نموها، فإني كنت أعهد بها حركة تجارية أكثر من كل المراسي المغربية، إلا ما كان من الدار البيضاء. وكنت أعهد بها البناء متزايدا وكل يوم تشيد القصور وتنجز الدور وتزداد العمارة وتنمو التجارة فما بقي الآن بها ولا شيء من ذلك. بل تأخرت في كل الشؤون الاقتصادية والعمرانية، حتى إن النظافة التي كنت أعهد بها لم يبق منها شيء، بل القاذورات تجدها مهما خرجت من منزلك. فهي أحط المدن المغربية نظافة الآن.

ولقد تذاكرت مع المعتمد السياسي الفرنساوي بها فسألني : كيف رأيت طنجة ؟ فأخبرته بهذا فاعترف به. ولكن نرجو أن يكون لها مستقبل زاهر، فإن همة هذا المعتمد الجديد متوجهة كذلك وخصوصا فيما يرجع للتعليم فإن في نيته إنشاء مدرسة لأولاد المسلمين وترتيب مدرسين بالجامع الكبير وغير ذلك.

وقد سألني عن الكيفية التي تناسب أفكار المسلمين وديانتهم في ذلك فقلت له : لابد أن المدرسة تكون تعاليمها خالية من الفلسفة العقلية التي تناقض عقائد المسلمين، بل أول ما يدرس في مدارس المسلمين العقائد الدينية الإسلامية ليأمنوا على أولادهم من الكفر، ثم آداب دينهم في أحكام العبادة التي من جملة ما يستفاد منها النظافة وحسن العشرة ونزاهة النفس. فهذا هو السبب الوحيد الذي يجذب المسلمين لتعليم أولادهم. أما فيما يرجع للتدريس، فالمسجد الأعظم في المدينة لا يخلو من أهل العلم وهم موجودون : أعرفهم بأسمائهم وبعضهم بأعيانهم. وإنما الأمر المتوقف عليه هو الراتب والمراقبة خوف الكسل. فاستحسن ذلك كله ووافق أفكاره التي يظهر منها أنها حسنة جدا نحو المسلمين، جزاه الله خيرا.

وبعد مكثي بطنجة خمسة أيام وأربع ليال نهضت منها إلى الدار البيضاء يوم 22 أوط عشية، فوصلت إليها في صبيحة اليوم بعده على ظهر المركب **«جبل درسة»**، وهو مركب صغير قذر لم يوافقني المبيت فيه تلك الليلة وأتعبني روائحه الكريهة وعدم وجود أسباب الراحة في محل النوم وغيره. والحمد لله على قصر المسافة، ولو طالت لهلكت.

وبعد حلولي بالدار البيضاء آسترحت ليلة من عناء البحر وتوجهت إلى الدار البيضاء لمقابلة الجلالة اليوسفية، أدام الله نصرها وأبد عزها وفخرها، فقابلت جلالته

يوم الجمعة قبيل الصلاة وعلى محياه الكريم البشر فسألني عما رأيت في رحلتي، فأخبرته على وجه الاِختصار بما يناسب وتزودت منه صالح الدعاء.

وآنصرفت لمسقط رأسي ومحل أنسي، فاس المحوطة بالله من كل باس، فوصلتها يوم الأحد بعده بخير وسلام ووجدت الأهل كذلك كما تركتهم. وعظمت النعمة بالاِجتماع بهم. والحمد لله على نعمته التي بها تتم الصالحات.

وهناك ألقيت عصا التَّسْيار وقر القرار.

مصادر الدراسة ومراجعها

محمد إبن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، نشر وتحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي (جامعة محمد الخامس)، 1965، الرباط.

محمد إبن عثمان المكناسي، **البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط (ح 52).

محمد إبن عبد الله الصفار، **الرحلة**، مخطوط في الخزانة الحسنية بالرباط (113).

محمد الطاهر الفاسي، **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**، نشر وتحقيق محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس، 1967، فاس.

إدريس بن محمد العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، منشورات المطبعة الحفيظية (مطبعة المكينة)، 1908، فاس.

أحمد الكردودي، **التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإصبنيولية**، نشرة وتحقيق عبد الوهاب بن منصور، منشورات المطبعة الملكية، 1963، الرباط.

إدريس الجعايدي، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، مخطوطة في الخزانة الصبيحية بسلا أعدها للنشر السيد عز المغرب معنينو قصد الحصول على شهادة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (ماي 1990).

الحسن الغسال، **الرحلة**، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط في نسختين (90 ح، 1496د).

محمد الحجوي، **الرحلة الأوروبية**، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط (115 ح) (ألحقناها بهذه الدراسة بعد تحقيقها).

عبد الرحمن إبن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** (5 أجزاء)، المطبعة الوطنية، 1931، الرباط.

محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث** (جزءان)، دار الغرب الإسلامي، 1985، بيروت (الطبعة الثانية).

سعيد بنسعيد العلوي، **الاجتهاد والتحديث : دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب**، مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992، مالطة.

سعيد بنسعيد العلوي، «نصيحة الأمة وإرادة الوحدة : محمد الثالث واختياراته المذهبية»، **مجلة الاجتهاد** (العدد العشرون)، صيف 1993، بيروت.

جامعة مولاي علي الشريف (**الدورة الثالثة**)، منشورات وزارة الثقافة، 1993، الرباط.

فهرس

الدراسة

الــمـلاحــق

للمؤلف

1 ـ **دولة الخلافة : دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1980، الرباط.

2 ـ **الإديولوجيا والحداثة : قراءات في الفكر العربي المعاصر**، المركز الثقافي العربي، 1988، الدار البيضاء.

3 ـ **الخطاب الأشعري : دراسة في العقل العربي الإسلامي**، دار المنتخب العربي، 1992، بيروت.

4 ـ **الاجتهاد والتحديث : دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب**، مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992، مالطة ـ بيروت.

من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الـربــاط

بحوث ودراسات

Essais et Etudes

- محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية (صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، 1991.
- أحمد الطريسي أعراب : الإبداع الشعري والتحولات الاجتماعية والفكرية بالمغرب، من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين للميلاد، 1992.
- أحمد المتوكل : آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، 1993.
- عمر أفا : النقود المغربية في القرن الثامن عشر، 1993.
- أحمد شوقي بنبين : دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، 1993.
- **El Mostafa Haddiya : Processus de la socialisation en milieu urbain au Maroc, 1991 ; 1995 (2e édition).**
- **Fouzia Rhissassi, A textual Study of Thomas Hardy's *Laife's Laittle Ironies*, 1994.**
- **EL Mostafa Chadli : Sémiotique: vers une nouvelle sémantique du texte (Problématique, enjeux et perspectives théoriques), 1995.**
- **Ahmed Boukous, Société, langues et cultures au Maroc, 1995.**

رسائل وأطروحات جامعية

Thèses et Mémoires

- أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850/1912) طبعة جديدة، جزءان في مجلد واحد، 1983.

- نعيمة هراج التوزاني : الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن (1290 — 1311 / 1873 — 1894) مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، يناير 1979.
- سعيد بسعيد : دولة الخلافة، دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي، 1980.
- سالم يفوت : مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر.
- عبد اللطيف الشاذلي : الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، 1982.
- محمد مزين : فاس وباديتها (1549 — 1637 م)، جزءان، 1986.
- مبارك ربيع : مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، 1991.
- محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
- أحمد أبو زيد : التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، 1992.
- فاطمة طحطح : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، 1993.
- محمد الروكي : نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، 1994.
- عبد الرحمن المودن : البوادي المغربية قبل الاستعمار، 1994.

- Abderrahmane Taha : Langue et Philosophie, essai sur les structures linguistiques de l'ontologie, Janvier 1979.
- Ali Oumlil : L'histoire et son discours, essai sur la méthodologie d'Ibn Khaldoun, 1979.
- Abdellatif Bencherifa : Chtouka et Massa, étude de géographie agraire, 1980.
- Abdelkader Fassi Fehri : Linguistique arabe : forme et interprétation, 1982.
- Ahmed Moutaouakil : Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe, 1982.
- M'Hamed Jadda : Bibliographie analytique des publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines (1915 – 1959), 1994.
- Mohammed Kenbib : Juifs et Musulmans au Maroc (1859 – 1948), 1994.

- Azizà Bennani : Monde mental et monde romanesque de Carlos Fuentes 1985.
- Larbi Mezzine : Le Tafilalt, Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles, 1987.
- Hassan Benhalima : Petites Villes Traditionnelles et Mutations Socio-Economiques au Maroc, le cas de Sefrou, 1987.
- Mohamed Berriane : Tourisme national et migrations de loisirs au Maroc (étude géographique), 1992.
- Aḥmed Chouqi Binbine : Histoire des bibliothèques au Maroc, 1992.

هذا الكتاب

تحمل قراءةُ متن «الرحلة الأوروبية» المرءَ على التنقل في رحلة أخرى، رحلة من طبيعة مغايرة، هي تلك التي يقطعها الوعي بالذات أو تقطعها الذات، في لحظات حصول الوعي لها بذاتها. ونحسب أن الانتقال في مطالعة ذلك المتن ابتداء من «البدر السافر» و«الإكسير» إلى «إتحاف الأخيار»، مروراً بنصوص رحلات كل من الصَّفَّار والعمراوي والطاهر الفاسي، وانتهاء بالحجوي في «الرحلة الأوروبية» ـ انتقال يؤكد لنا وجود الارتباط العِلِّيّ المباشر بين حصول الوعي بالذات، وكيفية تجليه أو ظهوره، وبين إدراك الآخر: ذاك الذي تقضي الذات بمغايرته لها واختلافه عنها.